غابرييل غارسيا ماركيز



اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة

رواية

ترجمة
صالح علماني



غابرييل غارسيا ماركيز

اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة

قصص

ترجمة

صالح علماني

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

Book: Ethnta Ashrta Qeseh Qasereh Mohajerah

الكتاب: اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة

Gabriel García Márquez

ترجمة: صالح علماني

Translated By: Saleh Almani

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ - ٠١ - ٣٥٢٣٠٤

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-203-5

مقدمة
لماذا اثنتا عشرة
ولماذا قصص قصيرة
ولماذا مهاجرة

الاثنتا عشرة قصة التي يضمها هذا الكتاب كُتبت على امتداد الثمانية عشر عاماً الماضية. وقبل أن تتخذ شكلها الحالي، ظهرت خمس منها كمقالات صحفية وسيناريوهات سينمائية، وواحدة كمسلسل تلفزيوني، وهناك واحدة أخرى كنت قد رويتها قبل خمسة عشر عاماً في مقابلة مسجلة، وقد أعاد كتابتها الصديق الذي رويتها له ونشرها، وها أنذا أعود الآن إلى كتابتها استناداً إلى تلك الرواية. لقد كانت ولادة هذا الكتاب تجربة إبداعية غريبة تستحق الشرح، حتى ولو كان ذلك لجعل الأطفال الذين يريدون أن يصبحوا كتَّاباً حين يكبرون، يعرفون منذ الآن كم هو إدمان الكتابة شره وحكاك.

الفكرة الأولى خطرت لي في بداية السبعينات، بمناسبة حلم مضيء حلمت به بعد خمس سنوات من العيش في برشلونة. حلمت أنني أحضر مأتمي بالذات، وأنني أقف على قدمي، وأمشي

بين جماعة من الأصدقاء يرتدون ملابس الحداد الوقورة، ولكن بحماسة احتفالية. وجميعنا كنا نبدو سعداء باجتماعنا معاً. وكنت سعيداً أكثر من الجميع بتلك الفرصة السارة التي منحنى إياها الموت للقاء أصدقائي من أمريكا اللاتينية.. أقدم الأصدقاء وأحبهم إلى نفسي، ممن لم أرهم منذ زمن طويل. وبعد انتهاء المراسم، حين بدؤوا بالانصراف، حاولت مرافقتهم، لكن واحداً منهم جعلني أرى بقسوة حاسمة أن الحفلة بالنسبة إليّ قد انتهت. فقد قال لي: «أنت الوحيد الذي لا يستطيع الانصراف من هنا». وعندئذ فقط أدركت أن الموت يعني عدم اللقاء مع الأصدقاء إلى الأبد.

لست أدري لماذا فسَّرت ذلك الحلم النموذجي على أنه وعي لهويتي، وفكرت في أنه نقطة بداية طيبة للكتابة عن أشياء غريبة تحدث للأمريكيين اللاتينيين في أوروبا. وكانت تلك لقية مشجعة، لأني كنت قد انتهيت قبل فترة قصيرة من ***خريف البطريرك***، أشد أعمالي صعوبة ومخاطرة، ولم أكن أجد ما أبدأ به.

وعلى امتداد سنتين، رحت أسجل ملاحظات عن موضوعات كانت تخطر لي دون أن أقرر ما الذي سأفعله بها. ولأني لم أكن أملك في البيت دفتر ملاحظات في الليلة التي قررت فيها البدء بتدوين ملاحظاتي، فقد أعارني ابناي دفتراً مدرسياً. وكانا يحملانه في حقائب كتبهما خلال رحلاتنا الكثيرة، خشية فقدانه. وقد توصلت إلى تدوين أربعة وستين موضوعاً تتضمن تفاصيل كثيرة، ولم يكن ينقصني إلا كتابتها النهائية.

ذهبت إلى مكسيكو بعد عودتي من برشلونة عام ١٩٧٤، وهناك اتضح لي أن هذا الكتاب يجب ألا يكون رواية، مثلما خيل إليّ في البداية، وإنما مجموعة قصص قصيرة، تستند إلى وقائع صحفية، ولكنها متحررة من شرطها الأخلاقي بحيل شعرية. كنت قد كتبت حتى ذلك الحين ثلاث مجموعات قصصية. ومع ذلك، فإن أياً من الكتب الثلاثة لم يكن معتبراً ومحسوماً كوحدة متكاملة، بل كانت كل قصة تشكل قطعة عرضية وقائمة بذاتها. وهكذا بدا لي أنه يمكن لكتابة القصص الأربع والستين أن تكون مغامرة أخاذة، إذا استطعت أن أكتبها كلها بالخط نفسه، وبوحدة داخلية في الإيقاع والأسلوب تجعل منها كلاً لا يتجزأ في ذاكرة القارئ.

كتبتُ القصتين الأوليين ـ ***أثر دمك على الثلج*** و***الصيف السعيد للسيدة فوربيس*** ـ سنة ١٩٧٦، ونشرتهما على الفور في ملاحق صحفية أدبية في عدة بلدان. لم أسترح يوماً واحداً أثناء ذلك، ولكنني في منتصف القصة الثالثة، وهي قصة جنازتي في الواقع، أحسست بأنني أرهق نفسي أكثر مما أرهقها لو كنت أكتب رواية. وقد حدث لي الشيء نفسه في القصة الرابعة، وبلغ الأمر حداً فقدت معه الحماسة على إكمالها. الآن عرفت السبب: فالجهد المبذول في كتابة قصة قصيرة لا يقل زخماً عن الجهد المبذول للبدء في كتابة رواية. ففي الفقرة الأولى من الرواية يجب تحديد كل شيء: البناء، النبرة، الأسلوب، الإيقاع، الطول، وحتى طابع بعض الشخصيات أحياناً. ولا يبقى بعد ذلك إلا متعة الكتابة، أكثر

المتع التي يمكن تصورها حميمية وتفرداً. وإذا كان أحدنا لا يقضي كل ما تبقى من حياته في تنقيح الكتاب نفسه، فما ذلك إلا لأن الصرامة الحديدية نفسها التي نحتاج إليها للبدء بالكتاب، تفرض علينا أن ننهيه. أما القصة القصيرة، فليس لها بالمقابل بداية ولا نهاية: فإما أن تتشكل أو لا تتشكل. فإذا لم تتشكل، فإن التجربة الذاتية وتجارب الآخرين تعلمنا أن الطريقة الأكثر صحة في معظم الأحيان هي البدء بها من جديد عبر طريق آخر، أو الإلقاء بها إلى القمامة، وهذا ما قاله بعبارة مواسية شخص لا أذكر اسمه: «من الأفضل تقويم الكاتب الجيد بالنظر إلى ما مزقه وليس ما نشره». صحيح أنني لم أمزق تلك المسودات والملاحظات، ولكنني فعلت ما هو أسوأ من ذلك: ألقيت بها إلى النسيان.

أذكر أن الدفتر كان موجوداً حتى عام ١٩٧٨ على طاولة عملي في مكسيكو، الغارقة بعاصفة من الأوراق. وفي أحد الأيام، بينما أنا أبحث عن شيء آخر، انتبهت إلى أن ذلك الدفتر قد اختفى عن ناظري منذ مدة طويلة. لم أهتم بالأمر. ولكنني حين أيقنت أنه غير موجود فعلاً على المنضدة، أُصبت بنوبة ذعر. لم يبق مكان في البيت إلا وخضع لتفتيش دقيق. حركنا الأثاث من أماكنه، أفرغنا المكتبة للتأكد من أنه لم يسقط وراء الكتب، وأخضعنا الخدم والأصدقاء لتحقيق لا يُغتفر، ولكننا لم نعثر له على أثر. وكان التفسير الوحيد الممكن ـ أو المقبول؟ ـ هو أن الدفتر قد ذهب إلى

صندوق القمامة في إحدى حملات إتلاف الأوراق التي أقوم بها بكثرة.

لقد فاجأني ردّ فعلي ذاته: فالموضوعات التي كنت قد نسيتها طوال ربع قرن تقريباً، تحولت في نظري إلى قضية شرف. وفي محاولة استعادتها بأي ثمن، في عمل مضنٍ ككتابتها، تمكنت من إعادة بناء ملاحظات ثلاثين موضوعاً منها. ولأن الجهد الذي بذلته في تذكرها كان له مفعول المُطهِّر، فقد رحت أصفي منها، دون رحمة، كل ما بدا لي إنقاذه غير ممكن؛ حتى بقي لدي ثمانية عشر موضوعاً. وكان يحدوني عندئذ تصميمي على مواصلة كتابتها دون توقف، ولكنني ما لبثت أن لاحظت أنني أفقد الاهتمام بها. ومع ذلك، وعلى النقيض مما كنت أنصح به الكتَّاب الجدد دائماً، لم ألق بها إلى القمامة، بل عدت إلى حفظها من جديد. فلعل وعسى.

عندما بدأت كتابة ***قصة موت معلن***، سنة ١٩٧٩، تبين لي أنني أفقد مرونة الكتابة في الاستراحة بين كتابين، وأنني أجد مشقة أكبر فأكبر في البدء من جديد. ولهذا، فرضت على نفسي ما بين تشرين الأول ١٩٨٠ وآذار ١٩٨٤، مهمة كتابة مقالة صحفية أسبوعية، كانت تُنشر في صحف بلدان عديدة، وذلك كنظام انضباطي للحفاظ على سخونة يدي. وعندئذ خطر لي أن خلافي مع ملاحظاتي المدونة في الدفتر ما زال مسألة أجناس أدبية، ورأيت أن تلك الملاحظات يجب ألا تكون في الواقع قصصاً قصيرة، وإنما

مقالات صحفية. ولكنني بعد نشر خمس ملاحظات مأخوذة من الدفتر، بدلت رأيي ثانية: إنها مناسبة أكثر للسينما. وكان أن صُنع منها أيضاً خمسةِ أفلام سينمائية ومسلسل تلفزيوني.

ما لم أدركه مسبقاً هو أن العمل في الصحافة والسينما سيُدخل بعض التغييرات على أفكاري حول القصة القصيرة، حتى إنني اضطررت وأنا أكتبها الآن في شكلها النهائي، إلى الانتباه الدقيق كي أفصل بملقط صغير بين أفكاري والأفكار التي أضافها المخرجون عند كتابة السيناريوهات. ثم إن العمل مع خمسة مخرجين مختلفين أوحى إليَّ بطريقة أخرى لكتابة القصص القصيرة: أبدأ إحداها عندما يكون لدي وقت فراغ، وأهجرها عندما أشعر بالتعب، أو عندما يبرز لي مشروع طارئ، ثم أعود لأبدأ من جديد. وبعد أكثر من سنة بقليل، انتهت ستة موضوعات من الثمانية عشر موضوعاً إلى سلة المهملات، وكان بينها موضوع جنازتي، لأنني لم أستطع مطلقاً أن أحوّل الجنازة إلى حفلة صاخبة كتلك التي رأيتها في الحلم. أما القصص الأخرى، فبدت لي بالمقابل كأنها أخذت نفساً لحياة طويلة.

إنها قصص هذا الكتاب الاثنتا عشرة. وقد كانت في شهر أيلول الماضي جاهزة للنشر، بعد سنتين أخريين من العمل المتواصل. وكان يمكن لها بذلك أن تنهي رحيلها المتواصل، ذهاباً وإياباً، إلى صندوق القمامة، لو لم تنهشني في اللحظة الأخيرة شكوك أخيرة. ذلك أنني وصفت المدن الأوروبية المختلفة التي تدور فيها أحداث

القصص معتمداً على ذاكرتي، وعن بعد. وقد أردت التأكد من أمانة ذكرياتي بعد مرور نحو عشرين سنة، فقمت برحلة سريعة للتعرف مجدداً على برشلونة وجنيف وروما وباريس.

لم تكن لأي واحدة من هذه المدن أية علاقة بذكرياتي عنها. فجميعها، مثل أوروبا الحالية كلها، كانت مخلخلة في انقلاب مذهل: بدت لي ذكرياتي الواقعية أوهاماً من الذاكرة، بينما كانت الذكريات المزيفة مقنعة لدرجة أنها حلت محل الواقع. ولم أستطع بالتالي تمييز الخط الفاصل بين خيبة الأمل والحنين. كان ذلك هو الحل النهائي. فقد وجدت أخيراً ما كان ينقصني لكي أنهي الكتاب، وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يمنحني إياه إلا انقضاء السنوات: إنه منظور الزمن.

وبعد عودتي من تلك الرحلة الموفقة، أعدتُ كتابة جميع القصص من البداية، في ثمانية أشهر محمومة لم يكن عليّ أن أسأل نفسي خلالها أين تنتهي الحياة وأين يبدأ الخيال، لأن الشك بأنه ربما لا يكون هناك شيء صحيح مما عشته قبل عشرين سنة في أوروبا كان يساعدني. وأصبحت الكتابة حينئذ سلسة لدرجة الإحساس أحياناً بأنني أكتب لمجرد المتعة في القص، وهي الحالة الإنسانية الأقرب إلى الطفو في الهواء. ولأنني عملت في جميع القصص دفعة واحدة، وكنت أقفز من واحدة إلى أخرى بحرية مطلقة، فقد توصلت إلى رؤية بانورامية أنقذتني من إرهاق البدايات المتتالية، وساعدتني على اصطياد حشو الفارغ وتناقضات قاتلة.

وأظن أني توصلت بذلك إلى تأليف كتاب القصص القصيرة الأقرب إلى ما رغبت في كتابته دائماً.

وهاهو ذا، جاهز لحمله إلى المنضدة بعد كثير من التجوال طولاً وعرضاً، يناضل لتجاوز انحرافات عدم اليقين. القصص كلها، باستثناء القصتين الأولين، انتهت في الوقت نفسه، وكل واحدة منها تحمل التاريخ الذي بدأتُ فيه كتابتها. والترتيب الذي ترد فيه، في هذه الطبعة، هو الترتيب الذي كانت عليه في دفتر الملاحظات.

لقد كنت أعتقد على الدوام بأن كل نسخة من القصة هي أفضل من سابقتها. فكيف يمكن إذاً معرفة أي نسخة هي الأخيرة؟ إنه سر من أسرار المهنة، لا ينصاع لقوانين العقل وإنما لسحر الغرائز، مثلما تعرف الطاهية متى يكون الحساء في أفضل حال. وعلى أي حال، ومن أجل التخلص من الشكوك، لن أعود إلى قراءتها، مثلما لم أعد قط إلى قراءة أي كتاب من كتبي، خوفاً من أشعر بالندم. من سيقرؤها سيعرف ما الذي سيفعله بها. ولحسن الحظ، فإن انتهاء هذه القصص الاثنتي عشرة المهاجرة إلى أن تُلقى في سلة المهملات، سيكون أشبه براحة العودة إلى البيت.

غابرييل غارسيا ماركيز

كارتاخينا دي إنديياس، نيسان ١٩٩٢

رحلة موفقة سيدي الرئيس

Buen viaje, senor presidente

كان جالساً على مقعد خشبي، تحت الأوراق الصفراء في الحديقة المقفرة، يتأمل البجعات المعفَّرة، ويداه تستندان إلى الكرة الفضية في مقبض عكازه، وهو يفكر في الموت. عندما جاء إلى جنيف أول مرة، كانت البحيرة هادئة وصافية، وكانت هناك نوارس أليفة تدنو لتأكل من الأيدي، ونساء أجرة يشبهن أشباح السادسة مساء بتنانيرهن المصنوعة من الأورغنزة ومظلاتهن الحريرية. أما المرأة الوحيدة الممكنة الآن، على مدى الرؤية، فهي بائعة أزهار تقف على الرصيف المقفر. ولم يكن بإمكانه أن يصدق أن الزمن استطاع أن يُحدث مثل هذا الخراب، ليس في حياته وحسب، وإنما في العالم أيضاً.

لقد كان شخصاً آخر مجهولاً في مدينة المجهولين الشهيرين. يرتدي بدلة زرقاء داكنة تتخللها خطوط بيضاء، وصدرية من الحرير وقبعة قاسية كقبعات القضاة المتقاعدين. وله شارب متشامخ كفرسان العصور القديمة، وشعر كثيف لونه مائل إلى الزرقة، فيه

تجعيدات رومنسية، ويدا عازف قيثارة، في بنصر اليسرى منهما خاتم أرمل، وعينان سعيدتان. الشيء الوحيد الذي كان يشي بحالته الصحية هو إرهاق بشرته. وبالرغم من ذلك، لا يزال يبدو متأنقاً كأمير وهو في الثالثة السبعين من العمر. ولكنه كان يشعر في ذلك الصباح بأنه بمنجى من أي نوع من أنواع الزهو. فقد خلّف وراءه، دون رجعة، سنوات المجد والسلطة، ولم يبق أمامه الآن إلا سنوات الموت.

لقد رجع إلى جنيف بعد حربين عالميتين، باحثاً عن إجابة حاسمة لألم لم يستطع أطباء المارتينيك أن يحددوا كنهه. وكان يتصور أن الأمر لن يتطلب أكثر من خمسة عشر يوماً، ولكن ها هي ذي ستة أسابيع قد مضت في فحوصات مرهقة ونتائج مبهمة، ومازالت النهاية غير واضحة المعالم. كانوا يبحثون عن الداء في الكبد، في الكلية، في البنكرياس، في البروستات، حيث لم يكن. وبقي على تلك الحال حتى يوم الخميس الكريه ذاك، حيث حدد له أقل الأطباء الكثيرين الذين فحصوه شهرة، موعداً في الساعة التاسعة صباحاً، في قسم الأمراض العصبية.

كانت غرفة المكتب تبدو كأنها زنزانة رهبان، وكان الطبيب ضئيلاً وكئيباً، يده اليسرى ملفوفة بالجص بسبب كسر في الإبهام. وعندما أطفأ النور، ظهرت على اللوحة المضاءة صورة شعاعية لعمود فقري لم يعرف أنه عموده الفقري إلى أن أشار الطبيب بمؤشر إلى فقرتين ملتحمتين، تحت الخصر، وقال له:

ـ ألمك هنا.

لم يكن الأمر، في نظره بهذه البساطة. فقد كان ألمه محيراً ومتنقلاً. يبدو أحياناً أنه في الخاصرة اليسرى، وأحياناً في أسفل البطن، ويفاجئه في معظم الأحيان بوخز مباغت في أعلى الفخذ. أصغى الطبيب إليه بحيرة والمؤشر مثبت على اللوحة المضيئة، ثم قال له: «لهذا السبب ضلَّلنا الداء طويلاً، ولكننا نعرف الآن أنه هنا». ثم وضع إصبعه على صدغه وقال مُحدداً:

ـ وإن كانت الدقة العلمية تقول، يا سيدي الرئيس، إن أصل الآلام جميعها هنا.

كان أسلوبه في الفحص السريري دراماتيكياً إلى الحد الذي جعل حُكمه الأخير يبدو حليماً: على الرئيس أن يخضع لعملية جراحية لا تخلو من مخاطرة. ولكن لا مفر منها. فسأله هذا الأخير عن نسبة المخاطرة، فلفه الطبيب العجوز بضوء من عدم اليقين حين قال له:

ـ لا يمكننا تحديد ذلك بدقة.

ثم بين له أنه إلى وقت قريب، كانت مخاطر الحوادث المميتة كبيرة جداً، وأكبر منها مخاطر الإصابة بأنواع مختلفة من الشلل وبدرجات متفاوتة. ولكن مع تطور الطب خلال الحربين أصبحت هذه الأمور من الماضي. وانتهى إلى القول:

ـ اذهب وأنت مطمئن. جهز أمورك، وأخبرنا. ولكن يجب ألا تنسى أنك كلما أسرعت كان أفضل.

لم يكن بالصباح المناسب لهضم ذلك الخبر السيئ، خاصة وهو في الخلاء. كان قد خرج باكراً من الفندق، دون معطف، لأنه رأى شمساً ساطعة من النافذة، ومضى بخطواته المحسوبة من **شمان دو بوسوليه**، حيث المستشفى، إلى ملجأ العشاق الاضطراريين في الحديقة الإنكليزية. وكان قد مضى عليه هناك أكثر من ساعة، وهو لا يفكر إلا في الموت، عندما بدأ الخريف. فقد تموجت مياه البحيرة مثل محيط هائج، وأفزعت ريحٌ مشاغبة طيور النورس، وأطاحت بآخر أوراق الشجر. نهض الرئيس، وقطف زهرة أقحوان من أحواض الحديقة العامة بدلاً من أن يشتريها من بائعة الأزهار، وثبتها في عروة سترته. ففاجأته البائعة قائلة:

ـ هذه الأزهار ليست ملكاً للرب أيها السيد. إنها ملك البلدية.

لم يلتفت إليها. وابتعد بخطوات خفيفة ممسكاً العكاز من منتصفه، وكان يُدوره أحياناً بظرافة شديدة الاستهتار. وعلى جسر مونت بلان، كانوا ينزعون على عجل أعلام الاتحاد التي تخفق بجنون مع الريح، وكانت النافورة الضعيفة المكللة بالزبد قد انطفأت قبل موعدها.

لم يتعرف الرئيس على مقهاه المعتاد على الرصيف، لأنهم انتزعوا قماش المظلة الخضراء، وكانت مقاهي الرصيف التي تزدهر في الصيف قد أُغلقت لتوها. أما في الصالة الداخلية، فكانت المصابيح مضاءة في عز النهار، وكان الرباعي الوتري يعزف أحد ألحان موزرت الأخيرة. تناول الرئيس عن الكونتوار جريدة من

الرزمة المخصصة للزبائن، ثم علق قبعته وعكازه على المشجب، ووضع نظارته ذات الإطار الذهبي ليقرأ على أبعد منضدة في المقهى، وحينئذ فقد أدرك أن الخريف قد أتى. بدأ بقراءة صفحة الأخبار الدولية، حيث ترد بكثرة في بعض الأحيان أخبار عن البلدان الأمريكية، وواصل القراءة من نهاية الجريدة حتى بدايتها، إلى أن جاءته النادلة بزجاجته اليومية من مياه إيفيان. فمنذ أكثر من ثلاثين سنة، تخلى عن عادة شرب القهوة استجابة لما فرضه عليه أطباؤه. ولكنه كان قد قال لهم حينئذ: «إذا أيقنت يوماً أنني أصبحت قريباً من الموت، فسوف أعود إلى تناولها». وربما حانت الساعة. فقد طلب بلغة فرنسية سليمة:

ـ أحضري لي فنجان قهوة أيضاً.

ثم قال محدداً دون أن يعبأ بالمعنى المزدوج لكلامه:

ـ وليكن على الطريقة الإيطالية، قادراً على جعل ميت ينهض على قدميه.

تناول القهوة دون سكر، وبرشفات بطيئة، ثم وضع الفنجان مقلوباً في الصحن كي يتيح الوقت لبقايا القهوة أن تكتب مستقبله بعد هذه السنوات الطويلة من امتناعه عنها. وقد خلصه الطعم المستعاد من أفكاره السيئة لبرهة. لكنه بعد برهة أخرى، كما لو أن الأمر جزء من الرقية نفسها، أحس بأن هناك من ينظر إليه. عندئذ قلب الصفحة بحركة عفوية، وتطلع من فوق نظارته، ورأى الرجل

الشاحب ذا الذقن غير الحليقة، والقبعة الرياضية والسترة المصنوعة من جلد خروف مقلوب، وهو يرفع بصره عنه في الحال كي لا تلتقي نظراتهما.

كان الوجه مألوفاً لديه. فقد تصادف مرورهما معاً عدة مرات في بهو المستشفى، كما أنه رآه في أحد تلك الأيام في درب **برومينا دو لاك** أثناء تأمله البجعات، ولكنه لم يشعر قط بأن هناك من قد يتعرف عليه. ولم يستبعد مع ذلك احتمال أن يكون الأمر مجرد وهم آخر من أوهام المنفى الكثيرة التي تطارده.

أنهى قراءة الجريدة، دون تعجل، وهو طافٍ في ألحان براهمز الفخمة، وبقي كذلك إلى أن أصبح الألم أشد قوة من مُسكِّن الموسيقى. عندئذ نظر إلى الساعة الذهبية التي يعلقها بسلسلة في جيب صداره، ثم تناول مع الجرعة المتبقية من ماء إيفيان قرصي المُسكِّن اللذين يتناولهما ظهراً. وقبل أن يخلع نظارته قرأ مستقبله في بقايا القهوة، وأحس برعشة جليدية: لقد رأى عدم اليقين نفسه. وأخيراً دفع ثمن القهوة مع إكرامية محترمة، ثم تناول عكازه وقبعته عن المشجب، وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذي كان ينظر إليه. مضى بمشيته الظريفة بمحاذاة أحواض الأزهار التي عاثت بها الريح خراباً، واعتقد أنه أصبح بمنجى من الرقية المشؤومة. لكنه أحس فجأة بخطوات وراء خطواته، فتوقف عند المنعطف، ودار على عقبيه. وكان على الرجل الذي يتبعه أن

يتوقف فجأة كي لا يصطدم به، ونظر إليه فزعاً، على مسافة شبرين عن عينيه، وتلعثم:

ـ السيد الرئيس!

ـ قل لمن يدفعون لك أجرك ألا ينسجوا الأوهام ـ قال الرئيس دون أن يفقد ابتسامته أو سحر صوته، وأضاف: فصحتي على خير ما يرام.

فقال الرجل الرازح تحت وطأة الوقار التي سقطت عليه:

ـ لا أحد يعرف ذلك خيراً مني. إنني أعمل في المستشفى.

طريقة نطقه وإيقاع كلماته، بل وخجله كذلك، تشير كلها إلى أنه كاريبي خالص.

ـ لا تقل لي إنك طبيب ـ قال له الرئيس.

ـ ليتني كنت كذلك، يا سيدي ـ قال الرجل ـ. إنني سائق سيارة إسعاف.

ـ آسف ـ قال الرئيس مقتنعاً بخطئه ـ إنه عمل شاق.

ـ ليس بمثل مشقة عملك يا سيدي.

نظر إليه دون تحفظ. واستند إلى العكاز بكلتا يديه، وسأله باهتمام حقيقي:

ـ من أين أنت؟

ـ من الكاريبي.

ـ لقد لاحظتُ ذلك ـ قال الرئيس ـ ولكن من أي بلد في الكاريبي؟

ـ من بلدك بالذات يا سيدي ـ قال الرجل، ثم مدّ يده للمصافحة: اسمي هوميرو ريّ.

فقاطعه الرئيس متفاجئاً ليقول دون أن يفلت يده:

ـ الله! يا له من اسم جميل!

فاسترخى هوميرو وقال:

ـ والبقية أكثر: هوميرو ريّ دي لاكاسا.

باغتتهما طعنة شتائية وهما أعزلان في منتصف الطريق. فارتعش الرئيس حتى العظام، وأدرك أنه لن يستطيع أن يمشي، دون معطفه، مسافة الكوادرات الأربع التي تفصله عن المطعم البائس الذي اعتاد تناول الغداء فيه. فسأل هوميرو:

ـ هل تغديت؟

ـ أنا لا أتناول الغداء أبداً ـ قال هوميرو ـ إنني آكل وجبة واحدة في بيتي ليلاً.

ـ اجعل هذا اليوم استثناء ـ قال له مظهراً كل ما لديه من افتتان ـ إنني أدعوك للغداء.

أمسكه من ذراعه وقاده إلى المطعم المقابل ذي الاسم المذهب فوق المظلة التي على واجهته: **لي بوف كورنيه**. كان المكان ضيقاً

وحاراً في الداخل، ولم يكن هناك كما يبدو مكان شاغر. تقدم هوميرو ريّ الذي فوجئ بأن أحداً لم يتعرف على الرئيس، واتجه إلى عمق الصالة ليطلب مساعدة.

ـ أهو رئيس يمارس مهامه؟ ـ سأله صاحب المحل.

فقال هوميرو:

ـ لا، مطاح به.

ـ لدي دائماً منضدة خاصة لأمثال هؤلاء.

قادهما إلى مكان منعزل في عمق الصالة، حيث يمكن لهما أن يتبادلا الحديث كما يحلو لهما. شكره الرئيس قائلاً:

ـ ليس الجميع يعترفون مثلك بوقار المنفى.

كان طبق المحل الخاص هو أضلاع ثور مشوية على الفحم. وقد أجال الرئيس وضيفه النظر في ما حولهما، ورأيا على المناضد الأخرى قطع اللحم الكبيرة المشوية بحوافها ذات الدهن اللين، فهمس الرئيس: «إنه لحم رائع. لكنه مُحرَّم عليّ». ثم صوب نظرة خبثٍ إلى هوميرو، وبدّل نبرة صوته:

ـ الحقيقة إنني ممنوع من كل شيء.

ـ أنت ممنوع من تناول القهوة أيضاً ـ قال هوميرو ـ ولكنك تتناولها مع ذلك.

فقال الرئيس:

ـ هل لاحظت ذلك؟ لكن تناولها اليوم كان استثناء في يوم استثنائي.

ولم يقتصر الاستثناء، في ذلك اليوم على القهوة وحدها. فقد طلب كذلك أضلاع ثور مشوية على الفحم، وسلطة خضار طازجة دون أي تتبيل آخر سوى قليل من زيت الزيتون. وطلب ضيفه الشيء نفسه، إضافة إلى نصف زجاجة من النبيذ الأحمر.

وبينما هما ينتظران اللحم، أخرج هوميرو من جيب سترته محفظة نقود لا نقود فيها، ومترعة بأوراق كثيرة، وعرض على الرئيس صورة باهتة المعالم. وتعرف الرئيس على نفسه بقميص ذي أكمام قصيرة، ووزن أقل مما هو عليه بعدة ليبرات، وشعر وشارب أسودين قاتمين، وسط جلبة شبان يتطاولون لكي يظهروا في الصورة. وبنظرة واحدة تعرف على المكان، وتعرف على شعارات حملة انتخابية بغيضة، وتعرف على تاريخ التقاطها غير المرغوب فيه، فدمدم: «يا للهول! لقد قلت دائماً إن الإنسان يشيخ في الصور أكثر مما يشيخ في الحياة الواقعية». ثم أعاد الصورة بإيماءة تشير إلى انتهاء الأمر، وقال:

ـ أذكر ذلك جيداً. لقد حدث منذ آلاف السنين في حلبة صراع الديكة في سان كريستوبال دي لاس كاساس.

ـ إنها قريتي. ـ قال هوميرو، ثم أشار إلى صورته بين الجماعة وهذا أنا.

تعرف الرئيس عليه:

ـ كنت لا تزال طفلاً في ذلك الحين!

ـ تقريباً ـ قال هوميرو، وتابع ـ: لقد رافقت سيادتك في حملتك الانتخابية في المنطقة الجنوبية، كقائد للألوية الجامعية.

فبادر الرئيس إلى تأنيب نفسه:

ـ وأنا لم أكن أعيرك نظرة واحدة بالطبع.

فقال هوميرو:

ـ بالعكس. لقد كنتَ لطيفاً جداً معنا. ولكننا كنا كثيرين بحيث يصعب عليك أن تتذكرنا جميعاً.

ـ وبعد ذلك؟

ـ ومن يستطيع أن يعرف ما حدث بعد ذلك أفضل من حضرتك؟ ـ قال هوميرو ـ بعد ذلك وقع الانقلاب العسكري، والمعجزة هي أننا نحن الاثنين ما زلنا سالمين هنا، ومستعدين لأكل نصف ثور. لم يحظ كثيرون بمثل هذا الحظ.

في هذه اللحظة جاؤوهما بالأطباق. وضع الرئيس الفوطة حول عنقه مثل مريلة طفل، ولم يشعر بالحرج أمام مفاجأة ضيفه الصامتة. بل قال: «إذا لم أفعل هذا فسوف أفقد ربطة عنق في كل وجبة». وقبل أن يبدأ الأكل، اختبر نضج اللحم، وأبدى موافقته بحركة تواطؤ، ثم عاد إلى الموضوع قائلاً:

ـ ما لا أستطيع تفسيره هو لماذا لم تقترب مني قبل اليوم بدلاً من ملاحقتي مثل تحرٍ.

عندئذ أخبره هوميرو بأنه تعرف عليه مذ رآه يدخل المستشفى من باب مخصص للحالات الخاصة جداً. كان ذلك في عز الصيف، وكان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض كالتي يرتديها أهل جزر الأنتيل، وحذاء يجمع بتناسق بين اللونين الأبيض والأسود، والأقحوانة في عروة سترته، ولبدة الشعر البديع الذي شعثته الريح. وتحقق هوميرو من أنه وحده في جنيف، دون مساعدة من أحد، فهو يعرف عن ظهر قلب المدينة التي درس فيها القانون. وقد اتخذت إدارة المستشفى، بناء على طلبه، القرارات الداخلية بضمان السرية المطلقة. وفي تلك الليلة بالذات، اتفق هوميرو مع زوجته على الاتصال به. وقد لاحقه خلال خمسة أسابيع متحيناً الفرصة المناسبة، وربما ما كان ليتجرأ على تحيته لو لم يواجهه هو نفسه.

ـ إنني سعيد لأني فعلت ذلك ـ قال الرئيس ـ وإن كنت لا أتضايق أبداً في الحقيقة من كوني وحيداً.

ـ هذا ليس عدلاً.

ـ لماذا؟ ـ سأله الرئيس بصدق ـ إن أكبر انتصارات حياتي هي توصلي إلى جعل الجميع ينسونني.

فقال هوميرو دون أن يداري انفعاله:

ـ إننا نتذكر سيادتك أكثر مما تظن. وإنه يسعدني أن أراك هكذا، معافى وشاباً.

ـ ومع ذلك ـ قال هو دون دراماتيكية ـ كل شيء يشير إلى أنني سأموت قريباً جداً.

ـ احتمالات خروجك أحسن حالاً كبيرة جداً ـ قال هوميرو.

قفز الرئيس من مكانه من المفاجأة، ولكنه لم يفقد ظرافته، وهتف:

ـ يا للعنة! هل جرى خرق الأسرار الطبية في سويسرا الجميلة؟

ـ لا وجود، في أي مستشفى في العالم، لأسرار تخفى على سائق سيارة إسعاف ـ قال هوميرو.

ـ أما ما أعرفه أنا فهو ما عرفته منذ أقل من ساعتين، ومن فم الشخص الوحيد الذي يجب أن يعرفه.

ـ لن يكون موتك على أي حال أمراً عادياً ـ قال هوميرو ـ لسوف يضعك أحدهم في المكان الذي يليق بك كنموذج عظيم للكرامة.

تصنع الرئيس دهشة كوميدية:

ـ أشكر لك هذا التنويه.

كان يأكل بالطريقة التي يفعل بها كل شيء: ببطء وبعناية فائقة. وفي أثناء ذلك، كان يتطلع إلى عيني هوميرو مباشرة، حتى إن هذا

الأخير أحس بأنه يرى ما يفكر فيه. وبعد محادثة مطولة وشجون مترعة بالحنين، ابتسم ابتسامة خبيثة وقال:

ـ كنت قد قررت الاهتمام بما سيؤول إليه جثماني، أما الآن فإنني أرى أنه لا بد لي من اتخاذ بعض الاحتياطات على طريقة الروايات البوليسية حتى لا يعثر على جثتي أحد.

ـ سيكون جهدك دون طائل ـ قال هوميرو مازحاً ـ. ففي المستشفى لا وجود لأسرار تدوم أكثر من ساعة واحدة.

عندما انتهيا من تناول القهوة، قرأ الرئيس قعر فنجانه، وارتعش مرة أخرى: كانت الرسالة هي نفسها. ومع ذلك، فإن ملامح وجهه لم تتبدل. دفع الحساب نقداً، لكنه تحقق من المبلغ عدة مرات قبل ذلك، وعدّ النقود عدة مرات بحذر مفرط، ثم ترك بقشيشاً لم يستحق عليه سوى همهمة من النادل.

ـ لقد استمتعت بهذا اللقاء ـ قال وهو يودع هوميرو ـ. ليس لدي موعد محدد للعملية الجراحية بعد، بل إنني لا أعرف إن كنتُ سأجريها أم لا. ولكن، إذا ما جرى كل شيء على ما يرام فإننا سنلتقي ثانية.

ـ ولماذا لا نلتقي قبل ذلك؟ ـ قال هوميرو ـ زوجتي، لازارا، طاهية أثرياء. وليس هناك من يطبخ الأرز مع القريدس خيراً منها، وسنكون سعداء باستضافتك في بيتنا في إحدى هذه الليالي.

ـ إنني ممنوع من أكل الحيوانات البحرية، ولكنني سآكلها بشهية كبيرة معكم. قل لي متى.

ـ الخميس هو يوم عطلتي ـ قال هوميرو.

ـ جيد ـ قال الرئيس ـ. الخميس الساعة السابعة ليلاً سأكون في بيتك. وسيكون ذلك ممتعاً بالنسبة إلي.

ـ سآتي لمرافقتك ـ قال هوميرو ـ. عنوانك هو: فندق داميس ١٤ شارع أندوستري. وراء المحطة. أليس صحيحاً؟

ـ صحيح ـ قال الرئيس ذلك، وقفز بسعادة أعظم من كل ما سبق ـ: أرى أنك تعرف حتى مقاس الحذاء الذي أنتعله.

فقال هوميرو باستمتاع:

ـ طبعاً يا سيدي. واحد وأربعون.

ما لم يقله هوميرو ريّ للرئيس، ولكنه ظل يرويه طوال سنوات لكل من أراد أن يسمعه، هو أن هدفه في البدء لم يكن بريئاً. فمثل سواه من سائقي سيارات الإسعاف، كانت له ترتيبات خاصة مع مؤسسات دفن الموتى وشركات تأمين يبيع لها معلومات يحصل عليها من المستشفى بالذات، وخاصة حين يتعلق الأمر بمرضى أجانب ذوي موارد ضئيلة. وكانت أرباحه من هذه الخدمات زهيدة جداً، فضلاً عن أنه كان يتقاسمها مع موظفين آخرين يتناقلون من يد ليد التقارير السرية عن حالة المرضى المهمين. ولكن تلك المبالغ كانت عزاء طيباً لرجل منفي دون مستقبل يبذل جهداً للقيام بأود زوجته وابنيه براتب يدعو إلى السخرية.

أما زوجته، لازارا دافيس، فكانت أكثر واقعية. إنها خلاسية مرهفة من سان خوان دي بويرتوريكو، ضئيلة ومتينة، لها بشرة بلون الكراميلا الهادئ، وعينا كلبة باسلة تتطابقان تماماً مع أسلوبها في الحياة. كانا قد تعارفا في قسم الخدمات المخبرية في المستشفى، حيث كانت تعمل كمساعدة في كل شيء بعد أن أحضرها متمول من بلدها للعمل مربية أطفال، وتركها وحيدة في مهب الريح في جنيف. وقد تزوجا حسب الطقوس الكاثوليكية، مع أنها كانت أميرة من أميرات اليوروبا، وهما يعيشان في بيت مؤلف من صالة وغرفتي نوم في الطابق الثامن من بناية بلا مصعد يسكنها مهاجرون أفارقة. ولهما طفلة في التاسعة اسمها باربارا، وطفل في السابعة اسمه لازارو، لديه أعراض تخلف ذهني خفيف.

كانت لازارا دافيس امرأة ذكية وسيئة الطباع، لكنها طيبة القلب. تعتبر نفسها نموذجاً نقياً لبرج الثور، وتؤمن إيماناً أعمى بتنبؤاتها الفلكية. لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحقق حلمها بكسب عيشها كمنجمة لذوي الملايين. إلا أنها كانت تساهم بالمقابل في نفقات البيت بإيرادات عرضية، وكبيرة أحياناً، بإعدادها وجبات عشاء لسيدات ثريات يردن جلب أنظار ضيوفهن بإقناعهن أنهن طهوهن بأنفسهن تلك الأطباق الأنتيلية المثيرة. أما هوميرو فكان خجولاً بوقار، ولا ينفع لأكثر من الشيء القليل الذي يقوم به، لكن لازارا لا تستطيع تصور الحياة من دونه بسبب طيبة قلبه وعيار سلاحه. وقد كانت أمورهما تمضي على ما يرام في ما مضى، لكن

السنوات أخذت تصبح اشد وطأة، وكان الطفلان يكبران. وفي ذلك الوقت الذي جاء فيه الرئيس، كانا قد بدأا بنقر ما وفراه خلال خمس سنوات. وهكذا، فإن أحلامهما ذهبت بعيداً عندما اكتشف هوميرو ريّ وجود الرئيس بين المرضى السريين.

كانا يعرفان ما الذي يمكنهما أن يطلباه منه بالضبط، ولا يعرفان بأي حق يمكنهما عمل ذلك. خطر لهما للوهلة الأولى أن يتعهدا مأتمه بالكامل، بما في ذلك تحنيط جثمانه وإعادته إلى الوطن. ولكنهما أخذا يدركان شيئاً فشيئاً أن موته لا يبدو وشيكاً كما اعتقدا في البداية. وفي يوم الغداء ذاك، كانا في أقصى حالات الذهول والبلبلة بسبب الشكوك.

الحقيقة أن هوميرو لم يكن قائداً للألوية الجامعية ولا أي شيء آخر من هذا القبيل. والمرة الوحيدة التي ساهم فيها بالحملة الانتخابية كانت عند التقاط تلك الصورة التي تمكن من العثور عليها بمعجزة في خزانة الملابس، بعد أن كانت بحكم المفقودة. ولكن حماسته كانت حقيقية. وصحيح كذلك أنه اضطر إلى الهرب من البلاد بسبب مشاركته في المقاومة التي دارت في الشوارع ضد الانقلاب العسكري، على الرغم من أن السبب الوحيد في بقائه حياً في جنيف بعد كل تلك السنوات، هو فقره الروحي. وهكذا فإن كذبة ناقصة أو كذبة زائدة يجب ألا تكون عائقاً يحول دون كسبه إحسان الرئيس.

المفاجأة الأولى بالنسبة إليهما كانت في أن المنفي السامي

يعيش في فندق من الدرجة الرابعة في الحي البائس بجنيف، بين مهاجرين آسيويين وبنات ليل، وأنه لا يأكل إلا في مطاعم صغيرة يؤمها الناس الفقراء، في الوقت الذي كانت فيه جنيف تغص بأماكن الإقامة اللائقة بالسياسيين المنكوبين. كان هوميرو قد رآه وهو يكرر يوماً بعد يوم الأعمال نفسها التي قام بها في ذلك اليوم. وكان قد لاحقه بنظره، وأحياناً من مسافة أقل مما يقتضيه الحذر، أثناء نزهاته الليلية بين الجدران القاتمة وأزهار الجريس الصفراء المتدلية في المدينة القديمة. ورآه يجلس غارقاً في التفكير لساعات قبالة تمثال كلفينو. وصعد وراءه، خطوة خطوة، السلالم الحجرية، وهو يكاد يختنق بأريج الياسمين المتقد، لكي يتأمل لحظات الغروب الصيفية البطيئة من قمة بورغ لوفور. وفي إحدى الليالي رآه يقف تحت رذاذ المطر الأول، دون معطف أو مظلة، وينتظر دوره مع صف طويل من الطلاب للدخول إلى حفلة كونشيرتو لروبنشين. «لست أدري كيف لم يُصب بنزلة رئوية»، هذا ما قاله لزوجته يومئذ. ويوم السبت السابق، حين بدأ الطقس يتبدل، رآه يشتري معطفاً خريفياً ذا ياقة من جلد نمس مسكي مزيف، ولكنه لم يشتره من المحلات المضيئة في شارع دي رونيه، حيث يشتري ملابسهم الأمراء الهاربون من ممالكهم، وإنما من سوق البرغوث.

وقد صرخت لازارا عندما حدثها هوميرو بذلك:

ـ لا نستطيع عمل شيء إذاً! إنه بخيل من النوع الخرائي،

ويمكنه أن يجعل جمعية خيرية تتولى مسؤولية دفنه في قبر جماعي. لن نحصل منه على شيء أبداً.

فقال هوميرو:

ـ ربما كان فقيراً حقاً بعد هذه السنوات الطويلة دون عمل.

ـ آهٍ منك أيها الزنجي، أن يكون المرء من برج الحوت وسليل من هم من برج الحوت شيء، وأن يكون بخيلاً هو شيء آخر ـ قالت لازارا ـ. الجميع يعرفون أنه استولى على كل ما لدى الحكومة من الذهب، وأنه الأوسع ثراء بين منفيي المارتينيك.

هوميرو الذي يكبرها بعشر سنوات، ترعرع متأثراً بالأخبار التي تقول إن الرئيس كان يعمل في البناء أثناء دراسته في جنيف كي يغطي نفقات دراسته. أما لازارا بالمقابل، فقد ترعرعت وسط الفضائح الصحفية المعادية للرئيس، والتي كان يجري تضخيمها في بيت معادٍ له، حيث كانت تعمل مربية أطفال مذ كانت طفلة. وهكذا، حين عاد هوميرو إلى البيت في تلك الليلة، وهو يكاد يختنق من السعادة، لم يُجدِ معها نفعاً دليله القاطع بأنه دعاه إلى مطعم غالٍ. وشعرت بالضيق لأن هوميرو لم يطلب منه أي شيء من الأشياء الكثيرة التي حلما بها، ابتداء من منحة دراسية لطفليهما، حتى مساعدته في الحصول على وظيفة أفضل في المستشفى. وبدا لها ذلك تأكيداً لشكوكها بأنه قرر جعلهم يرمون جثته للنسور بدلاً من أن ينفق فرنكاته في مأتم وقور، وإعادة

جثمانه إلى الوطن. لكن ما جعل الكأس يطفح بها هو الخبر الذي أخفاه عنها هوميرو حتى النهاية، خبر دعوته الرئيس لتناول الأرز مع القريدس يوم الخميس ليلاً.

ـ لم يكن ينقصنا إلا هذا ـ صرخت لازارا ـ أن يأتي ويموت هنا متسمماً بالقريدس المعلب، ويكون علينا أن نتولى أمر دفنه مما وفرناه للطفلين.

لكن ما حدد سلوكها في نهاية المطاف هو وفاؤها الزوجي. فكان عليها أن تستعير من إحدى جاراتها ثلاثة أطقم من أدوات المائدة مصنوعة من فضة مقلدة، وجفنة من الكريستال للسلطة؛ وآلة كهربائية لصنع القهوة من جارة أخرى، ومفرش مطرز للمائدة مع طقم فناجين قهوة من ثالثة. واستبدلت الستائر القديمة بالستائر الجديدة التي لا تستخدمها إلا في أيام الأعياد، ونزعت القماش الذي تغلف به الأثاث. وأمضت يوماً كاملاً في شطف الأرض، ونفض الغبار، واستبدال أماكن بعض الأشياء، إلى أن توصلت إلى عكس ما كان يناسبها، لأن ما يناسبها هو استثارة عواطف الضيف بمظاهر بؤس.

يوم الخميس ليلاً، وبعد أن استراح من الضيق الذي سببه له صعود الطوابق الثمانية، ظهر الرئيس في الباب بمعطفه الجديد القديم، وقبعته الكروية التي كانت شائعة في زمن آخر. وفي يده وردة واحدة قدمها إلى لازارا. تأثرت هي بجماله الرجولي وأساليبه

الأميرية. وأما في ما عدا ذلك، فقد رأته مثلما كانت تنتظر أن تراه: زائفاً وسلاباً. بدا لها سفيهاً، لأنها كانت قد فتحت جميع النوافذ وهي تُعدّ الطعام، لتحول دون تسرب رائحة القريدس إلى البيت؛ فكان أول ما فعله، وهو يدخل، أن أخذ نفساً عميقاً، كأنه في غيبوبة مفاجئة، ثم هتف وهو يغمض عينيه ويفتح ذراعيه: «آه! رائحة بحرنا!». وبدا لها أشد بخلاً مما تصورت، لأنه حمل لها وردة واحدة، مسروقة دون شك من الحدائق العامة. وبدا لها متغطرساً، لنظرة الأنفة التي وجهها إلى قصاصات صحف تتحدث عن أمجاده الرئاسية، ورايات وبيارق من حملته الانتخابية كان هوميرو قد علقها بسذاجة كبيرة على جدار الصالة. وبدا لها قاسي القلب، لأنه لم يُسلم على الصغيرين باربارا ولازارو اللذين صنعا له بنفسيهما هدية خاصة، وقد أشار أثناء العشاء إلى شيئين لا يطيقهما: الكلاب والأطفال. فأحست بالكراهية نحوه. ومع ذلك، فإن حسها الكاريبي بوجوب إكرام الضيف فرض نفسه على مشاعرها. كانت قد ارتدت الثوب الأفريقي الذي تحتفظ به للياليها الاحتفالية، وقلادتها وأساورها الطقوسية، ولم تأت في أثناء العشاء كله بأي حركة، ولم تقل أي كلمة زائدة عن اللزوم. كانت أكثر من أن لا تُلام: كانت كاملة.

الحقيقة أن الأرز مع القريدس لم يكن من أصناف مطبخها المختارة، ولكنها أعدته بكل ما لديها من رغبة، وخرج من بين يديها جيداً جداً. وقد سكب الرئيس لنفسه مرتين منه دون أن

يتوقف عن كيل المديح. وفتنته شرائح الموز الناضج المقلية، وسلطة الأفوكاتو، بالرغم من أنه لم يشاطرهما الحنين إلى الوطن. واكتفت لازارا بالاستماع إلى أن حان موعد تقديم الحلوى، عندما حشر هوميرو نفسه، دون أن يشعر، في زقاق مسدود، بحديثه عن وجود الرب.

فقال الرئيس:

ـ أنا مؤمن بوجوده، ولكن دون أن تكون له علاقة بالبشر. إنه مشغول بأمور أكبر بكثير.

ـ أنا أؤمن بالنجوم فقط ـ قالت لازارا ذلك، وراقبت ردّ فعل الرئيس، ثم أضافت ـ: في أي يوم ولدت سيادتك؟

ـ الحادي عشر من آذار.

ـ لا بد أن تكون كذلك ـ قالت لازارا بنبرة انتصار مفاجئة، ثم تساءلت بلهجة رقيقة ـ: أليس كثيراً أن يكون هناك اثنان من برج الحوت على المائدة نفسها؟

واصل الرجلان حديثهما عن الرب، بينما ذهبت هي لإعداد القهوة. كانت قد رفعت عن المائدة أوعية وأدوات الطعام، وتمنت من أعماق روحها أن تمضي الليلة على خير. وبينما هي عائدة إلى الصالة بالقهوة، واجهتها جملة أطلقها الرئيس، سببت لها الذهول:

ـ لا تشك في ذلك يا صديقي العزيز: إن أسوأ ما جرى لوطننا المسكين هو أنني كنتُ رئيسه.

رأى هوميرو زوجته لازارا وهي في الباب، تحمل الفناجين الصينية وماكينة صنع القهوة المستعارة، وظن أنه سيغمى عليها. وحدق بها الرئيس أيضاً وقال لها بنبرة ودودة: «لا تنظري إليّ هكذا يا سيدتي. إنني أتكلم بقلبي». ثم التفت بعد ذلك إلى هوميرو، وأكمل قائلاً:

ـ ولحسن الحظ أنني أدفع الآن ثمن حماقتي.

قدمت لازارا القهوة، وأطفأت المصباح الأوسط المدلى فوق المنضدة، لأن ضوءه الشديد كان يعرقل الحديث، فعمت الصالة ظلمة خفيفة حميمة. وأحست أول مرة بالاهتمام بالضيف الذي لم يكن ظُرفه كافياً لمواراة أساه. وقد تضاعف فضول لازارا عندما انتهى هو من تناول القهوة وقلب الفنجان في طبقه كي تترسب بقاياه.

حدثهم الرئيس وهم حول المنضدة عن أنه اختار منفاه في جزيرة المارتينيك للصداقة التي تربطه بالشاعر إيميه سيزيه، الذي كان قد أصدر في ذلك الحين كتابه *Cahier d'un retour au pays natal*[١]، وقد قدم له مساعدة لبدء حياة جديدة. واشتروا بما تبقى من إرث زوجته بيتاً مبنياً من أخشاب فخمة في هضاب فورت دي فرانس، على نوافذه شباك معدنية، وله شرفة مطلة على البحر تغص بأزهار بدائية، حيث من الممتع النوم على صرير الجداجد

---

(١) بالفرنسية في الأصل: «كراس للعودة إلى مسقط الرأس».

والنسيم المحمل برائحة الدبس والروم المنبعثة من معاصر قصب السكر. وأقام هناك مع زوجته التي تكبره بأربعة عشر عاماً، والمريضة منذ أن وضعت مولودها الوحيد. وقد حصّن نفسه ضد القدر بإدمان قراءة الكلاسيكيين اللاتينيين، باللاتينية، موقناً أن ذلك هو آخر عمل له في حياته. وكان عليه أن يقاوم، طوال سنوات، إغراء الإقدام على مغامرات من كل نوع كان يقترحها عليه أنصاره المهزومون. وقال:

- لكنني لم أعد قط إلى فتح أية رسالة. مطلقاً. منذ اكتشفت أن أكثرها استعجالاً تصبح الأقل استعجالاً بعد أسبوع، ثم لا يتذكرها كاتبها نفسه بعد مرور شهرين.

نظر إلى لازارا في الضوء الخافت، وهي تشعل سيجارة، ثم اختطفها من بين أصابعها بحركة شرهة. أخذ منها نفساً عميقاً، وحبس الدخان في حلقه. تناولت لازارا التي فوجئت علبتي السجائر والثقاب، لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد إليها السيجارة المشتعلة قائلاً: «إنك تدخنين بلذة كبيرة جعلتني عاجزاً عن مقاومة الإغراء». لكنه اضطر إلى إطلاق الدخان من فمه لأنه أحس ببداية نوبة سعال. وقال:

- لقد تخليت عن عادة التدخين منذ سنوات طويلة، لكن عادة التدخين لم تتخلَّ عني نهائياً. وقد استطاعت أن تتغلب عليّ في بعض الأحيان، مثلما جرى الآن.

جعله السعال يهتز مرتين أخريين. وعاد إليه الألم. نظر الرئيس إلى الوقت في ساعة جيبه، ثم تناول قرصي الدواء المسائيين. وبعد ذلك أمعن النظر في قعر فنجان قهوته: لم يتغير أي شيء. ولكنه لم يرتعش هذه المرة.

ـ بعض أنصاري القدماء صاروا رؤساء بعدي.

قال هوميرو:

ـ ساياغو.

وقال هو:

ـ ساياغو وآخرون. جميعهم مثلي: ننتحل شرفاً لا نستحقه، في وظيفة لا نحسن القيام بها. البعض جرياً وراء السلطة فقط، أما الأكثرية فبحثاً عما هو أدنى من ذلك: الوظيفة.

اقشعر بدن لازارا غيظاً، وسألته:

ـ هل تعرف حضرتك ما يقال عنك؟

ـ إنها أكاذيب ـ تدخل هوميرو مذعوراً.

فقال الرئيس بهدوء سماوي:

ـ إنها أكاذيب وليست أكاذيب. ففيما يتعلق بالرؤساء، يمكن لأسوأ المخازي أن تكون الأمرين في الوقت نفسه: حقيقة وافتراء.

كان قد عاش في المارتينيك كل أيام منفاه، دون أي اتصال بالعالم الخارجي إلا من خلال الأخبار القليلة في الجريدة الرسمية.

وكان يغطي نفقات معيشته بدروس في اللغتين الإسبانية واللاتينية، يلقيها في مدرسة رسمية، وبالترجمات التي كان يكلفه بها أحياناً إيميه سيزيه. كان الحر في شهر آب لا يطاق، فكان يبقى مستلقياً في أرجوحة النوم حتى الظهيرة، وهو يقرأ على هديل مروحة السقف في غرفة النوم. وكانت زوجته تشغل نفسها بالعصافير التي تربيها طليقة حتى في أشد ساعات القيظ، حيث كانت تحتمي من الشمس بقبعة عريضة الحواف ومزينة بثمار اصطناعية صغيرة وأزهار من القماش. أما حين تنخفض الحرارة، فكانا يستمتعان بالبرودة على الشرفة، حيث يسلط نظره على البحر، ويبقى كذلك إلى أن يغرق في الظلام، بينما تجلس هي على كرسيها الخيزراني الهزاز، بقبعتها المثقوبة وخواتمها المزيفة في كل أصابعها، تنظر إلى سفن العالم وهي تمر أمامها وتقول: «هذه السفينة ذاهبة إلى بويرتو سانتو». «وتلك الأخرى تكاد لا تستطيع التقدم بثقل حمولتها من موز بويرتو سانتو». إذ لم يكن ممكناً، في نظرها، أن تمر سفينة ليست من بلادها. وكان هو يتظاهر بالصمم، مع أنها توصلت في نهاية المطاف إلى النسيان خيراً منه، لأنها فقدت الذاكرة. وكانا يبقيان على تلك الحال إلى أن يتلاشى الغسق الصاخب، ويصبح عليهما عندئذ أن يلوذا بالبيت مهزومين أمام البعوض. وفي أحد شهور آب الطويلة تلك، وبينما هو يقرأ الصحيفة على الشرفة، قفز في مكانه من الدهشة.

ـ يا للعنة! ـ قال ـ لقد مِتُّ في أستوريل!

فزعت زوجته التي كانت ساهية حين سمعت الخبر. كان عبارة عن ستة أسطر في الصفحة الخامسة من الجريدة التي تُطبع عند الناصية المجاورة، والتي تُنشر فيها ترجماته المتفرقة، ويأتي مديرها لزيارته بين حين وآخر. وها هي ذي تقول الآن إنه مات في أستوريل، بلشبونة، منتجع الانحطاط الأوروبي وحارسته التي لم يذهب إليها قط، وربما كانت المكان الوحيد في العالم الذي لا يود الموت فيه. توفيت زوجته بالفعل بعد سنة من ذلك، معذبة بالذكرى الأخيرة التي بقيت لها حتى تلك اللحظة: ذكرى ابنها الوحيد الذي شارك في الإطاحة بأبيه، ثم أُعدم رمياً بالرصاص في ما بعد، على يد شركائه.

تنهد الرئيس وقال: «هكذا نحن، ولا يمكن لشيء أن يُخلّصنا. قارة حُبلى ببراز العالم بأسره، دون برهة حب واحدة. إننا أبناء الاختطاف، والاغتصاب، والمعاشرات المشينة، والخداع، ونسل الأعداء من الأعداء». التقت عيناه بعيني لازارا الأفريقيتين، وكانت تحدق به دون رحمة، فحاول أن يهدئها بعبارة بليغة لمعلم قديم:

ـ كلمة خلاسي تعني مزج الدم بالدماء التي تسيل. فما الذي يمكن انتظاره من مثل هذا الشراب الكريه؟

سمرته لازارا في مكانه بصمت كأنه الموت. ولكنها تمكنت من استعادة السيطرة على نفسها قبل منتصف الليل بقليل، وودعته عند انصرافه بقبلة رسمية. وقد عارض الرئيس مرافقة هوميرو له حتى

الفندق؛ ولكنه لم يستطع أن يمنعه من مساعدته في إيقاف سيارة أجرة. وحين رجع هوميرو إلى البيت، وجد زوجته تستشيط غضباً. وقالت له:

ـ هذا هو أكثر رئيس أحسنوا صُنعاً بالإطاحة به. إنه ابن قبحة فظيع.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها هوميرو لتهدئتها، فقد أمضيا ليلة مريعة ساهرين: أقرت لازارا بأنه من أجمل الرجال الذين رأتهم، وأن له قدرة مدمرة على الإغواء، وذكورة فحل. قالت: «لا بد أنه نمر في الفراش، حتى وهو عجوز ومخوزق كما هي حاله الآن». ولكنها كانت تعتقد أنه بدد هذه اللهبات الإلهية بتوظيفها في التصنع. لم تكن قادرة على تحمل مباهاته بأنه كان أسوأ رئيس لبلاده. ولا تبجحاته كزاهد، لأنها كانت مقتنعة من أنه يملك نصف مصانع تكرير السكر في المارتينيك. ولا إدعاءاته الكاذبة بازدراء السلطة، لأنها لا تشك في أنه مستعد لتقديم كل شيء مقابل عودته، ولو لحظة واحدة، إلى الرئاسة، ليجعل جميع خصومه يعضون التراب. ثم انتهت إلى القول:

ـ وكل هذا لأنه وجدنا خاشعين عند قدميه فقط.

ـ وما الذي يمكنه أن يجنيه من هذا؟ ـ قال هوميرو.

ـ لا شيء. كل ما في الأمر هو أن التدلل يصبح إدماناً لا يمكن إشباعه بأي شيء.

كان غضبها شديداً إلى حد لم يستطع معه هوميرو أن يطيقها في الفراش، فمضى ليكمل الليل ملتحفاً بطانية على كنبة الصالة. استيقظت لازارا عند الفجر أيضاً، وكانت عارية تماماً، مثلما اعتادت أن تنام وأن تكون في البيت، وكانت تحدث نفسها في منولوج وحيد الوتر. وفي لحظة واحدة محت من ذاكرة البشرية كل أثر للعشاء البغيض. فقد أعادت الأغراض المستعارة في الفجر، واستبدلت الستائر الجديدة بالقديمة، وأعادت قطع الأثاث إلى أماكنها، إلى أن رجع البيت فقيراً ومحترماً مثلما كان حتى الليلة الماضية. وانتزعت أخيراً قصاصات الصحف والصور وبيارق وشعارات الحملة الانتخابية البغيضة، وألقت بكل شيء إلى صندوق القمامة مع صرخة نهائية:

- إلى الجحيم!

بعد أسبوع من العشاء، وجد هوميرو الرئيس بانتظاره عند خروجه من المستشفى، ورجاه أن يرافقه إلى فندقه. صعدا الطوابق الثلاثة العالية ليصلا إلى علّية لها فتحة وحيدة في السقف، تطل على سماء رمادية، ويقطعها حبل عُلقت عليه ملابس لتجف. كان هناك أيضاً سرير مزدوج يشغل نصف المكان، وكرسي عادي، وإبريق لغسل الأيدي ومبولة، وخزانة فقراء ذات مرآة غبشة. لاحظ الرئيس تأثر هوميرو، فقال له كمن يعتذر:

ـ الجحر نفسه الذي عشت فيه سنوات حياتي كطالب. لقد حجزته من بور دو فرانس.

أخرج من جراب مخملي رصيد موارده النهائي وفرده فوق السرير: عدة أساور ذهبية ذات ترصيعات متنوعة بأحجار كريمة، وعقد لؤلؤ من ثلاث لفات، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الكريمة؛ وثلاث سلاسل ذهبية مع ميداليات قديسين، وقرطان ذهبيان مرصعان بالزمرد، وآخران بالماس، وثالثان بالياقوت؛ وصندوقان صغيران، وعلبة صغيرة جداً على شكل ميدالية، وأحد عشر خاتماً فيها فصوص من كل الأنواع، وإكليل ماسي ربما كان لإحدى الملكات. وأخرج بعد ذلك، من جراب آخر، ثلاث أزواج فضية من أزرار المعاصم مُلبَّسة بطبقة من الذهب الأبيض. ثم أخرج أخيراً، من علبة حذاء، أوسمته الستة: اثنين ذهبيين، وواحد فضي، والبقية خردة محضة.

ـ هذا كل ما بقي لي في الحياة.

لم يكن أمامه من خيار آخر سوى بيع كل شيء ليستكمل نفقات العلاج، وكان يرغب في أن يقدم له هوميرو هذا الجميل بأقصى قدر من التكتم. لكن هوميرو أحس مع ذلك بأنه غير قادر على تلبية رغبته ما دام لا يملك إيصالات نظامية.

أوضح له الرئيس أنها حلي زوجته الموروثة من جدة استعمارية كانت قد ورثت بدورها رزمة أسهم في منجم للذهب في كولومبيا.

أما الساعة وأزرار معصم القميص ومشابك ربطات العنق فهي له. وأما الأوسمة فلم تكن لأحد من قبل بالطبع. ثم قال:

ـ لا أظن أن هناك من يملك فواتير بأشياء كهذه.

لكن هوميرو بقي متمسكاً بموقفه. فقال الرئيس بهدوء:

ـ في هذه الحالة، لم يعد أمامي إلا أن أسفر عن حقيقتي وأبيعها بنفسي.

بدأ بجمع المجوهرات بتروٍ محسوب. وقال له: «سامحني يا عزيزي هوميرو، ولكن ليس هناك من بؤس أسوأ من بؤس رئيس فقير. حتى البقاء على قيد الحياة يبدو شنيعاً». في هذه اللحظة رآه هوميرو بقلبه، وسلم له أسلحته.

عادت لازارا إلى البيت متأخرة في تلك الليلة. ومذ أطلت من الباب رأت المجوهرات المتلألئة تحت الضوء الزئبقي في المطبخ، فأحست كأنها ترى عقرباً في سريرها. وقالت فزعة:

ـ لا تكن جلفاً أيها الزنجي. لماذا هذه الأشياء هنا؟

وسبب لها توضيح هوميرو مزيداً من القلق. جلست لتتفحص المجوهرات، قطعة قطعة، بتدقيق صائغ. وفي لحظة معينة تنهدت قائلة: «لا بد أنها ثروة». وراحت تتطلع أخيراً إلى هوميرو دون أن تجد مخرجاً لانبهارها.

ـ كراخو! ـ قالت ـ ما الذي على أحدنا أن يفعله ليعرف أن كل ما يقوله هذا الرجل صحيح؟

ـ ولم لا؟ ـ قال هوميرو ـ لقد رأيت للتو أنه يغسل ملابسه بنفسه ويعلقها مثلنا على سلك في الغرفة لتجف.

ـ لأنه بخيل ـ قالت لازارا.

ـ أو لأنه فقير ـ قال هوميرو.

عادت لازارا إلى تفحص المجوهرات، ولكن باهتمام أقل الآن، لأنها اقتنعت أيضاً. وهكذا ارتدت في اليوم التالي أفضل ملابسها، وتزينت بالمجوهرات التي بدت لها أغلى من سواها، ووضعت ما استطاعت من الخواتم في كل إصبع من أصابعها، ووضعت ما استطاعت من الأساور في معصميها، وذهبت لتبيعها. وقد قالت في تبجح ساخر وهي خارجة: «لنر من سيطلب فواتير من لازارا دافيس». اختارت محل المجوهرات المضبوط، الذي فيه من الفخامة أكثر مما له من الشهرة، وكانت تعلم أن البيع والشراء فيه يتم دون أسئلة كثيرة. دخلت مرتعبة، ولكن بخطوات واثقة.

طأطأ بائع جاف وشاحب، يرتدي بدلة تشريفات، رأسه بتحية مسرحية وهو يُقبل يدها، ووضع نفسه تحت تصرفها. كان المكان في الداخل أكثر إشراقاً من النهار بفعل المرايا والأضواء القوية، وكان المحل بكامله يبدو كأنه من الماس. واصلت لازارا تقدمها إلى صدر المحل وهي لا تكاد تتطلع إلى الموظف خشية أن يلاحظ المهزلة.

دعاها الموظف للجلوس قبالة أحد مكاتب ثلاثة من طراز

لويس الخامس عشر، كل واحد منها يُستخدم كمنضدة بيع فردية، ونشر فوق المنضدة منديلاً ناصعاً. ثم جلس في مواجهة لازارا، وراح ينتظر.

ـ أي خدمة أستطيع تقديمها؟

عندئذ نزعت الخواتم، والأساور، والعقود، والأقراط، وكل ما كانت تحمله ظاهراً، وراحت تضعه فوق المكتب بنظام شطرنجي. وقالت إن الشيء الوحيد الذي تريده هو معرفة قيمتها الحقيقية.

وضع الجوهري عدسة المونوكل على عينه اليسرى، وبدأ فحص الحلي بصمت سريري. وبعد مرور بعض الوقت، سألها دون أن يتوقف عن الفحص:

ـ حضرتك من أين؟

لم تكن لازارا تتوقع هذا السؤال. فقالت متنهدة:

ـ آه يا سيدي. من بعيد جداً.

ـ هذا ما تصورته ـ قال.

عاد إلى الصمت ثانية، بينما كانت لازارا تتفحصه دون رحمة بعينيها الذهبيتين الرهيبتين. اهتم الجوهري اهتماماً خاصاً بالإكليل الماسي، ووضعه بعيداً عن المجوهرات الأخرى. تنهدت لازارا وقالت:

ـ أنت نموذج كامل لبرج العذراء.

لم يوقف الجوهري فحوصاته:

ـ كيف تعرفين ذلك؟

ـ من طريقتك ـ قالت لازارا.

لم ينطق بأي تعليق إلى أن انتهى، وعندئذ توجه إليها بالوقار الذي قابلها به في البداية:

ـ من أين أتى هذا كله؟

فقالت لازارا بصوت متوتر:

ـ ارث جدتي. لقد توفيت السنة الماضية في باراماريبو عن سبعة وسبعين عاماً.

نظر الجوهري حينئذ إلى عينيها وقال لها: «آسف جداً. ولكن القيمة الوحيدة لهذه الأشياء هو ما تزنه ذهباً». ثم أمسك الإكليل بأطراف أصابعه وجعله يتلألأ تحت النور المبهر، وقال:

ـ باستثناء هذا، إنه قديم جداً، ربما هو مصري، ولولا سوء حالته لكان لا يقدر بثمن. ولكن ما زالت له على أي حال قيمة تاريخية.

أما أحجار الحلي الأخرى: الجمشت، والزمرد، والياقوت، والأوبال، فكانت كلها ودون استثناء مزيفة. قال الجوهري وهو يجمع الحلي ليعيدها إليها: «لا ريب في أن الأحجار الأصلية كانت جيدة. ولكن خلال انتقالها الطويل من جيل إلى آخر، كانت الأحجار الأصلية تختفي في الطريق، وتحل محلها أعقاب قوارير».

شعرت لازارا بغثيان أخضر، فأخذت نفساً عميقاً وضبطت أعصابها. فقال لها البائع مواسياً:

ـ مثل هذا يحدث بكثرة يا سيدتي.

فقالت لازارا مفرجة عن نفسها:

ـ أعرف. لهذا أريد التخلص منها.

أحست عندئذ بأنها أصبحت بعيدة عن التهريج، وعادت لتصبح هي نفسها. ودون مزيد من اللف والدوران، أخرجت من حقيبتها أزرار معصم القميص، وساعة الجيب، ومشابك ربطات العنق، والأوسمة الذهبية والفضية، وبقية حلي الرئيس الشخصية الرخيصة، ووضعت كل شيء على المنضدة.

ـ وهذه أيضاً؟ ـ سألها الجوهري.

ـ كل شيء ـ قالت لازارا.

الفرنكات السويسرية التي دفعوها لها كانت جديدة جداً، حتى إنها خشيت أن تلوث أصابعها بحبرها الطازج. استلمت النقود دون أن تعدها، وودعها الجوهري عند الباب بالمراسم التي استقبلها بها. وعند المخرج، بينما كان يمسك الباب ليفسح لها الطريق، أوقفها لحظة ليقول لها:

ـ هناك شيء آخر يا سيدتي. أنا من برج القوس.

في أول الليل، حمل هوميرو ولازارا النقود إلى الفندق. وبعد إجراء الحسابات، تبين للرئيس أنه ما زال بحاجة إلى مبلغ صغير

آخر، فراح ينزع خاتم زفافه، والساعة ذات السلسلة، وأزرار معصم قميصه ومشبك ربطة عنقه التي يستخدمها، ووضعها كلها على السرير.

أعادت لازارا إليه الخاتم، وقالت:

ـ هذا لا. فتذكار كهذا لا يمكن بيعه.

وافق الرئيس على قولها، وأعاد الخاتم إلى إصبعه. ثم ردت إليه لازارا، بالطريقة نفسها، ساعة الصدار قائلة: «وهذه أيضاً». فلم يوافق الرئيس، لكنها أعادت وضعها في مكانها في جيب صداره وهي تقول:

ـ من يخطر له أن يبيع ساعات في سويسرا؟

ـ لقد بعنا واحدة ـ قال الرئيس.

ـ أجل، ولكننا لم نبعها كساعة، وإنما كذهب.

ـ وهذه أيضاً من الذهب ـ قال الرئيس.

ـ صحيح ـ قالت لازارا ـ ولكن، بإمكانك أن تبقى دون إجراء العملية الجراحية، إنما لا يمكنك البقاء وأنت لا تعرف كم الساعة.

لم تقبل منه كذلك إطار نظارته الذهبي، مع أنه كان يملك إطاراً آخر من عظم ظهر سلحفاة، رازت الحلي التي بقيت في يدها، ووضعت حداً للتردد:

ـ ثم إن هذه كافية.

وقبل أن تخرج، نزعت الملابس المبللة عن حبل الغسيل، دون أن تستشيره، وأخذتها لتجففها وتكويها في البيت. ذهبا على الدراجة النارية الصغيرة، هوميرو يسوق ولازارا على الشبكة المعدنية خلفه محتضنة خصره. كانت الأنوار العامة قد أضيئت لتوها في ذلك المساء الخبازّي. وكانت الريح قد انتزعت آخر الأوراق، فبدت الأشجار كأنها مستحاثات منتوفة. وكانت سفينة جر تمضي نزولاً في الرون، وفيها مذياع يصدح بأعلى صوت مخلفاً في الشوارع نثارة من الموسيقى. كان جورج براسين يغني:

Mon amour tiens bien la barre, le temps va passer par la, et le temps est un barbare danse le genre d'Attila, par la ou son cheval passe l'amour ne repoussep pas.

وكان هوميرو ولازارا يمضيان بصمت مضمخين بالأغنية ورائحة البنفسج. وبعد قليل، بدت كأنها تستيقظ من حلم طويل.

ـ كراخو. قالت.

ـ ماذا؟

ـ العجوز المسكين ـ قالت لازارا ـ، يا لحياته الخرائية!

يوم الخميس التالي، السابع من تشرين الأول، أجريت للرئيس العملية الجراحية التي استغرقت خمس ساعات، وأبقت الأمور حتى تلك اللحظة غامضة كما كانت من قبل. وكان عزاؤهما الوحيد، بكل صرامة، هو معرفتهما أنه مازال حياً. وبعد عشرة أيام

نُقل إلى غرفة يتقاسمها مع مرضى آخرين، واستطاعا عندئذ زيارته. كان شخصاً آخر: فقد كان مشعاً وشاحباً، وبشعر خفيف يتساقط بمجرد احتكاكه بالوسادة. ولم يبق له من مهابته السابقة سوى انسيابية حركة يديه. كانت محاولته الأولى للمشي مستنداً إلى عكازين مخيبة للأمل. وقد ظلت لازارا لتنام إلى جواره، موفرة عليه بذلك أجور ممرضة ليلية. وفي الليلة الأولى، أمضى أحد مرضى الصالة الليل كله وهو يصرخ لخوفه من الموت. وقد قضت ليالي الأرق الطويلة تلك على آخر شكوك لازارا.

وبعد أربعة شهور على وصوله إلى جنيف، سمحوا له بالخروج من المستشفى. فقام هوميرو الذي كان المشرف الدقيق على أرصدته الزهيدة، بدفع حساب المستشفى، ثم أخذه في سيارة الإسعاف مع موظفين آخرين ساعدوه في حمله حتى الطابق الثامن، واستقر هناك في غرفة الطفلين اللذين لم يتعرف عليهما قط، وبدأ يعود إلى الواقع شيئاً فشيئاً. انهمك في التمارين العلاجية بانضباط عسكري إلى أن أصبح قادراً على المشي بعكازه الوحيد السابق. ولكنه، حتى وهو يرتدي ملابسه القديمة، كان بعيداً عن أن يكون هو نفسه، سواء في مظهره أو في أسلوبه في الحياة. ولخشيته من الشتاء الذي كان قد بدأ ينذر بقسوته، وكان في الواقع أقسى شتاء في سنوات القرن، قرر العودة إلى المارتينيك في سفينة تغادر مرسيليا يوم الثالث عشر من كانون الأول، بالرغم من معارضة الأطباء الذين أرادوا إبقاءه تحت المراقبة لفترة أخرى. وفي

اللحظة الأخيرة تبين له أن ما بقي من النقود لا يكفي لكل ذلك: فأرادت لازارا أن تستكمل النقص دون إخبار زوجها بأخذ حفنة من مدخرات ابنيها، ولكنها لم تجد هناك المبلغ الذي كانت تفترض وجوده. عندئذ اعترف لها هوميرو بأنه قد أخذ جزءاً من المبلغ دون أن يخبرها ليستكمل نفقات المستشفى.

ـ حسن ـ قالت لازارا بإذعان ـ فلنقل إنه كان ابننا الكبير.

في الحادي عشر من كانون الأول، أركباه في القطار المسافر إلى مرسيليا وسط عاصفة ثلجية قوية، وعندما رجعا إلى البيت فقط، وجدا رسالة وداع على الكوميدينو في غرفة الأطفال. وكان قد ترك أيضاً خاتم زفافه هدية لابنتهما باربارا، ومعه خاتم زوجته المتوفاة الذي لم يفكر في بيعه قط، والساعة ذات السلسلة هدية للازارو الصغير، ولأن اليوم كان يوم أحد، فإن بعض الجيران من أهالي الكاريبي الذين كانوا قد اكتشفوا السر، ذهبوا إلى محطة كورنافي ومعهم فرقة موسيقى قرب من فيراكروث. كان الرئيس خامد الأنفاس بالمعطف الفاسد ولفاع عنق طويل ملون كانت تستخدمه لازارا، وعلى الرغم من ذلك ظل واقفاً في المكان المخصص للحارس في نهاية العربة الأخيرة من القطار، يودعهم ملوحاً بقبعته تحت عصف الريح الشديدة. وكان القطار قد بدأ يتحرك عندما انتبه هوميرو إلى أنه مازال يحمل عكاز الرئيس. فركض إلى حافة الرصيف وقذف العكاز بكل قوته لكي يتلقفه

الرئيس في الهواء، لكنه سقط بين العجلات وتحطم. كانت لحظة مرعبة. الشيء الأخير الذي رأته لازارا هو اليد المرتعشة الممتدة لالتقاط العكاز الذي لم يصل، وحارس القطار الذي تمكن من إمساك العجوز المغطى بالثلج من لفاع عنقه، وأنقذه من الوقوع في الفراغ. ركضت لازارا مذعورة للقاء زوجها، وحاولت أن تضحك من وراء الدموع وهي تصرخ قائلة:

ـ رباه، هذا الرجل لن يموت بأي شيء.

وصل سالماً ومعافى، كما أخبرهما في برقية الشكر المطولة. ولم يعرفا عنه شيئاً طوال أكثر من سنة. وأخيراً وصلتهما رسالة من ست صفحات كتبها بخط يده، وقد أصبح من المستحيل التعرف عليه من خلالها. كان الألم قد عاد إليه، شديداً وفي مواعيد دقيقة مثلما كان في السابق، ولكنه قرر عدم الاهتمام به وعيش الحياة مثلما تأتي. وقد أهدى إليه الشاعر إيميه سيزيه عكازاً آخر مرصعاً بالصدف، لكنه قد قرر عدم استخدامه. وكان يأكل اللحم بانتظام منذ ستة أشهر، وكذلك جميع أنواع الأحياء البحرية، وقادراً على تناول حتى عشرين فنجاناً من القهوة الثقيلة. ولكنه لم يعد يقرأ طالعه في قعر الفناجين، لأن تنبؤاته كانت تأتي معاكسة للواقع. ويوم أكمل الخامسة والسبعين من عمره، تناول عدة كؤوس لذيذة جداً من روم المارتينيك، جعلته يشعر بأنه على ما يرام. كما أنه عاد إلى التدخين. إنه لا يشعر بأن حاله أفضل بالطبع، ولكنها ليست

أسوأ كذلك. وبعد، فقد كان السبب الحقيقي لتلك الرسالة هو إطلاعهما على رغبته في العودة إلى بلاده ليقف على رأس حركة تجديدية، من أجل قضية عادلة ووطن كريم، ولو أنه لن يكسب من ذلك سوى المجد البائس وعدم الموت في سريره كشيخ هرم. وتنتهي الرسالة إلى القول بأن الرحلة إلى جنيف، بهذا المعنى، كانت أمراً صادراً عن العناية الإلهية.

حزيران ١٩٧٩

القديسة

La santa

بعد اثنتين وعشرين سنة، عدت لألتقي ثانية بمرغريتو دوارتي. ظهر لي فجأة في أحد أزقة تراستيفيري السرية، وقد وجدت مشقة في التعرف إليه للوهلة الأولى بسبب صعوبة نطقه اللغة القشتالية وهيئته التي تشبه هيئة روماني قديم. كان شعره أبيض وخفيفاً، ولم يبق فيه أي أثر من السلوك الكئيب أو من ملابس المثقف الأنديزي الجنائزي التي جاء بها إلى روما أول مرة، لكنني في سياق الحديث معه رحت أجرده شيئاً فشيئاً من غدر سنوات حياته إلى أن عدت أراه مثلما كان، صموتاً ومباغتاً، وعنيداً مثل قاطع أحجار. وقبل فنجان القهوة الثاني في أحد بارات أزمنتنا السابقة، تجرأت على أن أوجه إليه السؤال الذي كان ينهشني من الداخل:

ـ ماذا جرى للقديسة؟

ـ القديسة هنا. إنها تنتظر ـ أجابني.

ولم يكن بإمكان أحد سوى صاحب صوت التِنور الصادح رافائيل ريبيرو سيلفا وسواي أنا، يمكنه أن يدرك حقيقة الشحنة

الإنسانية الرهيبة في جوابه. فقد كنا نعرف مأساته بدقة إلى الحد الذي جعلني أفكر خلال سنوات طويلة في أن مرغريتو دوارتي هو الشخصية الباحثة عن مؤلف، والتي ننتظرها نحن الروائيين طوال حياة كاملة. وإذا كنت لم أترك هذه الشخصية تعثر عليّ، فلأنني رأيت أن نهاية قصته تبدو غير معقولة.

كان قد جاء إلى روما في ذلك الربيع المشع الذي أصيب فيه البابا بيوس الثاني عشر بنوبة فواق لم تنفع في علاجها كل وسائل الأطباء والمشعوذين الحميدة والخبيثة. وكان ذلك هو خروجه الأول من قريته الجبلية الوعرة توليما، الواقعة في سلسلة جبال الأنديز الكولومبية، وكان ذلك يبدو عليه بوضوح حتى في طريقة نومه. فقد ظهر في أحد الأيام في قنصلية بلادنا ومعه حقيبة مصنوعة من خشب الصنوبر المصقول، تبدو في شكلها وحجمها، مثل علبة فيولونسيل، وعرض على القنصل السبب المفاجئ لزيارته. عندئذ اتصل القنصل هاتفياً بمواطنه ذي الصوت الصادح رافائيل ريبيرو سيلفا، ليجد له غرفة في النزل الذي كنا نعيش فيه كلانا. وهكذا تعرفت عليه.

لم يكن مرغريتو دوارتي قد تخطى مرحلة الدراسة الابتدائية، لكن ميله إلى الآداب الجميلة وفر له تكويناً أكثر اتساعاً، من خلال القراءة النهمة لكل مادة مطبوعة تقع بين يديه. وفي الثامنة عشرة من عمره، حين أصبح الكاتب العمومي المشهور في المقاطعة، تزوج من فتاة جميلة، ما لبثت أن توفيت بعد فترة قصيرة من ولادة

ابنتهما البكر. وهذه الابنة التي كانت أكثر جمالاً من أمها، توفيت بدورها بحمى غامضة وهي في السابعة من عمرها. لكن قصة مرغريتو دوارتي الحقيقية بدأت قبل ستة شهور من مجيئه إلى روما، حين كان لا بد من نقل مقبرة قريته لبناء سدّ في الموقع. ومثله مثل جميع سكان المنطقة، نبش مرغريتو عن عظام موتاه لينقلها إلى المقبرة الجديدة. كانت الزوجة قد صارت رميماً. أما في القبر المجاور، فكانت الطفلة لا تزال سليمة تماماً بعد مرور إحدى عشرة سنة على دفنها. حتى إنهم حين نزعوا غطاء التابوت، فاحت منه رائحة الورود الندية التي دُفنت معها. لكن الأمر الأكثر غرابة هو أنه لم يكن للجسد أي وزن.

غصت القرية بمئات الفضوليين الذين اجتذبتهم أصداء المعجزة. لم يكن هناك أي شك. فعدم تفسخ الجسد كان علامة لا لبس فيها من علامات القداسة. وحتى مطران الأبرشية نفسه وافق على ضرورة عرض هذه الأعجوبة على هيئة التحكيم في الفاتيكان. وهكذا جرت حملة تبرعات عامة لتمكين مرغريتو دوارتي من السفر إلى روما، ليناضل من أجل قضية لم تعد تخصه وحده، أو تخص مجتمع قريته الضيق، بل قضية الأمة بأسرها.

وبينما هو يروي لنا قصته في نزل حي باريولي الهادئ، نزع مرغريتيو دوارتي القفل، وفتح غطاء الصندوق المتقن الصنع. وهكذا كان أن اشتركت أنا والصادح ريبيرو سيلفا في المعجزة. لم تكن مومياء ذاوية مثل تلك التي يمكن رؤيتها في متاحف كثيرة في

العالم، وإنما طفلة ترتدي ثوب عروس، ولا تزال نائمة بعد إقامة طويلة تحت الأرض. كانت البشرة صافية، والعينان المفتوحتان اللامعتان تثيران في النفس انطباعاً لا يطاق بأنهما تريانا عبر الموت. قطعة الساتان والأزهار الاصطناعية التي صنع منها الإكليل لم تستطع مقاومة قسوة الزمان والبقاء بحالة جيدة كما البشرة، أما الأزهار الطبيعية الموضوعة في يدها فكانت لا تزال حية. ووزن الصندوق الخشبي بقي بالفعل على حاله عندما أخرجنا الجسد منه.

بدأ مرغريتو دوارتي مساعيه منذ اليوم التالي لوصوله. وتلقى في أول الأمر مساعدة دبلوماسية فيها من الشفقة أكثر مما فيها من الفعالية، ثم بدأ يلجأ إلى كل ما يخطر لباله من الحيل لتجاوز عقبات الفاتيكان التي لا حصر لها. وقد كان متحفظاً على الدوام في ما يتعلق بمساعيه، ولكن المعروف عنها أنها كانت كثيرة وغير مجدية. لقد اتصل بكل الجمعيات الدينية والهيئات الإنسانية التي صادفها في طريقه، حيث كانوا يستمعون إليه باهتمام، ولكن دون دهشة، ويعدونه بإجراءات فورية لم تصل قط إلى النهاية المنشودة. والحقيقة أن تلك الفترة لم تكن بالفترة المناسبة. فكل ما هو مرتبط بالكرسي الرسولي كان مؤجلاً إلى أن يتجاوز البابا أزمة الفواق التي بقيت صامدة، ليس أمام أرقى المراجع الطبية الأكاديمية وحسب، وإنما كذلك أمام أساليب العلاج السحرية التي كانت تتوارد من كل أرجاء العالم.

وأخيراً، في شهر تموز، شفي بيوس الثاني عشر وذهب لقضاء

إجازته الصيفية في قلعة غاندولفو. فحمل مرغريتو القديسة إلى أول جلسة عامة أسبوعية للبابا على أمل أن يعرضها عليه. ظهر البابا في البهو الداخلي، على شرفة منخفضة جداً لدرجة أن مرغريتو استطاع أن يرى أظفاره المشذبة جيداً وأن يحس بأنفاسه العابقة برائحة الخزامى. ولكن البابا لم يَجُل بين السائحين القادمين من كل أرجاء الدنيا لرؤيته، مثلما كان يأمل مرغريتو، وإنما اكتفى بإلقاء الخطبة نفسها بسبع لغات، وانتهى بمنح مباركته العامة.

بعد كل هذا التأجيل، قرر مرغريتو أن يتصدى للأمور بنفسه، وقدم إلى سكرتارية دولة الفاتيكان رسالة خطية من نحو ستين ورقة، لم يتلق رداً عليها. كان قد تنبأ بذلك. فالموظف الذي استلمها منه حسب الشكليات الرسمية الصارمة، لم يكد يتكرم بإلقاء نظرة رسمية إلى الطفلة الميتة؛ والموظفون الذين كانوا يمرون قريباً منه حينئذ، كانوا ينظرون إليها دون أي اهتمام. وقد روى له أحدهم أنهم تلقوا في السنة السابقة أكثر من ثمانمئة رسالة تطالب بتطويب جثث لم تتفسخ في أماكن مختلفة من العالم. فطلب مرغريتو من الموظف أخيراً أن يختبر بنفسه انعدام وزن الجسد. فاختبره الموظف، لكنه رفض الاقرار بانعدام الوزن قائلاً:

ـ لا بد أن يكون الأمر مجرد وهم جماعي.

كان مرغريتو يقضي ساعات فراغه القليلة في أيام الآحاد الصيفية المجدبة، في غرفته بالنزل، مستغرقاً في قراءة أي كتاب

يبدو له مفيداً لقضيته. وفي آخر كل شهر، وبمبادرة شخصية منه، كان يسجل في دفتر مدرسي قائمة مفصلة بنفقاته، بخطه البديع ككاتب عمومي عظيم، لكي يقدم كشفاً دقيقاً وموثقاً بحساباته إلى المساهمين بالنفقات في قريته. وقبل أن تنتهي السنة، كان قد تعرف على متاهات روما كمن ولد فيها. وكان يتكلم بلغة إيطالية طليقة وقليلة الكلمات مثلما يتكلم قشتاليته الأنديزية. وكان يعرف أكثر من أي شخص آخر تفاصيل عمليات تطويب القديسين. ولكن زمناً طويلاً انقضى قبل أن يستبدل بدلته الجنائزية، وصداره وقبعة القضاة التي كانت تستخدمها في روما تلك الحقبة بعض الجمعيات السرية التي لا تُشهر أهدافها. وكان يخرج منذ الصباح الباكر حاملاً صندوق القديسة، ويرجع أحياناً في ساعة متأخرة من الليل، منهوكاً وحزيناً، ولكن مع قبس من الأمل دائماً يبثه حماسة جديدة لليوم التالي.

ـ القديسون يعيشون زمنهم الخاص ـ كان يقول.

كنت موجوداً آنذاك في روما أول مرة، وكنت أدرس في المركز السينمائي التجريبي، وقد عشت عذاباته بزخم لا يُنسى. النزل الذي كنا نقيم فيه كان في الحقيقة شقة حديثة على بعد خطوات قليلة من شارع فيللا بورغيسي، وكانت صاحبة البيت تشغل غرفتين منه وتؤجر أربع غرف أخرى لطلاب أجانب، كنا ندعوها ماريا بيلا، وكانت جميلة ومزاجية في ذروة خريفها،

ومخلصة دائماً للقاعدة المقدسة بأن كل واحد هو ملك مطلق في غرفته. والحقيقة أن من كان يتحمل ثقل الحياة اليومية هي أختها الكبرى، الخالة أنطونيتا، ملاك دون أجنحة، تعمل ساعات طويلة كل يوم، وتنتقل بسطلها وممسحتها لتلمع الأرضية الرخامية أكثر مما يمكن تلميعها. وهي التي علمتنا أكل العصافير المغردة التي يصطادها زوجها بارتوليني بحكم عادة سيئة بقيت له من الحرب، وهي التي أخذت مرغريتو ليعيش في بيتها عندما لم تعد موارده تكفي لأسعار ماريا بيلا.

لم يكن هناك ما هو أقل موافقة لأسلوب مرغريتو في الحياة من ذلك البيت الذي ليست له قوانين، والذي يحتفظ لنا بالمفاجآت في كل ساعة، حتى في ساعات الفجر، عندما كان يوقظنا زئير رهيب يطلقه أسد حديقة الحيوان في شارع فيللا بورغيسي. كان مغني التينور ريبيرو سيلفا قد حقق امتياز جعل أهالي روما يعجزون عن مقاومة الاستماع إلى بروفات غنائه الصباحية الباكرة. فقد كان ينهض في السادسة صباحاً، فيستحم حمامه الطبي بماء مثلج ويشذب لحية وحواجب ميفيستوفيليس التي له، وحين يصبح جاهزاً بعباءته ذات المربعات الاسكتلندية، ولفاع رقبته الحريري وعطره الخاص، عندئذ فقط، يستسلم جسداً وروحاً لتمريناته الغنائية. كان يفتح نافذة غرفته على مصراعيها، حتى عندما تكون النجوم الشتائية في السماء، ويبدأ بتحمية صوته بعبارات متدرجة من أغنيات الحب التي تؤدى بصوت منفرد، إلى أن ينطلق في

غنائها بملء صوته. وكانت المفاجأة اليومية المنتظرة هي أنه حين يطلق «دو» صدره، يرد عليه أسد فيللا بورغيسي بزئير يزلزل الأرض.

فكانت الخالة أنطونيتا تهتف بذهول أحياناً:

ـ أنت القديس ماركوس مجسداً يا بني. فهو وحده الذي كان قادراً على مخاطبة الأسود.

وفي صباح أحد الأيام، لم يكن الأسد هو الذي ردّ عليه. فما إن بدأ ذو الصوت الصادح لحن الحب الغنائي من ***عطيل***:

Gia nella notte s'estingue ogni clamor

حتى جاءنا فجأة، من أقصى الفناء، الرد بصوت ندي بديع. واصل ذو الصوت الصادح، وأكمل الصوتان معاً غناء القطعة كاملة لبعث المسرة في قلوب الجيران الذين فتحوا نوافذهم ليطهروا بيوتهم بسيل ذلك الحب الذي لا يُقاوم. وكاد ذو الصوت الصادح أن يسقط مغمياً عليه حين عرف أن ديدمونته غير المرئية لم تكن إلا ماريا كاينغليا العظمى.

لدي انطباع بأن تلك الحادثة هي التي شكلت مبرراً مناسباً لمرغريتو دوارتي كي يندمج في حياة البيت. فمنذ ذلك الحين، بدأ يجلس مع الجميع إلى المائدة المشتركة وليس في المطبخ، كما كان يفعل في السابق، حيث كانت الخالة أنطونيتا ترضيه بشكل شبه يومي بوجبة متقنة من العصافير المغردة. كانت ماريا بيلا تقرأ

لنا ونحن على المائدة، الصحف اليومية كي نعتاد على اللفظ الإيطالي، وتكمل الأخبار بتعسف وظرف يبعثان المرح أحياناً في حياتنا. وقد روت لنا في أحد تلك الأيام، ملمحة إلى وضع القديسة، أنه يوجد في مدينة باليرمو متحف ضخم يضم جثثاً غير متفسخة لرجال ونساء وأطفال. وأن بينهم كذلك عدد من الأساقفة، نبش عنهم في مقبرة الآباء الكبوشيين نفسها. وقد أقلق الخبر مرغريتو الذي لم يعد يعرف لحظة سلام واحدة إلى أن ذهبنا إلى باليرمو. ولكنه اكتفى بنظرة سريعة عابرة على الأروقة التي تعرض فيها تلك الموميات غير المجدية ليطلق حكماً فيه العزاء:

ـ الحالة ليست مماثلة. فهؤلاء يبدو واضحاً على الفور أنهم ميتون.

بعد الغداء، تموت روما عادة في سبات آب. فشمس الظهيرة تبقى ثابتة في كبد السماء، ولا يُسمع في صمت الساعة الثانية بعد الظهر سوى خرير الماء، وهو الصوت الطبيعي لروما. ولكن النوافذ تُفتح في نحو الساعة السابعة مساء لاستدعاء الهواء البارد الذي يكون قد بدأ بالتحرك، وتخرج إلى الشوارع جموع متهللة لا هدف لها سوى العيش، وسط فرقعة الدراجات النارية، ونداءات بائعي البطيخ، وأغاني الحب بين أزهار الشرفات.

لم نكن أنا والصادح ننام القيلولة. فكنا نخرج معاً على دراجته الفيسبا، هو يقودها وأنا خلفه على الشبكة الحديدية، وكنا نأخذ

المثلجات والشيكولاته إلى عاهرات الصيف اللواتي يحوّمن تحت أشجار الغار المعمرة في جادة بيللا بورغيسي بحثاً عن سائحين مؤرقين في عز الظهيرة. كن جميلات وفقيرات وودودات مثل معظم إيطاليات ذلك الزمان، وكن يرتدين ثياباً من الأورغنزة الزرقاء، أو من البوبلين الوردي أو الكتان الأخضر، ويحتمين من الشمس بالمظلات التي أكلتها العثة أثناء أمطار الحرب الأخيرة. كانت مرافقتهن متعة إنسانية، لأنهن كن يقفزن فوق قوانين المهنة أحياناً ويسمحن لأنفسهن بترف فقدان زبون جيد كي يذهبن معنا لتناول فنجان قهوة مع حديث مطول في مقهى الناصية القريبة، أو التنزه في عربات الأجرة التي تجرها الخيول عبر دروب الحديقة، أو التألم معنا على مصير الملوك المخلوعين عن عروشهم مع عشيقاتهم المأساويات وهم يمتطون الجياد عند الغروب في مضمار غالوباتويو. وفي أكثر من مناسبة، كنا نقدم لهن خدماتنا كمترجمين مع زبون غرينغو تائه.

لم يكن ذهابنا بمرغريتو دوارتي إلى جادة فيللا بورغيسي من أجلهن، وإنما أخذناه ليتعرف على الأسد. كان يعيش في جزيرة صغيرة مقفرة يحيط بها خندق عميق. وما إن لمحنا على الضفة الأخرى للخندق حتى بدأ يزأر بهياج فاجأ حارسه. وهرع رواد الحديقة مذعورين. فحاول ذو الصوت الصادح أن يعرّف بهويته بإطلاق «الدو» الصباحي الذي يخرج من أعماق صدره، لكن الأسد لم يوله أي اهتمام. بدا كأنه يزأر متوجهاً إلينا جميعاً دون

تمييز، لكن الحارس انتبه في الحال إلى أن زئيره موجه إلى مرغريتو وحده. وقد كان الأمر كذلك فعلاً: فحيثما تحرك كان الأسد يتحرك، وما إن يختفي حتى يتوقف عن الزئير. والحارس الذي كان دكتوراً في الآداب الكلاسيكية من جامعة سينه، فكر في أن مرغريتو كان اليوم دون ريب مع أسود أخرى، وأن رائحتها قد انتقلت إليه. وسوى هذا التفسير ـ الذي لم يكن صالحاً ـ لم يكن لديه تفسير آخر.

ـ الزئير ليس حربياً على أي حال ـ قال ـ، بل هو زئير حنان.

ما أذهل الصادح ريبيرو سيلفا، مع ذلك، لم يكن هذا الحادث الخارج عن المألوف، وإنما اضطراب مرغريتو عندما توقفنا لتبادل الحديث مع فتيات الحديقة. لقد روى لنا ذلك ونحن على المائدة، وقد اتفق الجميع، بعضهم بدافع المزاح وبعضهم الآخر بدافع التفهم، على أنه من الواجب مساعدة مرغريتو في حل مشكلة عزلته. وتأثرت ماريا بيلا بطيبة قلوبنا، فضغطت على صدر الأم التوراتية الحنون بيديها المرصوفتين بخواتم مقلدة، وقالت:

ـ أنا مستعدة لعمل ذلك على سبيل الإحسان، لولا أنه لا قدرة لي على تحمل الرجال الذين يلبسون صداراً.

وهكذا كان أن مرّ الصادح في شارع فيللا بورغيسي في الساعة الثالثة بعد الظهر، وأحضر على دراجته الفيسبا الفراشة التي بدت له مناسبة لمنح مرغريتو دواتري ساعة من الصحبة الطيبة. جعلها

تتعرى في غرفته، وحممها بصابون معطر، وجففها، وعطرها بعطره الشخصي، ورش جسدها كله ببودرة التالك الممزوجة بالكافور التي يستخدمها بعد حلاقة ذقنه. وأخيراً دفع لها قيمة الوقت الذي مضى، وأضاف إليه أجرة ساعة أخرى، ولقنها كل ما عليها أن تفعله حرفاً حرفاً.

اجتازت الحسناء العارية البيت المعتم على رؤوس أصابعها، كأنها حلم قيلولة، وطرقت طرقتين رقيقتين على باب الغرفة الأخيرة. فتح لها الباب مرغريتو دوارتي الذي كان حافياً ودون قميص.

قالت له بصوت وأسلوب تلميذة:

- *Buona sera giovanotto. Mi manda il tenre.*[1]

تمثل مرغريتو الصفعة بوقار عظيم. فتح الباب ليفسح لها الطريق، فاستلقت على السرير بينما هو يتعجل في لبس قميصه وحذائه ليقوم بما يقتضيه الواجب نحوها بالاحترام اللائق. وأخيراً جلس إلى جوارها على الكرسي، وبدأ الحديث معها. فوجئت الفتاة بسلوكه وطلبت منه أن يسرع، لأن لديه ساعة واحدة فقط. ولكن لم يبد عليه ما يدل على أنه قد فهم.

وقد قالت الفتاة في ما بعد إنها كانت مستعدة على أي حال

---

(١) بالإيطالية في الأصل: مساء الخير أيها الشاب. لقد أرسلني الصادح.

للبقاء معه كل الوقت الذي يريده دون أن تأخذ منه سنتاً واحداً، لأنه لا يمكن أن يكون هناك في العالم رجل مقبول أكثر منه. ولأنها لم تكن تدري ما الذي ستفعله في الوقت المتبقي، فقد راحت تتفحص الحجرة بنظرها، ولاحظت وجود الصندوق الخشبي فوق المدفأة. وسألته إذا كان فيه ساكسيفون، لكن مرغريتو لم يجب على سؤالها، بل أزاح الستارة قليلاً كي يدخل بعض الضوء، ثم حمل العلبة إلى السرير ورفع عنها الغطاء. حاولت الفتاة أن تقول شيئاً، لكن فكها السفلي ارتخى. أو كما قالت لنا في ما بعد *Mi si gelo il culo*[1] هربت من الحجرة مذعورة، لكنها أخطأت التوجه في الممر، ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع الخالة أنطونيتا التي كانت آتية لتركب مصباحاً جديداً في غرفتي. وقد أصاب الاثنتين فزع شديد لم تتجرأ الفتاة معه على مغادرة حجرة الصادح حتى ساعة متأخرة من الليل.

لم تعرف الخالة أنطونيتا قط حقيقة ما حدث. فقد دخلت إلى غرفتي وهي مذعورة جداً، حتى إنها لم تستطع تركيب المصباح في مكانه بسبب ارتعاش يديها. سألتها عما حدث لها، فقالت: «هذا البيت مرعب. حتى الآن ونحن في عز النهار». وروت لي باقتناع تام أن ضابطاً ألمانياً كان قد ذبح عشيقته خلال الحرب في الغرفة التي يشغلها الصادح. وأن الخالة أنطونيتا رأت عدة مرات، وهي

---

(١) لقد تجمدت مؤخرتي.

تمارس عملها، شبح الحسناء القتيلة يلتقط خطواته في الممرات. ثم قالت:

ـ لقد رأيتها تمشي الآن عارية في الممر. إنها هي نفسها.

استعادت المدينة إيقاعها المعتاد في الخريف. وأُغلقت مقاهي الرصيف التي كانت مزدهرة في الصيف مع هبوب الرياح الأولى، ورجعنا أنا والصادح إلى حانة تراستيفيري، حيث اعتدنا تناول العشاء مع تلاميذ الكونت كارلو كالكاجني في الغناء، وبعض زملائي في معهد السينما. وكان أكثر هؤلاء الزملاء مثابرة هو لاكيس، شاب يوناني ذكي ولطيف، الشيء المزعج الوحيد فيه خطاباته المُنوِّمة عن الظلم الاجتماعي. ومن حسن الحظ أن ذوي الأصوات الصادحة والندية كانوا يهزمونه في معظم الأحيان بغناء مقاطع من الأوبرات بأعلى أصواتهم، دون أن يزعجوا أحداً مع ذلك، حتى بعد منتصف الليل. بل إن بعض الساهرين العابرين كانوا ينضمون إلى الكورال، ويفتح ساكنو البيوت المجاورة نوافذهم للتصفيق.

في إحدى الليالي، وبينما نحن نغني، دخل مرغريتو على رؤوس أصابعه كي لا يزعجنا. وكان يحمل معه صندوق خشب الصنوبر الذي لم يكن لديه متسع من الوقت لحمله إلى النزل بعد أن عرض القديسة على كاهن سان خوان دي ليتراس الذي كان تأثيره على جمعية إجراءات التطويب معروفة للملأ. وقد لمحته

بصورة عرضية وهو يضع الصندوق تحت طاولة منعزلة، ويجلس منتظراً أن ننتهي من الغناء. ومثلما يحدث دائماً عند حدود منتصف الليل، جمعنا عدة موائد عندما بدأت الحانة تخلو من الزبائن، وبقينا وحدنا نحن الذين نغني ونتجادل حول السينما وأصدقاء الجميع. وبين هؤلاء كان مرغريتو دوارتي الذي أصبح معروفاً هناك بأنه الكولومبي الصامت والكئيب الذي لا يعرف أحد عنه شيئاً. سأله لاكيس، بخبث، إن كان يعزف الفيولونسيل. فشعرت بالذهول للسؤال الذي بدا لي طيشاً لا يمكن تفسيره. ولم يتمكن الصادح الذي بوغت مثلي، من ترقيع الموقف. وكان مرغريتو هو الوحيد الذي أخذ السؤال على محمل الجد. فقال:

ـ هذا ليس فيولونسيل. إنها القديسة.

وضع الصندوق على المنضدة، وفتح القفل، ثم رفع الغطاء. فهزت المطعم ومضة ذهول. وتجمع الزبائن الآخرون والندل، ثم جاء أخيراً العاملون في المطبخ بمرايلهم الملطخة بالدم، والتف الجميع مذهولين لمشاهدة المعجزة. رسم بعضهم على صدره إشارة الصليب. وجثت إحدى الطاهيات وهي تضم كفيها وقد أصابتها قشعريرة حمى، وراحت تصلي بصمت.

مع ذلك، وبعد أن مضى انفعال المفاجأة، خضنا نقاشاً متشعباً وبأصوات صارخة حول قصور القداسة ومحدوديتها في زمننا. وكان لاكيس هو أكثرنا راديكالية بالطبع. والشيء الوحيد الذي بقي

واضحاً في النهاية هي فكرته عن صنع فيلم نقدي حول موضوع القديسة. وقال:

- إنني واثق من أن سيسر العجوز سيساعدنا على تمرير هذا الموضوع.

وكان يشير بذلك إلى سيسر زافاتيني، أستاذ مادة الفكرة والسيناريو السينمائيين، وأحد العظماء في تاريخ السينما، والأستاذ الوحيد الذي كان يقيم علاقات شخصية معنا على هامش الدراسة في المعهد. لم يكن يتوقف عند محاولة تعليمنا المهنة وحدها، وإنما كذلك طرقاً مختلفة لرؤية الحياة. لقد كان آلة لإبداع أفكار الأفلام السينمائية. وكانت الأفكار تخرج منه متدفقة، ورغماً عنه تقريباً. وكانت تأتيه بسرعة كبيرة، حتى إنه كان يحتاج دائماً لمساعدة أحد كي يلتقط الأفكار منه وهو يفكر بصوت عالٍ. ولكنه ما إن ينتهي من إملاء تلك الأفكار حتى يفقد الحماسة. «من المؤسف أنها ستتحول إلى فيلم»، هكذا كان يقول. فقد كان يرى أن الشاشة تضيع الكثير من سحر أفكاره الأصلي. كان يحتفظ بالأفكار مصنفة في بطاقات حسب موضوعاتها، مثبتة بدبابيس على الجدران. وكان لديه من تلك البطاقات ما يكفي لملء إحدى غرف بيته.

ذهبنا يوم السبت التالي لمقابلته ومعنا مرغريتو دوارتي. كان شرهاً إلى الحياة لدرجة أننا وجدناه عند باب بيته في شارع أنجيلا

ميريسي، يتشوق جزعاً للفكرة التي أخبرناه بها بالهاتف. حتى إنه لم يصافحنا بمودته المعهودة، وإنما قاد مرغريتو إلى منضدة معدة سلفاً، وفتح العلبة بنفسه. حينئذ حدث ما لم نكن نتصوره. فبدلاً من أن يجن جنونه، كما كنا نتوقع، أحس بنوع من الشلل الذهني. ثم همس مذعوراً:

- *Ammazza!*

نظر إلى القديسة بصمت دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم أغلق الصندوق بنفسه، ودون أن يقول شيئاً، قاد مرغريتو إلى الباب، كأنه يقود طفلاً يخطو خطواته الأولى. وودعه مربتاً على ظهره، وقال له: «شكراً يا بني، شكراً جزيلاً. وليكن الرب معك في نضالك». وعندما أغلق الباب، رجع إلينا وأطلعنا على حكمه:

ـ لا تنفع للسينما، لن يصدق أحد الأمر.

وقد رافقنا هذا الدرس المفاجئ في ترام العودة. إذا كان هو قد قال ذلك، فيجب عدم التفكير في الأمر أبداً: القصة لا تنفع. ومع ذلك، استقبلتنا ماريا بيلا برسالة مستعجلة تقول إن زافاتيني سيكون بانتظارنا هذه الليلة بالذات، ولكن دون اصطحاب مرغريتو.

وجدناه في إحدى لحظات تألقه، وكان لاكيس قد أحضر معه اثنين أو ثلاثة من مريديه، ولكنه بدا كأنه لم يرهم حين فتح الباب، وهتف قائلاً:

ـ لقد وجدت الفكرة. سيكون الفيلم قنبلة إذا استطاع مرغريتو تحقيق معجزة بعث الطفلة حية من جديد.

ـ في الفيلم أم في الحياة؟ ـ سألته.

قمع هذه العقبة قائلاً لي: «لا تكن أحمق». ولكننا لمحنا فوراً في عينيه بريق فكرة لا تُقاوم. «لو أنه يستطيع بعثها حية في الحياة الواقعية»، قال ذلك، ثم فكر بجدية:

ـ عليه أن يجرب.

كانت عبارته وسواساً عابراً قبل أن يمسك الخيط ثانية، ثم بدأ يذرع الغرفة مثل مجنون سعيد، محركاً يديه وملقياً علينا أفكار الفيلم بصوت عالٍ. كنا نستمع إليه بذهول كأننا نرى الصور مثل عصافير متألقة تنطلق أفواجاً وتحلق بجنون في كل أنحاء البيت.

ـ في إحدى الليالي ـ قال ـ، بعد أن يكون عشرون بابا قد تبدلوا دون أن يقابلوه، يدخل مرغريتو إلى بيته، متعباً وهرماً، يفتح الصندوق. يداعب وجه الميتة الصغيرة، ويقول لها بكل ما في الدنيا من حنان: «حباً بأبيك يا بنتي: انهضي وامشي».

نظر إلى الجميع، وأنهى كلامه بحركة انتصارية:

ـ فتنهض الطفلة!

كان ينتظر شيئاً منا. ولكننا كنا حائرين إلى حد لم نجد معه ما نقوله، باستثناء لاكيس، اليوناني، الذي رفع يده كما في المدرسة ليطلب الإذن بالكلام.

ـ مشكلتي أنني لا أستطيع تصديق ذلك ـ قال. وأمام ذهولنا، اتجه مباشرة إلى زافاتيني:

ـ اعذرني أيها المعلم، ولكنني لا أصدق حدوث ذلك.

ـ ولماذا؟ ـ وكان زافاتيني هو المذهول عندئذ.

فقال لاكيس مغموماً:

ـ وما أدراني. إنه أمر لا يمكن حدوثه.

حينئذ صرخ المعلم بصوت مدوٍ لا بد أن الحي بأسره سمعه:

ـ *Ammazza!* هذا ما يخوزقني في الستالينيين: إنهم لا يصدقون الواقع.

خلال السنوات الخمس عشرة التالية، وكما روى لي مرغريتو نفسه، حمل القديسة إلى قلعة غاندولفو لعل الفرصة تتاح له لعرضها على البابا. وفي لقاء للبابا مع مئتي حاج من أميركا اللاتينية، تمكن مرغريتو من رواية قصته لقداسة البابا يوحنا الثالث والعشرين، وسط دفع بالأيدي والمرافق، ولكنه لم يستطع أن يعرض عليه الطفلة لأنه اضطر إلى تركها عند المدخل مع أمتعة حجاج آخرين، تحسباً من محاولة اغتيال. وقد استمع البابا إليه بكل الاهتمام المتاح له وسط الحشد الكبير، وربت على خده مشجعاً، وقال له:

ـ أحسنت يا بني. سيكافئ الرب مثابرتك.

ومع ذلك، فإن إحساسه الحقيقي بأنه أصبح على وشك تحقيق

حلمه كان خلال الولاية السريعة للبابا ألبينو لوشياني الباسم. فقد تأثر أحد أقرباء البابا جداً بقصة مرغريتو، ووعده ببذل مساعيه. لم يصدقه أحد. ولكن بعد يومين من ذلك، وبينما هم يتناولون طعام الغداء، اتصل شخص بالنزل لينقل رسالة سريعة وبسيطة إلى مرغريتو: عليه ألا يغادر روما، لأنه سيُستدعى قبل يوم الخميس إلى الفاتيكان من أجل اجتماع خاص مع البابا.

لم يُعرف قط إذا ما كانت تلك المكالمة الهاتفية مجرد مزحة، لكن مرغريتو يعتقد أنها ليست كذلك. وقد بقي على أهبة الاستعداد. لم يعد يخرج من البيت. وإذا اضطر للذهاب إلى المرحاض، كان يعلن بصوت عالٍ: «أنا ذاهب إلى الحمام». فكانت ماريا بيلا الظريفة دائماً، حتى وهي في فجر شيخوختها، تطلق قهقهة امرأة حرة وتصيح:

ـ لقد عرفنا يا مرغريتو، فقد يتصل بك البابا.

في الأسبوع التالي، وقبل يومين من الإشارة الهاتفية المنتظرة، انهار مرغريتو أمام عنوان الصحيفة التي انزلقت من تحت الباب: **مات البابا.** ولم يبقه منتصباً على قدميه للحظة سوى الوهم بأنها جريدة قديمة جاءت عن طريق الخطأ، لأنه لم يكن من السهل التصديق بأن هناك بابا يموت كل شهر. ولكن الأمر كان كذلك فعلاً: فالبابا ألبينو لوشياني، الذي تم اختياره قبل ثلاثة وثلاثين يوماً، مات في سريره فجر ذلك اليوم.

رجعتُ إلى روما بعد اثنتين وعشرين سنة من تعرفي على مرغريتو دوارتي، وربما أنني ما كنت سأفكر فيه لو لم ألتق به مصادفة. فقد كنت متضايقاً جداً بسبب تقلبات الدهر بحيث لم يكن بإمكاني التفكير في أحد. كان يهطل دون توقف رذاذ مطر بليد مثل قطرات حساء دافئ، وكان الضوء الماسي الذي عرفته في أزمنة أخرى قد أصبح معكراً، والأماكن التي كانت لي في ما مضى والتي تسند حنيني أصبحت مختلفة وغريبة عني. والبيت الذي كان فيه النزل مازال على حاله، ولكن ليس هناك من يعرف شيئاً عن ماريا بيلا. وليس هناك من يرد على أي رقم من أرقام الهاتف الستة التي بعث بها إليّ الصادح ريبيرو سيلفا على امتداد تلك السنوات. وفي غداء مع أهل السينما الجدد، استحضرتُ ذكرى أستاذي، فخيم صمت مفاجئ على المائدة لبرهة، إلى أن تجرأ أحدهم على القول:

ـ زافاتيني؟ قديسي الصغير.

وهكذا كان: لم يكن هنالك من سمع به. أشجار جادة بورغيسي كانت مشعثة تحت المطر. ومضمار خيول الأميرات الحزينات التهمه حرج كثيف من شجيرات دون أزهار. وجميلات الأزمنة الغابرة استبدلن برياضيين مخنثين يتنكرون بثياب مانولات. والناجي الوحيد من مملكة حيوانات فانية كان الأسد العجوز، صاخباً ومزكوماً في جزيرته المحاطة بمياه ذاوية. ولم يعد هناك من

يغني أو يموت حباً في الحانات البلاستيكية في ساحة إسبانيا. فروما حنيننا صارت روما قديمة أخرى ضمن روما الأباطرة القديمة. وفجأة، أوقفني في زقاق تراستيفيري صوت يمكن له أن يكون آتياً من الموت:

ـ مرحباً أيها الشاعر.

وكان هو نفسه، عجوزاً ومتعباً. لقد مات خمسة باباوات، وبدأت روما بأسرها تبدي أول أعراض الشيخوخة، وهو مازال ينتظر. «لقد انتظرتُ طويلاً ولم يبق إلا القليل» هذا ما قاله لي عند الوداع، بعد أربع ساعات من أحاديث الحنين. «ربما بضعة شهور فقط». مضى يجر قدميه وسط الشارع، بجزمته الحربية وقبعة الروماني القديم التي بهت لونها، دون أن يهتم ببرك ماء المطر، حيث الضوء نفسه بدأ يتعفن. عندئذ لم يعد يراودني أي شك، هذا إذا كان الشك قد راودني يوماً، بأنه هو نفسه القديس. فهو دون أن يدري، ومن خلال جسد ابنته الذي لا يتفسخ، أمضى اثنتين وعشرين سنة مناضلاً في الحياة من أجل القضية العادلة بتطويبه قديساً.

آب ١٩٨١

طائرة الحسناء النائمة

El avión de la bella durmiente

كانت حسناء، مرنة، ذات بشرتها ناعمة بلون الخبز، والعينان حبتا لوز أخضر، شعرها ناعم وأسود وطويل على الظهر، وهالة عراقة، يمكن أن تكون أندونيسية أو من الأنديز. وكانت تلبس بذوق مرهف: سترة كتان بيضاء، وبلوزة حرير طبيعي مزينة برسوم أزهار فاتحة جداً، وبنطال كتان خام، وحذاء مستو له لون أزهار البوغامبليا. «هذه هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي»، فكرتُ وأنا أراها تمر بخطوات لبوة رشيقة، بينما كنت أقف في الدور لإجراءات الصعود إلى طائرة نيويورك، في مطار شارل ديغول بباريس. كانت طيفاً خارقاً للطبيعة ظهر برهة واحدة واختفى وسط الحشد في البهو.

كانت الساعة التاسعة صباحاً. وكان الثلج يهطل منذ الليلة السابقة، وحركة المرور أشد كثافة من المعتاد في شوارع المدينة، وأبطأ بكثير على الطريق السريع إلى المطار، وكانت هناك شاحنات مصطفة إلى جانب الطريق، وسيارات يتصاعد منها البخار تحت الثلج. أما في بهو المطار بالمقابل، فكانت الحياة لا تزال ربيعاً.

كنت أقف في طابور التسجيل وراء عجوز هولندية، ظلت مدة ساعة تقريباً تجادل حول وزن حقائبها الإحدى عشرة. وكنت قد بدأت أشعر بالملل حين رأيت الطيف المفاجئ الذي حبس أنفاسي، وهكذا لم أعرف كيف انتهت المجادلة، إلى أن أنزلتني الموظفة من السحاب بعبارة تأنيب على شرودي. وعلى سبيل الاعتذار، سألتها إن كانت تؤمن بالحب من النظرة الأولى. فقالت لي: «أجل، بالطبع. أما الغراميات المستحيلة فهي الأخرى». أبقت بصرها مثبتاً على شاشة الكمبيوتر، وسألتني أي مكان أفضل: مع المدخنين أم غير المدخنين.

ـ لا فرق عندي ـ قلت لها بتعمد كامل ـ على ألا أكون إلى جانب الإحدى عشرة حقيبة.

فشكرتني بابتسامة تجارية دون أن ترفع بصرها عن الشاشة المتألقة. ثم قالت لي:

ـ اختر رقماً: ثلاثة، أو أربعة، أو سبعة.

ـ أربعة.

وكان لابتسامتها وميض انتصاري حين قالت:

ـ خلال خمس عشرة سنة من عملي هنا، أنت أول شخص لا يختار الرقم سبعة.

سجلت على بطاقة الصعود إلى الطائرة رقم المقعد وسلمتني إياها مع بقية أوراقي وهي تنظر إليّ أول مرة بعينين لهما لون العنب

كانتا عزائي ريثما أرى الحسناء ثانية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أن المطار قد أغلق للتو، وأن جميع الرحلات قد تأجلت.

- إلى متى؟

- إلى أن يشاء الله - قالت بابتسامتها - لقد أعلنت الإذاعة صباح اليوم أنه سيكون أعظم هطول للثلج خلال السنة.

لقد أخطأوا. فقد كان الأعظم خلال القرن. أما في قاعة انتظار الدرجة الأولى، فكان الربيع واقعياً لدرجة أن هناك أزهاراً في الأصص، وحتى الموسيقى المعلبة بدت سامية ومهدئة مثلما أراد لها مبدعوها. وفجأة خطر لي أن ذلك المكان هو الملجأ المناسب للحسناء، وبحثت عنها في القاعات الأخرى وأنا أرتعش لجرأتي. لكن معظم الموجودين هناك كانوا رجالاً من الحياة الواقعية، يقرؤون صحفاً بالإنكليزية، بينما زوجاتهم يفكرن في آخرين وهن يتأملن الطائرات الميتة على الثلج من خلال الواجهات الزجاجية البانورامية، ويتطلعن إلى المصانع الجليدية، وأراضي رُسيه الزراعية الفسيحة التي عاثت بها الأسود خراباً. وبعد منتصف النهار، لم يعد هناك مكان واحد غير مشغول، وأصبح الحر شديداً لا يطاق، فهربت بعيداً كي أتنفس.

رأيت في الخارج مشهداً مرعباً. أناساً من كل الأشكال يملؤون قاعات الانتظار كلها، ويخيمون في الممرات الخانقة، بل على السلالم أيضاً، مستلقين على الأرض مع كلابهم وأطفالهم وأمتعة

سفرهم. فقد كان الطريق إلى المدينة مقطوعاً، وكان قصر البلاستيك الشفاف ذاك يبدو أشبه بمركبة فضائية ضخمة متوقفة وسط العاصفة. ولم استطع تفادي التفكير في أنه لا بد للحسناء من أن تكون أيضاً في مكان ما وسط تلك القطعان الوديعة. وبث في هذا الخاطر حماسة جديدة للانتظار.

كنا قد وعينا في ساعة الغداء وضعنا كغرقى. فوقفت طوابير بلا نهاية أمام مطاعم وكافتيريات وبارات المطار السبعة الممتلئة. وبعد أقل من ثلاث ساعات أُغلقت جميعها لأنه لم يعد لديها ما تقدمه للأكل أو الشرب. أما الأطفال الذين بدا لنا لبعض الوقت أنه لا وجود لأحد في العالم سواهم، فقد راحو يبكون معاً في وقت واحد، وبدأت تتصاعد من الجموع رائحة القطيع. لقد كان وقت الغرائز. والشيء الوحيد الذي تمكنت من أكله وسط تدافع الناس هو آخر كأسين من مثلجات الكريم في دكان للأطفال. أكلتهما بتمهل وأنا جالس إلى الكونتوار، بينما النُدل يضعون الكراسي فوق المناضد كلما نهض الزبائن عنها. وكنت أنظر إلى نفسي في المرآة التي قبالتي، وأنا أمسك كأس المثلجات الأخير والملعقة الكرتونية الأخيرة، وأفكر في الحسناء.

رحلة نيويورك التي كانت مقررة في الحادية عشرة صباحاً، انطلقت في الثامنة ليلاً. وعندما تمكنت أخيراً من الصعود إلى الطائرة، كان مسافرو الدرجة الأولى قد احتلوا أماكنهم، فقادتني

إحدى المضيفات إلى مكاني. وقفت وقد كتمت الدهشة أنفاسي. ففي المقعد المجاور، وإلى جانب النافذة، كانت الحسناء تستولي على المكان المخصص لها بخبرة الرحالة المجربين. وفكرت: «إذا ما كتبت عن هذا الأمر يوماً فلن يصدقه أحد». وبصعوبة بالغة حاولت أن أوجه إليها بلساني المعقود تحية خجولة لم تسمعها.

لقد استقرت في مكانها وكأنها ستعيش فيه سنوات طويلة. كانت تضع كل شيء في مكانه بنظام، إلى أن صار المكان مرتباً كالبيت المثالي، حيث كل شيء في متناول اليد. وفيما هي تفعل ذلك، جاءنا الضابط المسؤول عن الركاب بكأس شمبانيا للترحيب. تناولت كأساً لأقدمه إليها، ولكنني ندمت فوراً. فقد كانت تريد كأس ماء فقط. ثم طلبت من الضابط بإفرنسية سليمة أولاً، ثم بإنكليزية لا تقل طلاقة، بألا يوقظها لأي سبب طوال الرحلة. كان صوتها الرصين والدافئ يجرجر في طياته حزناً شرقياً.

عندما جاؤوها بالماء، فتحت فوق ركبتيها علبة زينة ذات زوايا نحاسية، مثل صناديق الجدات، وأخرجت قرصي دواء ذهبيين من علبة تحتوي أقراصاً أخرى متعددة الألوان. وكانت تفعل كل شيء بمنهجية ووقار، كما لو أنه ليس هناك شيء غير محسوب لديها منذ ولادتها. وأخيراً أنزلت ستارة النافذة، وفتحت مسند المقعد إلى أقصاه، وتدثرت بالبطانية حتى نصفها دون أن تخلع حذاءها، ووضعت على وجهها قناع النوم، واضطجعت على المقعد بجنبها، فصار ظهرها باتجاهي، ونامت دون لحظة تمهل واحدة، دون زفرة

واحدة، ودون أي تبديل في وضعها، طوال الثماني ساعات الأبدية والاثنتي عشرة دقيقة الإضافية التي استغرقتها الرحلة إلى نيويورك.

لقد كانت رحلة مشحونة. فأنا الذي آمنت دائماً بأنه لا وجود في الطبيعة لما هو أجمل من امرأة جميلة، كان من المستحيل عليّ أن أفلت لحظة واحدة من سحر تلك المخلوقة الخارجة من قصة خرافية، والنائمة إلى جانبي. لقد اختفى الضابط عن الأنظار فور إقلاعنا، وحلت محله مضيفة ديكارتية حاولت أن توقظ الحسناء لتقدم لها علبة أدوات تجميل وسماعتي الموسيقى. كررتُ على مسامعها التحذير الذي كانت قد وجهته هي نفسها إلى الضابط، لكن المضيفة أصرت على أن تسمع منها بالذات أنها لا تريد تناول العشاء. وكان على الضابط أن يؤكد لها الأمر، لكنها وبختني مع ذلك لأن الحسناء لم تعلق في عنقها قطعة الورق المقوى التي تشير إلى رغبتها في عدم إيقاظها.

تناولت عشائي وحيداً، وكنت أقول بصمت كل ما كنت سأقوله لها لو أنها كانت مستيقظة. كان نومها هادئاً إلى الحد الذي شعرت معه بالقلق في إحدى اللحظات من أن يكون القرصان اللذان تناولتهما للموت وليس للنوم. وقبل تناول كل رشفة من مشروبي كنت أرفع كأسي:

ـ نخب صحتك أيتها الحسناء.

أطفؤوا الأنوار بعد انتهاء العشاء، وعرضوا الفيلم على لا أحد.

وبقينا نحن الاثنين في ظلمة العالم. كانت أكبر عاصفة عرفها القرن قد انقضت، وكان ليل الأطلسي فسيحاً ونظيفاً، وبدت الطائرة كأنها ثابتة بين النجوم. عندئذ تأملتها شبراً شبراً طوال عدة ساعات، وكانت علامة الحياة الوحيدة التي استطعتُ ملاحظتها هي ظلال الأحلام التي تمر فوق جبهتها، مثلما تمر ظلال الغيوم فوق الماء. كانت تعلق في عنقها سلسلة ناعمة جداً، تكاد تكون غير مرئية فوق بشرتها الذهبية، وكانت أذناها تامتين، بلا ثقوب للأقراط، وأظفارها بلون الصحة الجيدة الوردي، وخاتم أملس في يدها اليسرى. ولأنها لم تكن قد تجاوزت العشرين كما بدا لي، فقد واسيت نفسي بأنه ليس سوى خاتم خطوبة عابرة وسعيدة. وفكرت: «أن أعرف أنك نائمة، حقيقية، أكيدة، مسيل مأمون من الهجران، خط نقي، قريبة جداً من ذراعيّ المكبلتين»، ورحت أكرر في ذروة نشوة الشمبانيا سونيتة خيراردو دييغو المحكمة هذه. بعد ذلك أنزلت مسند مقعدي إلى مستوى مسند مقعدها، وأصبحنا مستلقيين وقريبين أحدنا من الآخر أكثر مما لو كنا في سرير زوجي. كان جو تنفسها هو جو صوتها ذاته، وكانت بشرتها تطلق بخاراً خفيفاً لا يمكن له أن يكون إلا الرائحة الخاصة بجمالها. بدا لي الأمر غير معقول: ففي الربيع السابق، كنت قد قرأت رواية بديعة للكاتب ياسوناري كاواباتا عن المسنين البرجوازيين في كيوتو الذين يدفعون مبالغ مالية طائلة لقضاء الليل في تأمل فتيات المدينة وهن عاريات ومنوّمات، بينما هم يحتضرون حباً في السرير نفسه: لا

يستطيعون إيقاظهن ولا لمسهن، بل إنهم لا يحاولون ذلك، لأن جوهر تلك اللذة هو في رؤيتهن نائمات. وفي تلك الليلة، بينما أنا أسهر على إغفاءة الحسناء، لم أفهم ذلك الصفاء الشيخوخي وحسب، وإنما عشته بكل أبعاده.

ـ من سيصدق ذلك ـ قلت لنفسي بحبٍ للذات هيجته الشمبانيا أنا، عجوز ياباني على هذه الارتفاعات؟

أظن أنني نمت عدة ساعات، مهزوماً تحت وطأة الشمبانيا وومضات الفيلم الصامت، واستيقظت وأنا أشعر أن رأسي قد تصدع. ذهبت إلى دورة المياه، وورائي بمقعدين كانت ترقد عجوز الإحدى عشرة حقيبة وقد فرشخت ساقيها على المقعد بطريقة مقززة جداً. كانت تبدو كأنها ميت مهجور في أرض المعركة. وكانت نظارة قراءتها ملقاة على الأرض في منتصف الممر، فاستمتعت لبرهة بالسعادة البائسة لأني لم ألتقطها لها عن الأرض.

بعد أن فرّجت عن نفسي من الإفراط في الشمبانيا، فوجئت برؤية نفسي في المرآة. كنت قبيحاً وشنيعاً. وقد أدهشني أن تكون آثار الحب رهيبة إلى هذا الحد. وفجأة راحت الطائرة تهوي، ثم ما لبثت أن استوت بقدر ما استطاعت، وواصلت طيرانها متقافزة كخبب الجياد. أضيء أمرُ العودة إلى المقاعد. فخرجت فزعاً ومتوهماً بأن اضطرابات الرب وحدها هي القادرة على إيقاظ الحسناء، وأنه لا بد لها حينئذ من أن تلتجئ إلى ذراعي هرباً من

الرعب. وأوشكتُ في تسرعي أن أدوس نظارة العجوز الهولندية، وكان ذلك سيسعدني. لكنني رجعت ثانية، والتقطت النظارة ووضعتها في حضنها، ثم شكرت حظي لأنها لم تختر المقعد رقم أربعة قبلي.

كان نوم الحسناء من النوع الذي لا يُقهر. وعندما استقرت الطائرة في الجو، أحسست برغبة في هزها متذرعاً بأية حجة، لأن الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه في تلك الساعة الأخيرة من الرحلة هو رؤيتها مستيقظة، حتى وإن كانت غاضبة، كي أتمكن من استعادة حريتي، وربما شبابي كذلك. ولكنني لم أجرؤ على عمل ذلك. وقلت لنفسي باحتقار كبير: «اللعنة! لماذا لم أولد في برج الثور!». ولكنها استيقظت دون مساعدة من أحد في اللحظة التي أضيء فيها إعلان الهبوط، وكانت جميلة ونضرة كما لو أنها نامت في حديقة ورود. وحينئذ فقط انتبهت إلى أن رفاق المقعد في الطائرة، مثل الأزواج القدماء، لا يتبادلون تحية الصباح حين يستيقظون. وهي لم تفعل ذلك أيضاً. نزعت قناع النوم، وفتحت عينيها المتألقتين، ثم أعادت مسند المقعد إلى وضعه الأول، وأزاحت البطانية جانباً، وهزت غرة شعرها الذي يتسرح من تلقاء نفسه وبثقله بالذات، ثم وضعت صندوق أدوات الزينة فوق ركبتيها ثانية، وعملت مكياجاً سريعاً وخفيفاً، وهو ما تطلب منها الوقت المحدد تماماً كي لا تنتظر، إلى أن فُتح باب الطائرة. عندئذ ارتدت سترتها الكتانية، ومرت فوقي تقريباً مع كلمة اعتذار متداولة

بقشتالية صافية من أمريكا اللاتينية، ومضت دون كلمة وداع، ودون أن تشكرني على الأقل لكل ما فعلته من أجل ليلتنا السعيدة، واختفت حتى شمس هذا اليوم في أمازون نيويورك.

حزيران ١٩٨٢

بائعة الأحلام

Me alquilo para sonar

في الساعة التاسعة صباحاً، وبينما نحن نتناول الفطور على شرفة فندق ريفيرا هافانا، وجه البحر لطمة رهيبة في وضح النهار رفعت عن الأرض عدة سيارات كانت تسير على جادة الكورنيش العريضة، أو تقف على الرصيف، وارتطمت إحداها بأحد جوانب الفندق. كان ذلك أشبه بانفجار ديناميت زرع الرعب في طوابق المبنى العشرين، وحوّل واجهة البهو الزجاجية إلى فتات. السائحون العديدون الذين كانوا في قاعة الانتظار آنذاك انقذفوا في الهواء مع الأثاث، وأصيب بعضهم بجروح من وابل الزجاج المتطاير. لا بد أنها كانت موجة هائلة، لأن شارعاً عريضاً ذا اتجاهين يفصل بين الحاجز البحري والفندق. ومع ذلك، فإن الموجة قد اجتازته، وبقي لديها ما يكفي من القوة لتحطيم واجهة الفندق الزجاجية.

المتطوعون الكوبيون الفرحون، وبمساعدة رجال الإطفاء، جمعوا كل الحطام والفتات في أقل من ست ساعات، وأغلقوا بوابة الفندق المطلة على البحر وهيؤوا واحدة غيرها، وعاد كل

شيء إلى حالته المعهودة. لم يهتم أحد في ذلك الصباح بالسيارة التي بقيت ملتصقة بالجدار، فقد ظن الجميع أنها إحدى السيارات التي كانت متوقفة على الرصيف. ولكن عندما أخرجتها الرافعة من الكوة التي أحدثتها في الجدار، اكتشفوا وجود جثة امرأة مقيدة بحزام الأمان في مقعد السائق. وقد كانت الضربة قوية إلى حد لم يبق معه في جسمها عظم واحد سليم. كان وجهها مهشماً، وحذاؤها مفتقاً، وثيابها ممزقة، وكان في إصبعها خاتم ذهبي له شكل أفعى عيناها من الزمرد. وقد تحققت الشرطة من أنها مدبرة بيت السفير البرتغالي الجديد. وبالفعل، كانت قد وصلت إلى هافانا مع السفير وزوجته قبل خمسة عشر يوماً. وقد خرجت في ذلك الصباح إلى السوق وهي تقود السيارة الجديدة. لم يكن اسمها يعني أي شيء لي حين قرأت الخبر في الصحف، ولكنني بقيت بالمقابل مشوشاً بسبب الخاتم الذي له شكل أفعى عيناها من الزمرد. ولم أستطع أن أعرف مع ذلك في أي إصبع كانت تضعه.

وقد كان ذلك الأمر التفصيلي حاسماً، لأني كنتُ أخشى أن تكون امرأة لا يمكنني نسيانها، ولم أعرف اسمها الحقيقي قط، كانت تضع خاتماً مماثلاً في سبابتها اليمنى، وكان هذا النوع من الخواتم أكثر ندرة في ذلك الحين. لقد تعرفت عليها قبل أربع وثلاثين سنة في فيينا، حين كنتُ آكل السجق وأشرب بيرة البراميل في حانة يرتادها الطلاب اللاتينيون. وكنت قد وصلت من روما في ذلك الصباح، ومازلت أذكر الانطباع الفوري الذي خلفه في نفسي

صدرها الرائع والفسيح الذي يشبه صدر مغنٍ صوته من أعلى الطبقات، وذيول الثعالب الخامدة على ياقة معطفها، وذاك الخاتم المصري الذي له شكل أفعى. بدا لي أنها النمساوية الوحيدة على الطاولة الخشبية الطويلة، وذلك بسبب لغتها القشتالية البدائية التي تتكلمها دون أن تتنفس وبلكنة خردواتية. ولكن لا، لم تكن نمساوية. فقد ولدت في كولومبيا، وسافرت إلى النمسا في فترة ما بين الحربين حين كانت ما تزال طفلة تقريباً، كي تدرس الموسيقى والغناء. وكان عمرها يوم عرفتها نحو ثلاثين سنة من الحياة السيئة، فهي لم تكن جميلة في يوم من الأيام، وقد بدأت تشيخ قبل أوانها. ولكنها كانت بالمقابل كائناً إنسانياً أخاذاً. وأحد أكثر الكائنات رهبة أيضاً.

كانت فيينا ما تزال في ذلك الحين مدينة إمبراطورية قديمة، وكان موقعها الجغرافي بين العالمين اللذين خلفتهما الحرب الثانية دون إمكانية للمصالحة بينهما، قد حوّلها إلى جنة السوق السوداء والجاسوسية العالمية. ولم أستطع تخيل أجواء أكثر ملاءمة لمواطنتي الهاربة تلك التي ما زالت تأكل في حانة الناصية الطلابية لمجرد الوفاء لأصولها وحسب، ذلك أنها تملك من الموارد ما يكفي لشراء الحانة وكل من فيها من الندماء نقداً. لم تخبر أحداً باسمها الحقيقي قط، وكنا نعرفها دائماً باسم جرماني يصعب النطق به اخترعه لها الطلاب اللاتينيون في فيينا: **فراو فريدا**. وما كادوا يعرفونني عليها حتى انقدتُ للبلاهة السعيدة وسألتها عما فعلته حتى

استطاعت تثبيت نفسها بتلك الطريقة الراسخة في ذلك العالم البعيد جداً والمختلف تماماً عن صخور الرياح في موطنها كينديو، فردت علي بعبارة أشبه بالصفعة:

- إنني أبيع الأحلام.

وكان ذلك هو عملها الوحيد حقاً. لقد كانت الابنة الثالثة بين أحد عشر ابناً لكاتب حسابات ناجح عند كالداس القديم، ومنذ تعلمت نطق الكلام فرضت على البيت العادة الحميدة برواية الأحلام على الريق، وهي الساعة التي تكون فيها قدرتها على الحدس لا تزال تحتفظ بنقائها. وعندما كانت في السابعة من عمرها حلمت أن سيلاً قد جرف أحد أخوتها. وبسبب معتقدات دينية خرافية محضة، منعت الأم الطفل من أحب الأشياء إليه، ألا وهو السباحة في الوادي. لكن فراو فريدا كانت تملك نظاماً خاصاً للتكهن، فقالت لأمها:

- هذا الحلم لا يعني أنه سيغرق، بل يعني أنه يجب ألا يأكل حلوى.

إن هذا التفسير بحد ذاته يبدو فضيحة عندما يكون المقصود به طفلاً في الخامسة من عمره لا يمكنه العيش دون حلوياته الخاصة بيوم الأحد. ولكن الأم المقتنعة بقدرات ابنتها التنبؤية جعلت الطفل يحترم الإنذار بقبضة قاسية. وعند أول سهو منها، اختنق الصغير بكرة من السكاكر كان يأكلها خلسة، ولم يكن إنقاذه ممكناً.

لم تكن فراو فريدا تفكر في أنه يمكن لقدرتها تلك أن تتحول إلى مهنة، إلى أن جرتها الحياة مرغمة، من عنقها، في شتاءات فيينا القاسية. عندئذ طرقت باب أول بيت أعجبها لتطلب عملاً تعيش منه، وعندما سألوها عما تستطيع عمله، قالت الحقيقة وحدها: «الأحلام». وكان شرحاً قصيراً قدمته لسيدة البيت كافياً لقبولها، وبراتب لا يكاد يكفي لنفقاتها الصغرى، ولكن مع غرفة جيدة وثلاث وجبات، وخاصة وجبة الفطور، لأنه الوقت الذي كانت تجلس فيه الأسرة كلها لتعرف القدر اليومي لكل واحد من أفرادها: الأب الذي كان مستثمراً راقياً؛ والأم: امرأة سعيدة ومولعة بموسيقى الحجرة الرومنسية، وطفلين أحدهما في الحادية عشرة والآخر في التاسعة. وكانوا جميعهم متدينين، وميالين في الوقت نفسه إلى الإيمان بالخرافات القديمة. وقد استقبلوا فراو فريدا مبتهجين، وكان التزامها الوحيد هو الكشف عن القدر اليومي للأسرة من خلال الأحلام.

وقد قامت بهذا العمل على خير وجه لزمن طويل، وخاصة في سنوات الحرب، حين كان الواقع أشد شؤماً من الكوابيس. وكانت هي وحدها التي تقرر في موعد الفطور العمل الذي يجب أن يقوم به كل واحد منهم في ذلك اليوم، وكيف عليه أن يؤديه، إلى أن أصبحت تنبؤاتها هي السلطة الوحيدة في البيت. لقد فرضت سيطرتها المطلقة على الأسرة؛ حتى إن أدنى نفس كان يتم بأمر منها. وفي أيام وجودي في فيينا مات رب تلك الأسرة، وقد تلطف

بأن أوصى لها بجزء من ثروته، وبشرط وحيد هو أن تواصل الحلم لأفراد الأسرة حتى نهاية الأحلام.

بقيتُ في فيينا أكثر من شهر، كنتُ أشاطر الطلاب خلاله حياة الضنك، وأنتظر نقوداً لم تصل قط. وقد كانت زيارات فراو فريدا المفاجئة والسخية للحانة في ذلك الحين أشبه بالأعياد في نظام حياتنا المدقع فقراً. وفي إحدى تلك الليالي، في بهجة تناول البيرة، همست في أذني باقتناع لا يسمح بأي إضاعة للوقت.

ـ لقد جئت فقط لأقول لك إني حلمت بك الليلة الماضية. عليك أن تغادر فيينا فوراً ولا تعود إليها في السنوات الخمس القادمة.

كان اقتناعها واقعياً جداً حتى إنني غادرت في تلك الليلة بالذات، في القطار الأخير المتوجه إلى روما. ومن جهتي، بقيت موهوماً، وصرت أعتبر نفسي منذ ذلك الحين ناجياً من كارثة لم أعرف حقيقتها على الإطلاق. ولم أرجع إلى فيينا حتى الآن.

قبل حدوث كارثة هافانا كنت قد التقيت بفراو فريدا في برشلونة، وبطريقة غير متوقعة ومصادفة بدت لي سحرية. حدث ذلك يوم وطأ فيه بابلو نيرودا أرض إسبانيا لأول مرة منذ الحرب الأهلية، خلال توقفه القصير في رحلة بطيئة إلى بالبارايسو. لقد أمضى الصباح معنا في الصيد من مكتبات الكتب القديمة، واشترى من مكتبة بورتير كتاباً قديماً، ممزق الغلاف ومهترئاً، دفع ثمنه ما

يعادل راتب شهرين في عمله القنصلي في رانغون. كان يتحرك بين الناس مثل فيل مقعد، وباهتمام طفلي بالآلية الداخلية لكل شيء، فقد كان العالم يبدو له دمية ضخمة تتحرك بنابض، وبه تُبتدع الحياة.

لم أعرف أحداً أشد منه شبهاً بالفكرة الراسخة لدينا عن أحد باباوات عصر النهضة: شره ورقيق. وقد كان هو دائماً، ولو مكرهاً، من يترأس المائدة. وكانت زوجته ماتيلدي تضع على صدره مريلة تبدو أقرب إلى مريلة الحلاق منها إلى فوطة المطعم، ولكنها الطريقة الوحيدة للحيلولة دون أن يلوث نفسه بالصلصات. وقد كان نموذجياً في ذلك اليوم في مطعم كاربابيرا. فقد أكل ثلاث سرطانات كركند كاملة كان يقطعها بمهارة جراح، وكان في الوقت نفسه يلتهم بنظره أطباق الجميع، ويلتقط شيئاً من كل واحد منها بتلذذ يصيب من حوله بعدوى الرغبة في أكل: محار غاليسيا، وبلح البحر الكانتبري، واربيان أليكانتي، واسبارديني كوستا برافا. وفي أثناء ذلك، ومثلما يفعل الفرنسيون، لا يتحدث إلا عن لذائذ المطبخ، وخاصة الحيوانات البحرية الخرافية في تشيلي التي كان يحملها في قلبه. وفجأة توقف عن الأكل، وشحذ قرون استشعار السرطان البحري التي يملكها، وقال لي بصوت خافت جداً:

ـ هناك شخص ورائي لا يتوقف عن النظر إليّ.

تطلعتُ من فوق كتفه، وكان ما قاله صحيحاً. فوراء ظهره،

وعلى بعد ثلاث طاولات، كانت هناك امرأة جريئة تضع قبعة قديمة من اللبد ولفاع عنق بنفسجي اللون، تمضغ ببطء وعيناها مثبتتان عليه. تعرفتُ عليها فوراً. كانت هرمة وبدينة، لكنها هي نفسها، وكان خاتم الأفعى في إصبعها السبابة.

كانت قادمة من نابولي على السفينة نفسها التي يسافر فيها نيرودا وزوجته، ولكنهم لم يلتقوا على متن السفينة. دعوناها لتناول القهوة على طاولتنا، ودفعتُها للحديث عن أحلامها كي أفاجئ الشاعر. ولكنه لم يُبد أي اهتمام، فقد أعلن منذ البداية أنه لا يؤمن بتنبؤات الأحلام. وقال:

ـ الشعر وحده هو البصيرة.

بعد الغداء، وأثناء النزهة التي لا بد منها في شارع رمبلاس، تأخرتُ عن الجماعة متعمداً مع فراو فريدا كي نستعيد ذكرياتنا بعيداً عن أسماع الآخرين. وأخبرتني أنها باعت ممتلكاتها في النمسا، وأنها تعيش متقاعدة في بورتو بالبرتغال، في بيت وصفته لي بأنه مثل قلعة مزيفة فوق هضبة ترى منها المحيط كله حتى أميركا. وقد اتضح لي من خلال الحديث، دون أن تقول ذلك مباشرة، أنها بالانتقال من حلم إلى حلم، انتهت إلى الاستيلاء على ثروة أسيادها في فيينا. لم أتأثر بالأمر مع ذلك، لأني كنت أفكر على الدوام بأن أحلامها لم تكن أكثر من حيلة للعيش. وقد قلت لها ذلك.

فأطلقت قهقهتها التي لا تُقاوَم وقالت لي: «مازلت جريئاً جداً

كعادتك». ولم تقل شيئاً آخر، لأن بقية الجماعة كانوا قد توقفوا ينتظرون انتهاء نيرودا من التحدث بلكنته التشيلية مع ببغاوات شارع رمبلا الطيور. وعندما أكملنا حديثنا، بدلت فراو فريدا الموضوع. ـ بالمناسبة. يمكنك أن تعود الآن إلى فيينا ـ قالت لي.

عندئذ فقط انتبهت إلى أن ثلاث عشرة سنة قد مضت منذ تعارفنا.

ـ لن ارجع إليها مطلقاً ـ قلت لها ـ، حتى وإن كانت أحلامك مزيفة، فمن يدري.

في الساعة الثالثة انفصلنا عنها لنرافق نيرودا إلى قيلولته المقدسة. وقد نامها في بيتنا بعد بعض الإجراءات المهيبة التي تُذكِّر في بعض جوانبها بطقوس الشاي في اليابان. فقد كان لا بد من فتح بعض النوافذ وإغلاق أخرى لتكون درجة الحرارة مضبوطة بدقة وليتوفر نوع معين من الضوء في اتجاه معين، وصمت مطبق. وقد نام نيرودا على الفور، واستيقظ بعد عشر دقائق. مثلما يستيقظ الأطفال في الوقت الذي لا يخطر لنا على بال. جاء إلى الصالة المكيفة حسب رغبته وشعار الوسادة مطبوع على وجنته.

ـ لقد حلمتُ بتلك المرأة التي تحلم ـ قال.

أرادت ماتيلدي أن يروي لها الحلم. فقال:

ـ حلمتُ بأنها كانت تحلم بي.

ـ هذا لبورخيس ـ قلت له.

فتطلع إليّ بخيبة أمل:

ـ هل كتبه؟

ـ إذا كان لم يكتبه بعد فسوف يكتبه يوماً. وسيكون واحدة من متاهاته ـ قلت.

ودعنا نيرودا فور صعوده إلى السفينة، وجلس إلى طاولة منزوية، وبدأ كتابة أشعار متدفقة بقلم الحبر الأخضر الذي كان يرسم به أزهاراً وأسماكاً وعصافير عند إهداء كتبه. وعندما أطلقت السفينة صفارة الاستعداد الأولى بحثنا عن فراو فريدا، ووجدناها أخيراً على السطح المخصص للسائحين حين كنا على وشك مغادرة السفينة دون وداعها. وكانت هي قد استيقظت من قيلولتها قبل قليل أيضاً.

ـ لقد حلمت بالشاعر ـ قالت لنا.

فطلبت منها وأنا مذهول أن تروي لنا الحلم.

ـ حلمتُ بأنه يحلم بي ـ وحين قالت ذلك بدا عليها الارتباك أمام نظراتي الذاهلة، وواصلت كلامها قائلة:ـ ماذا تريد؟ قد يتسرب بين الأحلام الكثيرة أحياناً حلم لا تكون له أية علاقة بالحياة الواقعية.

لم أعد لرؤيتها أو السؤال عنها إلى أن عرفت بقصة الخاتم الذي له شكل أفعى، والذي كانت تضعه المرأة الميتة في حادث فندق ريفيرا هافانا. ولهذا لم أستطع مقاومة الإغراء بسؤال السفير

البرتغالي عنها حين التقينا معاً، بعد عدة شهور، في حفل استقبال دبلوماسي. حدثني السفير عنها بحماسة شديدة وتقدير كبير. قال لي: «لا يمكنك أن تتصور كم كانت استثنائية. ولو أنك عرفتها لما كان بإمكانك مقاومة إغراء كتابة قصة عنها» وواصل بالنبرة ذاتها الحديث عن تفاصيل مذهلة، ولكن دون أي أثر يتيح لي الوصول إلى نتيجة حاسمة.

وأخيراً طلبت منه شيئاً محدداً:

ـ ما الذي كانت تفعله بالضبط؟

فقال السفير بشيء من خيبة الأمل:

ـ لا شيء. كانت تحلم.

آذار ١٩٨٠

«جئت لأتكلم في الهاتف فقط»

"Sólo vine a hablar por teléfono"

في مساء يوم أمطار ربيعية غزيرة، وبينما كانت ماريا دلا لوث ثرفنتيس تقود سيارة مستأجرة وتسافر باتجاه برشلونة، تعرضت سيارتها لعطل طارئ في صحراء مونخيروس. كانت مكسيكية في السابعة والعشرين من عمرها، جميلة وجدية، وقد حققت قبل سنوات شيئاً من الشهرة كممثلة منوعات خفيفة. وهي الآن متزوجة من ساحر ألعاب خفة صالونات، وكانت ذاهبة في ذلك اليوم للقائه بعد أن قامت بزيارة أقارب لها في مدينة سرقسطة. وبعد ساعة من إشارات يائسة لإيقاف السيارات والشاحنات التي تمر مسرعة في العاصفة، أشفق عليها سائق حافلة مهترئة. والحقيقة أنه نبهها إلى أنه لن يذهب بعيداً جداً.

ـ ليس مهماً ـ قالت ماريا ـ. الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه هو هاتف.

وكان ذلك صحيحاً. وكانت تحتاج إليه لتخبر زوجها فقط، بأنها لن تستطيع الوصول قبل الساعة السابعة ليلاً. كانت تبدو

كعصفور مبلل وهي ترتدي معطف طلاب وتنتعل حذاء لشاطئ البحر في شهر نيسان. وكانت مشوشة جداً بسبب محنتها، حتى إنها نسيت أن تأخذ المفاتيح من سيارتها. المرأة التي كانت تجلس بجوار السائق، ذات المظهر العسكري، إنما رقيقة المعاملة، قدمت لها منشفة وبطانية، وأفسحت لها مكاناً إلى جانبها. بعد أن نشفت ماريا نفسها قدر الإمكان، جلست ولفت جسمها بالبطانية، وحاولت أن تشعل سيجارة، لكن أعواد الثقاب كانت مبللة. قدمت لها جارتها في المقعد ناراً وطلبت منها واحدة من السجائر القليلة التي ظلت جافة. وبينما هي تدخن، استسلمت ماريا للرغبة في التفريج عن نفسها، فرن صوتها أعلى من صوت المطر وهدير الحافلة. فقاطعتها المرأة بوضع سبابتها على شفتيها، وتمتمت:

ـ إنهن نائمات.

تطلعت ماريا من فوق كتفها، ورأت أن الحافلة ممتلئة بنساء من أعمار لا يمكن التحقق منها، وبهيئات مختلفة، وكن ينمن وهن يلتحفن بطانيات مماثلة لبطانيتها. انتقلت عدوى سكينتهن إليها، فتكورت في المقعد وغادرتْ صوت المطر. عندما استيقظت كان الظلام قد خيم، وكان وابل المطر قد تحول إلى سكون ثلجي. لم تكن لديها أدنى فكرة عن المدة التي نامتها ولا في أي مكان من العالم هي. وكانت جارتها في المقعد تتخذ وضع التأهب.

ـ أين نحن؟ ـ سألتها ماريا.

ـ لقد وصلنا ـ أجابت المرأة.

كانت الحافلة تدخل إلى فناء مرصوف بالحجارة في بناء هائل وقاتم، يبدو كأنه دير قديم في غابة أشجار عملاقة. المسافرات اللواتي ظهرن قليلاً تحت ضوء مصباح الفناء الشاحب، بقين في أماكنهن إلى أن جعلتهن المرأة ذات المظهر العسكري ينزلن بنوع من الأوامر البدائية، كما في روضة أطفال. جميعهن كن متقدمات في السن، وكن يتحركن ببطء شديد في عتمة الفناء، كما لو أنهن صور في حلم. وفكرت ماريا التي كانت الأخيرة في النزول بأنهن راهبات. لكن فكرتها تلك ما لبثت أن تراجعت حين رأت عدة نساء يرتدين زياً موحداً يستقبلن القادمات عند باب الحافلة، ويغطين رؤوسهن بشراشف كي لا يتبللن، ثم يجعلونهن في رتل أحادي، ويوجهنهن دون التحدث إليهن، بتربيتات إيقاعية وحازمة. وبعد أن ودّعت ماريا جارتها في المقعد، أرادت أن تعيد إليها البطانية، لكن المرأة قالت لها إنه يمكنها أن تغطي بها رأسها لكي تجتاز الفناء وتسلمها هناك إلى البواب.

ـ هل أجد هناك هاتفاً؟ ـ سألتها ماريا.

ـ بالطبع ـ قالت المرأة ـ هناك سيخبرونك أين تجدينه.

ثم طلبت من ماريا سيجارة أخرى، فقدمت لها كل ما تبقى في العلبة المبللة قائلة لها: «في الطريق ستجف». لوحت لها المرأة

بيدها مودعة وهي تقف على سلم الحافلة، ثم صاحت: «حظاً سعيداً». وانطلقت الحافلة دون أن تتيح لها الوقت لقول المزيد.

راحت ماريا تركض نحو مدخل المبنى. حاولت إحدى الحارسات إيقافها بتربيتة قوية على ظهرها، لكنها ما لبثت أن اضطرت إلى إطلاق صيحة متسلطة: «قلت لك توقفي!». نظرت ماريا من تحت البطانية، ورأت عينين جليديتين وإصبعاً لا يقبل الاستئناف يشير لها بالانضمام إلى الرتل الطويل. أطاعت الأمر. وفي دهليز المبنى انفصلت عن الجماعة وسألت البواب أين يوجد هاتف. فأعادتها إحدى الحارسات إلى الصف بتربيتة خفيفة على ظهرها وهي تقول لها:

ـ من هنا يا جميلتي، من هنا يوجد هاتف.

واصلت ماريا السير مع النساء الأخريات في ممر مظلم، ثم دخلت أخيراً إلى مهجع نوم جماعي، حيث جمعت الحارسات الأغطية من النساء وبدأن بتوزيعهن على الأسرّة. جاءت امرأة مختلفة، بدت لماريا أكثر إنسانية وذات مرتبة عالية، واستعرضت الصف وهي تقارن بين قائمة في يدها وأسماء النساء اللواتي وصلن للتو، المكتوبة على قطعة كرتون مخيطة إلى صدورهن. وعندما وصلت إلى ماريا فوجئت بعدم وجود بطاقة على صدرها.

ـ أنا جئت لأتكلم في الهاتف فقط ـ قالت لها ماريا.

وأوضحت لها بأقصى سرعة أن سيارتها قد تعطلت في الطريق.

وأن زوجها الذي يعمل ساحراً في الحفلات، ينتظرها في برشلونة لينجزا معاً ثلاثة التزامات عمل قبل منتصف الليل، وأنها تريد أن تخبره بأنها لن تستطيع الوصول في الموعد المناسب للذهاب معه. كانت الساعة تقترب من السابعة، وهو سيخرج من البيت خلال عشر دقائق، وهي تخشى أن يلغي كل الالتزامات بسبب تأخرها. بدا على الحارسة أنها تستمع إليها باهتمام. ثم سألتها:

ـ ما اسمك؟

أخبرتها ماريا باسمها وهي تطلق تنهيدة فرج، ولكن المرأة لم تجد الاسم بعد أن راجعت القائمة عدة مرات. فسألت عن ذلك إحدى الحارسات بذعر، ولم تجد هذه ما تقوله سوى هز كتفيها.

ـ المسألة هي أنني جئت لأتكلم في الهاتف فقط ـ قالت ماريا.

فقالت لها المسؤولة وهي تقودها نحو سريرها بعذوبة مبالغ فيها بصورة لا يمكن لها معها أن تكون واقعية:

ـ لا بأس يا جميلتي. إذا كنت طيبة يمكنك التحدث بالهاتف مع من تريدين. ولكن ليس الآن... غداً.

حينئذ حدث شيء في ذهن ماريا جعلها تدرك السبب الذي جعل نساء الحافلة يتحركن كما لو أنهن في قعر حوض مائي. الحقيقة أنهن كن خامدات بالمهدئات، وذلك القصر الغارق في الظلال، بجدرانه الحجرية السميكة وأدراجه الجليدية، هو في الواقع مستشفى نسائي للأمراض العقلية. استولى عليها الذعر،

وركضت هاربة من مهجع النوم، وقبل أن تصل إلى الباب تلقفتها حارسة عملاقة ترتدي أفرهول ميكانيكي، وثبتتها على الأرض بحركة مصارعة بارعة. نظرت ماريا إليها متوسلة وقد شلّها الرعب.

ـ حباً بالرب ـ قالت ـ أقسم لك بأمي الميتة أنني جئت لأتكلم في الهاتف فقط.

وكان يكفيها رؤية وجه الحارسة لتعرف أنه ليس هناك توسل ممكن أمام تلك المرأة الممسوسة ذات الأفرهول التي يدعونها «هرقلة» بسبب قوتها الهائلة. كانت المسؤولة عن الحالات الصعبة، وقد ماتت سجينتين بذراعها التي تشبه ذراع دب قطبي، والمدربة على فنون القتل غير المتعمد. عملية القتل الأولى صُنفت كحادث موصوف. أما الثانية فكانت أقل وضوحاً، وقد تم توبيخ هرقلة وتحذيرها بأنها ستخضع لتحقيق معمق في المرة القادمة. والرواية الشائعة تقول إن تلك النعجة الضالة التي تنتمي إلى أسرة ذات ألقاب كبيرة، لها تاريخ حافل بحوادث مشبوهة في عدة مصحات للأمراض العقلية في إسبانيا.

لكي تنام ماريا في الليلة الأولى اضطروا إلى حقنها بمُنوِّم. وعندما أيقظتها الرغبة في التدخين قبل الفجر، وجدت نفسها مقيدة من معصميها وكاحليها إلى السرير. ولم يأت أحد على صراخها. وفي الصباح، حين لم يكن زوجها في برشلونة قد وجد أي أثر لها، اضطروا إلى نقلها إلى عيادة الإسعاف لأنهم وجدوها فاقدة الحواس في مستنقع بؤسها.

لم تدر كم من الوقت مضى عليها حين استعادت رشدها. ولكن الدنيا كانت حينئذ بركة حُبٍّ راكدة، ورأت قبالة سريرها عجوزاً أثرياً، يدب على باطن قدميه ويبتسم ابتسامة مستقرة، أعاد إليها سعادة الحياة بقاعدتين بارعتين. كان ذلك هو مدير المصحة.

قبل أن تقول له شيئاً، وحتى دون أن تسلم عليه، طلبت منه ماريا أن يعطيها سيجارة. قدم لها واحدة مشتعلة، وأهدى إليها العلبة الممتلئة تقريباً. لم تستطع ماريا عندئذ أن تمنع نفسها من البكاء.

ـ انتهزي الفرصة الآن وابكي مثلما تريدين ـ قال لها الطبيب بصوت مُنوِّم ـ فليس هناك علاج أفضل من الدموع.

فضفضت ماريا عن نفسها دون حياء، ومثلما لم تستطع أن تفعل مطلقاً مع عشاقها العابرين في ضجر ما بعد ممارسة الحب. وبينما الطبيب يستمع إليها، راح يُسرح شعرها بأصابعه، ويسوي وضع الوسادة كي تتنفس بصورة أفضل، ويقودها في متاهة ترددها بحكمة وعذوبة لم تحلم بمثلهما قط. لقد تحققت، أول مرة في حياتها، أعجوبة أن تجد رجلاً يتفهمها ويصغي إليها بكل جوارحه دون أن يأمل بمضاجعتها مقابل ذلك. وبعد أكثر من ساعة الفضفضة المعمقة، طلبت منه أن يسمح لها بالتكلم إلى زوجها بالهاتف.

نهض الطبيب بكل وقار مكانته. وقال مربتاً على خدها بأرق طريقة عرفتها في حياتها: «ليس الآن أيتها الملكة. كل شيء في

وقته». أومأ لها وهو عند الباب بمباركة أسقفية، وقال قبل أن يختفي إلى الأبد:

- ثقي بي.

في ذلك اليوم بالذات، تم تسجيل ماريا في الملجأ برقم متسلسل مع تعليق سطحي حول لغز أصلها والشكوك حول هويتها. وعلى الهامش تشخيص للحالة مكتوب بيد المدير وخطه: اهتزاز في الشخصية.

ومثلما توقعت ماريا، فقد خرج زوجها من شقته المتواضعة في حي هورتا متأخراً نصف ساعة لكي ينجز ثلاثة التزامات عمل. وكانت تلك هي أول مرة تتخلف فيها عن موعد محدد منذ سنتين تقريباً من زواجهما الحر والمنسجم، وقد عزا تأخرها إلى شدة الأمطار التي عاثت خراباً بالإقليم كله في نهاية ذلك الأسبوع. وقبل أن يخرج من البيت علق لها على الباب ملحوظة أوضح فيها برنامجه لتلك الليلة.

في حفلته الأولى، بين أطفال متنكرين جميعهم بهيئة كناغر، استغنى عن أهم ألعابه السحرية، وهي لعبة الأسماك غير المرئية، لأنه لا يستطيع أداءها دون مساعدة زوجته. وكان الالتزام الثاني في بيت امرأة مسنة، في الثالثة والتسعين، تجلس على مقعد ذي عجلات، وتفاخر بأنها احتفلت بكل واحد من أعياد ميلادها الثلاثين الأخيرة بحضور ساحر مختلف في كل مرة. وقد كان

مضطرباً بسبب تأخر ماريا لدرجة أنه لم يستطع التركيز على أبسط ألعابه. أما الالتزام الثالث فكان عمله المعهود كل ليلة في أحد مقاهي رامبلاس، حيث عرض دون إلهام أمام مجموعة من السياح الفرنسيين لم يستطيعوا تصديق ما يرونه، لأنهم يرفضون الإيمان بالسحر. وبعد كل عرض كان يتصل هاتفياً بالبيت، وينتظر دون أوهام أن ترد عليه ماريا. وفي المكالمة الأخيرة، لم يعد قادراً على كبح قلقه وهواجسه بأن شيئاً سيئاً قد حدث.

في طريق عودته إلى البيت بالشاحنة الصغيرة المعدلة من أجل العروض العامة، رأى بهاء الربيع في نخيل شارع باسيو دي غراسيا، وهزته الفكرة المشؤومة: كيف يمكن أن تكون المدينة دون ماريا. وقد تلاشى الأمل الأخير عندما وجد رسالته ما تزال معلقة على الباب. وكان مشوشاً إلى حد نسي معه تقديم الطعام للقط.

الآن فقط، بينما أنا أكتب، انتبهت إلى أنني لم أعرف اسمه الحقيقي قط، لأننا كنا نعرفه في برشلونة باسمه المهني فقط: ساتورنو الساحر. كان رجلاً غريب الأطوار، به بلادة اجتماعية لا يمكن تخليصه منها. ولكن لمسة الظرافة التي تنقصه، كانت موجودة بوفرة عند ماريا. وكانت هي التي تقوده من يده في مجتمع الأسرار الكبيرة ذاك، حيث لا يخطر ببال أحد أن يتصل بأحد هاتفياً بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته. لقد فعل ساتورنو ذلك

مرة بعيد قدومه إلى المدينة، وهو لا يريد أن يتذكر الأمر. وهكذا اكتفى في تلك الليلة بالاتصال بسرقسطة، حيث ردّت عليه، دون إحساس بالذعر، جدة نصف نائمة وأخبرته بأن ماريا قد غادرتهم بعد الغداء. لم ينم إلا ساعة واحدة عند الفجر. ورأى حلماً موحلاً بدت فيه ماريا بثوب زفاف ممزق وملطخ بالدم، واستيقظ على يقين مرعب بأنها قد هجرته وتركته وحيداً من جديد، وإلى الأبد هذه المرة، في العالم الرحب دونها.

لقد فعلت ذلك من قبل ثلاث مرات، ومع ثلاثة رجال مختلفين، هو واحد منهم، خلال السنوات الخمس الأخيرة. فقد هجرته في مدينة مكسيكو بعد ستة شهور من تعارفهما، وحين كانا يحتضران من السعادة في غرام مجنون في مستوطنة أنثوريس. وفي صباح أحد الأيام اختفت ماريا من البيت بعد ليلة من الغراميات المريعة. تركت أشياءها كلها، بما في ذلك خاتم زفافها السابق، ورسالة تقول فيها إنها لم تعد قادرة على العيش تحت وطأة تعذيب ذلك الحب المحموم. وظن ساتورنو أنها قد رجعت إلى زوجها الأول الذي كان زميلاً لها في المدرسة الثانوية، وتزوجت منه سراً لأنها كانت لا تزال دون السن القانونية، وقد هجرته إلى آخر بعد سنتين خاليتين من الحب. ولكن لا، لم يكن الأمر كذلك: فقد رجعت إلى بيت والديها. وذهب ساتورنو إليها ليعيدها بأي ثمن. توسل إليها دون شروط، ووعدها بأكثر مما يستطيع تحقيقه بكثير، ولكنه اصطدم بقرار لا رجعة عنه، إذ قالت له: «هناك غراميات

طويلة الأجل وغراميات قصيرة الأجل». ثم أضافت دون رحمة: «وقد كان هذا حباً قصير الأجل». فاستسلم أمام صلابتها. مع ذلك، وفي صباح عيد جميع القديسين، عند عودته إلى غرفته كيتيم بعد سنة من النسيان تقريباً، وجدها نائمة على الأريكة في الصالة، بإكليل من أزهار الليمون، وبفستان العروس ذي الأذيال المتموجة الطويلة.

أخبرته ماريا بالحقيقة. فخطيبها الجديد، وهو أرمل لا أولاد له، حياته مستقرة ومستعد للزواج الأبدي في الكنيسة الكاثوليكية، تخلى عنها وهي تنتظره بثياب الزفاف عند المذبح. وقد قرر أبوها إقامة الحفلة رغم كل شيء. وسايرت هي اللعبة، فرقصت وغنت مع الموسيقيين، وشربت أكثر مما تتحمل، ومضت عند منتصف الليل بحثاً عن ساتورنو وهي في حالة رهيبة من الندم المتأخر.

لم تجده في البيت، ولكنها وجدت المفتاح في أصيص الأزهار الذي في الممر، حيث كانا يتركانه دائماً. وكانت هي التي استسلمت له دون شروط في تلك المرة. فسألها: «وإلى متى ستبقين الآن؟». فردت عليه بسطر من أشعار فينيسيوس دي مورايس: «الحب أبدي ما دام موجوداً». وبعد انقضاء سنتين كان الحب لا يزال أبدياً.

بدا كأن ماريا قد نضجت. فقد تخلت عن أحلامها في التمثيل وكرست نفسها له وحده، سواء في العمل معه أو في الفراش. وفي

أواخر السنة الماضية كانا قد حضرا مؤتمراً للسحرة في بربينيان، وتعرفا على برشلونة وهما في طريق العودة. وقد أعجبتهما المدينة لدرجة أنه مضى عليهما فيها ثمانية شهور، وكانت أمورهما على ما يرام، فقد اشتريا شقة في حي لاهورتا الكتلاني جداً والصاخب الذي لا بوابين فيه. كانت الشقة واسعة تكفي لإنجاب خمسة أبناء. وكانت السعادة ممكنة، حتى جاءت نهاية الأسبوع تلك، حين استأجرت سيارة وذهبت لزيارة أقارب لها في سرقسطة بعد أن وعدته بأنها ستعود في السادسة من مساء يوم الاثنين. وعندما أشرقت شمس يوم الخميس، لم تكن قد أظهرت ما يدل على أنها ما زالت على قيد الحياة.

وفي يوم الاثنين من الأسبوع التالي، اتصلت شركة تأمين السيارة المستأجرة هاتفياً بالبيت لتسال عن ماريا. فقال لهم ساتورنو: «لا أعرف شيئاً. ابحثوا عنها في سرقسطة». وأغلق الخط. بعد أسبوع من ذلك، جاء شرطي بملابس مدنية إلى البيت ليقول إنهم وجدوا السيارة على الهيكل، في طريق فرعية بالقرب من قادش، على بعد تسعمئة كيلومتر من المكان الذي تركتها فيه ماريا. وكان ساتورنو حينئذ يقدم الطعام للقط، ولم يكد ينظر إلى الشرطي إلا ليطلب منه، دون مواربة، أن لا يضيع وقته، لأن زوجته قد هربت من البيت وهو لا يعرف مع من ولا إلى أين. وكانت قناعته بذلك راسخة حتى إن الشرطي أحس بالحرج وطلب منه المعذرة على إزعاجه بالأسئلة. وهكذا أُغلق ملف القضية.

كانت الظنون قد راودت ساتورنو بأن ماريا قد هجرته مرة أخرى يوم فصح القيامة في كاداكيس، حيث دعتهما روسا ريغاس للإبحار في زورق شراعي. كنا يومذاك في بار ماريتيم المكتظ والصاخب بجماعات الغاوتشي ديفينا في خريف الفرانكية. وحول طاولة معدنية محاطة بكراسٍ معدنية تكاد لا تتسع لستة أشخاص، كنا أكثر من عشرين شخصاً. وبعد أن استنزفت ماريا علبة السجائر الثانية في تلك الجلسة، وجدت نفسها دون ثقاب. فامتدت ذراع نحيلة يغطيها زغب رجولي ويحيط بها سوار نحاسي روماني، وشقت طريقها بين الحشد الملتف حول الطاولة، وقدمت لها ناراً. شكرته ماريا دون أن تنظر من يكون، لكن ساتورنو رآه. كان مراهقاً نحيفاً وأمرد، به شحوب ميت وله ذيل من الشعر الأسود الفاحم يصل حتى خصره. وكان زجاج الباب يكاد لا يتحمل غضب ريح الشمال الربيعية، بينما كان هو يرتدي نوعاً من بيجامات الخروج إلى الشارع مصنوعة من القطن الخام، وينتعل نعل فلاح خشبياً.

لم يرياه ثانية حتى أواخر الخريف، في أحد مطاعم المأكولات البحرية في حي برشلونيتا، وكان يرتدي الثياب القطنية نفسها، وله جديلة طويلة بدلاً من ذيل الشعر السابق. سلّم عليهما كصديقين قديمين، وبسبب الطريقة التي قبّل بها ماريا، والطريقة التي ردّت عليه بها، ألهبت ساتورنو الشكوك بأنهما كانا يلتقيان سراً. وبعد عدة أيام وجد بالمصادفة اسماً جديداً ورقم هاتف سجلتهما ماريا في دفتر أرقام الهاتف المنزلي، وكشف له وضوح الغيرة الذي لا

يرحم عمن يكون ذلك الاسم وذلك الرقم. وقد جاءت المذكرة الاجتماعية عن الدخيل لتجهز عليه نهائياً: اثنتان وعشرون سنة، ابن وحيد لأسرة ثرية، فنان ديكور متخصص في تزيين واجهات محلات الأزياء، يقال إنه مخنث، وله شهرة راسخة كوسيط في استئجار سيدات متزوجات. لكن ساتورنو استطاع التماسك حتى الليلة التي لم تعد فيها ماريا إلى البيت. عندئذ بدأ يتصل به هاتفياً كل يوم، في البداية كل ساعتين أو ثلاث ساعات، منذ السابعة صباحاً وحتى فجر اليوم التالي، ثم صار يتصل بالرقم كلما وجد هاتفاً في متناول يده. وقد ضاعف من عذاباته أن أحداً لم يكن يرد على الهاتف.

وفي اليوم الرابع ردّت عليه امرأة أندلسية كانت تقوم بتنظيف البيت فقط. وقد قالت له بغموض كبير أثار جنونه: «السيد خرج». ولم يستطع ساتورنو مقاومة الإغراء وسؤالها عما إذا كانت الآنسة ماريا موجودة.

فقالت له المرأة:

- لا تسكن هنا أية ماريا. السيد عازب.

- أعرف ذلك - قال لها .. لا أقصد أنها تسكن في البيت، ولكنها تأتي إليه أحياناً، أليس كذلك؟

فانتفضت المرأة صارخة:

- ولكن، من الكونيو الذي يتكلم؟

أغلق ساتورنو الهاتف. وبدا له ردّ المرأة السلبي دليلاً آخر على ما لم يعد مجرد شكوك بالنسبة إليه، وإنما هو يقين متأجج. فقد السيطرة على نفسه. وفي الأيام التالية اتصل بجميع معارفهما في برشلونة، حسب التسلسل الأبجدي. لم يقدم له أحد منهم جواباً شافياً، ولكن كل مكالمة كانت تزيد من تعاسته، لأن هذيانات غيرته صارت مشهورة بين ساهري ***غاوتشي ديفينا*** المتمادين، فكانوا يردون على مكالماته بأية دعابة تزيد من عذابه. وعندئذ فقط أدرك كم هو وحيد في تلك المدينة الجميلة والمجنونة والمغلقة التي لا يمكنه أن يكون سعيداً فيها. وفي الفجر، بعد أن قدم الطعام للقط، ضغط على قلبه كي لا يموت، واتخذ القرار بنسيان ماريا.

بعد شهرين من ذلك، لم تكن ماريا قد اعتادت على حياة المصحة بعد. وكانت تقيم أودها بلقيمات قليلة من وجبات السجن تتناولها بأدوات طعام مربوطة بسلاسل إلى المنضدة الخشبية الضخمة، ونظرها مثبت على صورة للجنرال فرانثيسكو فرانكو تتصدر قاعة طعام العصور الوسطى الكئيبة. كانت تقاوم الساعات في أول الأمر بروتينها البليد في صلوات الفجر، والمدائح، وتراتيل التاسوع، وطقوس كنسية أخرى تشغل بها معظم وقتها. كانت ترفض اللعب بالطابة في فناء البهو أو العمل في مشغل الأزهار الاصطناعية التي توليها بعض النزيلات اهتماماً معتوهاً. ولكنها منذ الأسبوع الثالث بدأت تندمج شيئاً فشيئاً في حياة الدير

تلك. وكان الأطباء يقولون إنهن جميعهن يبدأن هكذا، ثم ينتهي بهن الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى الاندماج في الجماعة.

تمكنت من حلّ مشكلة افتقادها السجائر في الأيام الأولى من خلال إحدى الحارسات التي كانت تبيعها بسعر الذهب، لكن المشكلة عادت تعذبها حين نفد المال القليل الذي بحوزتها. فارتضت بعد ذلك سجائر ورق الجرائد التي تصنعها بعض السجينات من أعقاب يجمعنها من القمامة، ذلك أن تسلط التدخين على عقلها يضاهي بشدته تسلط الهاتف. لكن البيزتات القليلة التي أصبحت تكسبها في ما بعد من صنع الأزهار الاصطناعية وفرت لها الفرج اليومي.

أقسى ما كانت تعانيه هو الوحدة في الليل، سجينات كثيرات كن يبقين مستيقظات مثلها في الظلام، ولكن دون أن يجرؤن على عمل أي شيء، لأن الحارسة الليلية كانت تسهر كذلك وراء البوابة المقفلة بسلسلة وقفل. ومع ذلك، وبينما كان الحزن يثقل على ماريا في إحدى الليالي، سألت بصوت يمكن لجارتها في السرير المجاور أن تسمعه:

- أين نحن؟

فأجابها صوت جارتها المهيب والواضح:

- في أعماق الجحيم.

وقال صوت آخر بعيد رن في أجواء المهجع:

ـ يقولون إن هذه أرض الموريسكيين ويجب أن يكون قولهم صحيحاً، ففي الصيف، حين يكون هناك قمر، يُسمع صوت الكلاب وهي تنبح على البحر.

سُمع صوت سحب السلسلة من حلقات البوابة مثل صوت مرساة سفينة غاليون ضخمة، ثم فُتح الباب، وراحت الحارسة التي بدت أنها المخلوق الوحيد الحي في الصمت الفوري، تتمشى من أحد جانبي المهجع إلى الجانب الآخر. أحست ماريا بالذعر، وكانت هي وحدها التي تعرف سبب ذعرها.

فمنذ أسبوعها الأول في المصحة، عرضت عليها الحارسة الليلية، دون مواربة، أن تنام معها في غرفة الحراسة. بدأت ذلك بالحديث عن صفقة محددة: مبادلة الحب بالسجائر، بالشوكولاته، بكل شيء. وقالت لها وهي ترتعش: «ستنالين كل شيء. ستكونين الملكة». وأمام رفض ماريا، بدّلت الحارسة من أسلوبها. كانت تترك لها رسائل حب تحت الوسادة، وفي جيوب ثوبها، وفي أماكن لا تخطر على بال. وكانت رسائل ضيق مؤثرة يمكنها أن تحرك الحجر. ومنذ أكثر من شهر، بدت كما لو أنها استسلمت للهزيمة، إلى أن كانت الليلة التي جرت فيها حادثة المهجع.

عندما تأكدت الحارسة من أن كل السجينات نائمات، اقتربت من سرير ماريا، وراحت تهمس في أذنها بكل أنواع البذاءات الرقيقة وهي تقبل وجهها، وعنقها المتجمد من الرعب، وذراعيها المتيبستين، وساقيها المنهوكتين. وأخيراً، وربما لأنها اعتقدت أن

شلل ماريا لم يكن بسبب الرعب وإنما الرضا، تجرأت على المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. فوجهت إليها ماريا عندئذ لطمة بظاهر كفها أطاحت بها إلى السرير المجاور. نهضت الحارسة حانقة هائجة وسط الضجة التي أثارتها السجينات بصخبهن، وصرخت:

ـ يا بنة القحبة. سنتعفن معاً في هذه الحظيرة إلى أن تصبحي مجنونة بي.

جاء الصيف دون إعلان مسبق، في يوم الأحد الأول من شهر حزيران، وكان لا بد من اتخاذ إجراءات طوارئ، لأن السجينات المختنقات من الحر بدأن بخلع الغفارات الصوفية أثناء القداس. وقد رأت ماريا بمتعة ومرح مشهد المريضات العاريات والحارسات اللواتي يطفن بينهن مثل دجاجات عمياء في ممرات الكنيسة. ووسط تلك الفوضى، حاولت أن تحمي نفسها من الضربات التي كانت توجه كيفما اتفق، ولم تدر كيف وجدت نفسها وحيدة في مكتب مهجور، فيه هاتف يكرر رنيناً متوسلاً. تناولت ماريا السماعة دون تفكير، وسمعت صوتاً بعيداً وضاحكاً يتسلى بتقليد خدمات الساعة الناطقة:

ـ الساعة الخامسة والأربعون، واثنتان وتسعون دقيقة، ومئة وسبع ثوان.

ـ منيوك! ـ قالت ماريا.

ثم أغلقت الخط بسعادة، وكانت على وشك الخروج حين

انتبهت إلى أنها تتخلى عن فرصة لا تتكرر. حينئذ أدارت القرص على ستة أرقام، باضطراب شديد وسرعة كبيرة لم تكن واثقة معها إن كان ذلك هو رقم بيتها. انتظرت وقلبها يكاد يقفز من مكانه، سمعت الرنين المألوف بإيقاعه الحزين، مرة، مرتين، ثلاث مرات، ثم سمعت أخيراً صوت رجل حياتها في البيت الذي أصبح من دونها.

ـ من؟

وكان عليها أن تنتظر مرور كرة الدموع التي تشكلت في حلقها. ثم تنهدت:

ـ يا أرنبي، يا حياتي.

غلبتها الدموع. وفي الطرف الآخر من الخط ساد الصمت لحظة، ثم انطلق الصوت المتأجج بالغيرة، لينطق الكلمة الوحيدة:

ـ قحبة! ـ وأغلق الهاتف بشدة.

في تلك الليلة، وفي نوبة هستيريا عاتية، انتزعت ماريا في قاعة الطعام صورة الجنراليسمو فرانكو، وألقت بها بكل قوتها إلى الواجهة الزجاجية المطلة على الحديقة، وهوت مغتسلة بدمها. وقد بقي لديها مع ذلك من الغضب ما يكفي لتتصدى بالضرب للسجانات اللواتي أردن إخضاعها، دون أن يتمكنّ من ذلك، إلى أن رأت الهرقلة منتصبة في فراغ الباب وهي تقاطع ذراعيها على صدرها وتنظر إليها. فاستسلمت. ومع ذلك، فقد سحبنها إلى جناح

المجنونات الهائجات، وأخمدنها بماء بارد يتدفق من خرطوم مطاطي، وحقنّها بالتربنتين في ساقيها. وبينما هي عاجزة عن المشي بسبب الالتهابات في ساقيها، أدركت ماريا أنه لا يوجد شيء في العالم تمتنع عن الإقدام عليه في سبيل الهرب من ذلك الجحيم. وفي الأسبوع التالي، حين عادت إلى المهجع الجماعي، نهضت على رؤوس أصابعها وطرقت على زنزانة السجانة الليلية.

الثمن الذي طلبته ماريا مسبقاً هو حمل رسالة إلى زوجها. وافقت السجانة، شرط أن يبقى الاتفاق سراً مطلقاً. وأشارت لها بسبابة لا ترحم:

ـ إذا كشفت السر يوماً، ستموتين.

وهكذا ذهب ساتورنو الساحر إلى مصح المجنونات يوم السبت التالي بشاحنة السيرك التي أعدها للاحتفال بعودة ماريا. استقبله المدير شخصياً في مكتبه النظيف والمرتب كنظافة وترتيب سفينة حربية، وقدم له تقريراً مؤثراً عن وضع زوجته: لا أحد يعرف من أين أتت، ولا كيف ولا متى. فالمعلومات الأولى عن دخولها المصح هي السجل الرسمي الذي أملاه هو نفسه عندما قابلها. ونتيجة التحقيق الذي بدأ في اليوم ذاته لم يتوصل إلى شيء. وكان أكثر ما شغل اهتمام المدير هو معرفة الطريقة التي عرف بها ساتورنو بمكان زوجته. لكن ساتورنو حمى السجانة.

ـ أخبرتني بذلك شركة تأمين السيارة المستأجرة ـ قال.

هز المدير رأسه مقتنعاً وقال: «لا أعرف ما الذي تفعله شركات التأمين كي تعرف كل شيء». ألقى نظرة على الملف الذي كان على منضدته الشبيهة بمنضدة ناسك، وانتهى قائلاً:

ـ الشيء الوحيد المؤكد هو خطورة حالتها.

وأبدى استعداده للسماح له بزيارتها مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة إذا وعده ساتورنو الساحر، من أجل مصلحة زوجته، بالتصرف حسبما يشير عليه. وخاصة في طريقة معاملتها، لتفادي إصابتها بنوبة من نوبات غضبها التي أخذت تتزايد وتصبح أكثر خطورة.

ـ غريب! لقد كانت عصبية دائماً، ولكنها تتحكم بنفسها جيداً ـ قال ساتورنو.

أومأ الطبيب إيماءة عالم وقال: «هناك أنواع من السلوك تبقى كامنة لسنوات طويلة، ثم تنفجر فجأة. ومع ذلك، فهي محظوظة لأنها وقعت هنا، لأننا اختصاصيون بالحالات التي تحتاج لقبضة قوية». ثم أشار أخيراً إلى فكرة الهاتف الغريبة المتسلطة على عقل ماريا، وقال له:

ـ سايرها.

فقال ساتورنو بمباهاة سعيدة:

ـ اطمئن يا دكتور. هذا من اختصاصي.

كانت قاعة الزيارة مزيجاً من السجن وقاعة الاعتراف، وقد

كانت غرفة المحادثات في الدير سابقاً. لم يكن دخول ساتورنو هو انفجار السعادة الذي يمكن لكليهما أن ينتظراه. كانت ماريا تقف في وسط القاعة، إلى جانب منضدة صغيرة ومقعدين ومزهرية دون أزهار. كان واضحاً أنها مستعدة للذهاب معه بمعطفها المحزن الذي له لون الكرز، وحذاء متسخ قدموه لها كصدقة. وفي أحد الأركان، كانت تقف هرقلة، بصورة غير مرئية تقريباً، وهي تقاطع ذراعيها فوق صدرها. لم تتحرك ماريا وهي ترى زوجها يدخل، ولم يبد أي تأثر على وجهها الذي كانت آثار جروح الزجاج بادية عليه. تبادلا قبلة روتينية. وسألها:

ـ كيف حالك الآن؟

ـ سعيدة لأنك جئت أخيراً يا أرنبي. لقد عانيت الموت ـ قالت.

لم يكن لديهما متسع من الوقت للجلوس. فقد حدثته وهي تختنق بالدموع عن بؤس الدير، وبربرية الحارسات، وطعام الكلاب، وليالي الأرق الطويلة من الرعب. ثم قالت:

ـ لم أعد أعرف كم يوماً أو شهراً أو سنة مضى عليّ هنا. لكنني أعرف أن كل يوم كان أسوأ من سابقه ـ ثم أضافت وهي تطلق زفرة من أعماق روحها: ـ أظن أنني لن أعود أبداً لأكون الإنسانة التي كنتها من قبل.

فقال وهو يداعب بأطراف أصابعه آثار الجروح الحديثة في وجهها:

ـ لقد انقضى ذلك كله. سأواظب على المجيء كل سبت. وفي أيام أخرى إذا سمح المدير بذلك. وسترين كيف أن كل شيء سينتهي على ما يرام.

تطلعت إليه بعينيها المذعورتين. فاستعان ساتورنو بفنونه التي يستخدمها في الصالونات. حدثها بلهجة طفولية عذبة عن تلك الأكاذيب الكبيرة، والرواية المهذبة لتنبؤات الطبيب، وانتهى إلى القول لها: «باختصار، ما زلتِ بحاجة إلى بضعة أيام أخرى كي تستردي عافيتك تماماً».

فأدركت ماريا الحقيقة، وقالت بذهول:

ـ بالله عليك يا أرنبي! لا تقل لي إنك قد صدقت أنني مجنونة!

ـ كيف يخطر ببالك شيء كهذا ـ قال وهو يحاول الضحك ـ كل ما في الأمر هو أنه من المناسب للجميع أن تبقى هنا لبعض الوقت. وفي ظروف أفضل بالطبع.

ـ ولكنني أخبرتك بأنني جئت لأتكلم بالهاتف فقط! ـ قالت ماريا.

لم يدرِ كيف يتصرف حيال الفكرة المرعبة المتسلطة على عقلها. نظر إلى هرقلة. فانتهزت هذه الفرصة لتقول له بإيماءة إلى ساعة معصمها إن وقت الزيارة قد انتهى. أحست ماريا بالإشارة، فالتفتت إلى الخلف، ورأت هرقلة مستعدة للهجوم الفوري. عندئذ تشبثت بعنق زوجها وهي تصرخ كمجنونة حقيقية. أبعدها عنه بكل

ما يستطيعه من حب، وتركها تحت رحمة هرقلة التي انقضَّت عليها من الخلف، دون أن تتيح لها الوقت للإتيان بأي رد فعل. طبقت عليها حركة مفتاح مصارعة بيدها اليسرى، ثم أطبقت بذراعها الحديدية الأخرى على عنقها، وصرخت بساتورنو الساحر:

ـ انصرف الآن!

وهرب ساتورنو مذعوراً.

ولكنه في يوم السبت التالي كان قد تخلص من رعب الزيارة، فعاد إلى المصح وقد ألبس القط مثل ملابسه: بدلة شبكية حمراء وصفراء كبدلة ليوناردو العظيم، وقبعة ساحر عالية، وعباءة كبيرة جداً كأنها للطيران. ودخل بشاحنته الصغيرة المزركشة إلى فناء السجن، وقدم هناك عرضاً مدهشاً استمر نحو ثلاث ساعات، استمتعت به السجينات من خلال نوافذهن بصرخات شاذة وهتافات لا تتناسب مع الموقف. جميعهن كن موجودات، باستثناء ماريا التي لم ترفض مقابلة الزوج وحسب، بل رفضت أن تراه من الشرفة أيضاً وهو يقدم عرضه. أحس ساتورنو بأنه أصيب بجرح قاتل. فقال له المدير مواسياً:

ـ هذا ردّ فعل طبيعي. سينقضي في ما بعد.

لكنه لم ينقض أبداً. فبعد محاولات كثيرة لرؤية ماريا، عمل ساتورنو المستحيل لجعلها تستلم رسالة منه، ولكن دون جدوى. فقد أعادتها إليه أربع مرات وهي لا تزال مغلقة، دون أي تعليق

منها. وأخيراً أذعن ساتورنو للأمر، لكنه واظب على إحضار حاجتها من السجائر إلى بواب المستشفى، دون أن يدري إذا كانت تصل إلى ماريا، وبقي على تلك الحال إلى أن هزمه الواقع.

لم يُعرف شيء عنه بعد ذلك سوى أنه تزوج من جديد ورجع إلى بلاده. وقبل مغادرته برشلونة ترك القط الذي كان يوشك على الموت جوعاً عند إحدى عشيقاته العابرات، وقد وعدته هذه بمواصلة إيصال السجائر إلى ماريا. لكن هذه العشيقة اختفت بدورها. وتذكر روسا ريغاس أنها رأتها في محلات الكورت إنجليس، منذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان رأسها حليقاً وهي ترتدي ثوباً فضفاضاً برتقالي اللون كالذي ترتديه إحدى الطوائف الدينية الشرقية، وكانت حبلى إلى أقصى حدود الحبل. وقد قالت لها إنها واصلت حمل السجائر إلى ماريا، كلما استطاعت ذلك، وكانت تحل لها بعض الأمور المستعجلة الطارئة إلى أن أتى يوم لم تجد فيه سوى أنقاض المستشفى المهدم كذكرى خبيثة من تلك الأزمنة غير المرغوبة. وقد بدت لها ماريا في صحوة جيدة من جنونها يوم التقت بها آخر مرة، وكان وزنها قد ازداد قليلاً، وكانت سعيدة بالأمان الذي تجده في المصح. وفي ذلك اليوم أخذت إليها القط أيضاً، لأن النقود التي تركها لها ساتورنو لإطعامه كانت قد نفدت.

نيسان ١٩٧٨

رعب آب

Espantos de agosto

وصلنا إلى مدينة أريزو قبل انتصاف النهار بقليل، وأضعنا أكثر من ساعتين في البحث عن القلعة التي يرجع تاريخ بنائها إلى عصر النهضة، والتي كان الكاتب الفنزويلي ميغيل أوترو سيلفا قد اشتراها في ذلك المنعطف الشاعري من الريف التوسكاني. كان يوم أحد متقداً وصاخباً في أوائل شهر آب، ولم يكن من السهل العثور على أحد يعرف شيئاً عن القلعة في الشوارع المكتظة بالسياح. وبعد محاولات عديدة غير مجدية رجعنا إلى السيارة، وغادرنا المدينة عبر دروب تحف بها أشجار سرو وليس فيها أية إشارات مرور، وهناك دلتنا راعية إوز عجوز إلى مكان القلعة بالضبط. وقبل أن نودعها سألتنا إذا كنا نفكر في النوم هناك، وأجبناها ـ حسبما كان مقرراً ـ بأننا ذاهبون للغداء فقط.

ـ لحسن الحظ ـ قالت ـ لأن ذلك البيت مرعب.

ولأننا، أنا وزوجتي، لا نؤمن بالأشباح في منتصف النهار، فقد سخرنا من تصديقها الخرافات. أما ابنانا، الأول في التاسعة

والثاني في السابعة من العمر، فقد أسعدتهما فكرة التعرف على شبح حاضر الجسد.

ميغيل أوترو سيلفا الذي كان مضيفاً رائعاً وأكولاً راقياً، فضلاً عن أنه كاتب جيد، كان ينتظرنا بغداء لا يُنسى مدى الحياة. وبسبب تأخرنا في الوصول لم نجد متسعاً من الوقت للتجوال في القلعة ورؤيتها قبل الجلوس إلى المائدة. غير أنه لم يكن هناك ما هو مرعب في مظهرها الخارجي، وكان يمكن لأي قلق أن يتبدد برؤية منظر المدينة كلها من الشرفة المزهرة التي تناولنا الغداء عليها. كان من الصعب التصديق أن تلك التلة التي تتسلقها البيوت، حيث يكاد المجال لا يتسع لتسعين ألف نسمة، قد أنجبت ذلك العدد الكبير من العباقرة الخالدين؛ ومع ذلك، فقد قال لنا ميغيل أوترو سيلفا، بمزاجه الكاريبي إن أياً من أولئك العباقرة لم يحظ بشهرة أوسع من شهرة أريزو.

ثم أصدر حكمه:

ـ أعظمهم هو لودوفيكو.

هكذا، دون ألقاب: لودوفيكو، سيد الآداب والحرب العظيم الذي شيد قلعة نكبته تلك، والذي حدثنا ميغيل أوترو سيلفا عنه طوال الغداء. حدثنا عن سلطاته الواسعة، وعن حبه المتناقض، وعن موته المرعب. روى لنا كيف أنه في لحظة من لحظات جنون القلب، طعن سيدة هواه بخنجر وهي في الفراش الذي مارسا فيه

الحب قبل قليل، ثم استحث كلابه الحربية الشرسة ضد نفسه بالذات، فمزقته بأنيابها إلى لقم صغيرة. وأكد لنا بجدية كبيرة أن شبح لودوفيكو مازال يطوف منذ منتصف الليل في أرجاء البيت محاولاً الحصول على السكين في مطهر حبه.

الحقيقة أن القلعة كانت فسيحة وكئيبة. ولكن قصة ميغيل في وضح النهار، وببطن ممتلئ وقلب سعيد، لم تكن لتبدو أكثر من مزحة أخرى من مزاحه الكثير لإمتاع ضيوفه. كانت الحجرات الاثنتان والثمانون التي تجولنا فيها دون دهشة بعد القيلولة، قد تعرضت لكل أنواع التغيير على يد أسيادها المتعاقبين. وكان ميغيل قد أعاد ترميم الطابق السفلي كاملاً، وأقام فيه غرفة نوم حديثة أرضها من المرمر، ومرافق للساونا والرياضة البدنية، وشرفة الأزهار الكثيفة التي تناولنا الغداء عليها. أما الطابق الثاني، وهو الأكثر استخداماً عبر العصور المتعاقبة، فكان مجرد متوالية من غرف تفتقر إلى شخصية محددة، فيها مفروشات مهجورة من أزمنة مختلفة. وفي الطابق الثالث كانت هناك غرفة محفوظة على حالها، يبدو أن الزمن نسي المرور بها. وكانت تلك الغرفة هي مخدع لودوفيكو.

لقد كانت لحظة ساحرة. فقد كان هناك السرير ذو الستائر المطرزة بخيوط الذهب، وشرشف من أعاجيب المنسوجات الحريرية لا يزال متيبساً بدم العشيقة المقتولة الجاف. وكانت هناك

المدفأة برمادها المتجمد والحطبة الأخيرة التي تحجرت فيها، وخزانة الأسلحة الجاهزة للإطلاق، والصورة الزيتية للفارس الساهم في إطار من الذهب، رسمها أحد معلمي فلورنسا الذين لم يحالفهم الحظ في الخلود. وقد كان أكثر ما أثر فيّ مع ذلك هي رائحة الفريز الطازج الراكدة في أجواء الحجرة دون أي تفسير ممكن.

أيام الصيف في توسكانيا طويلة وبطيئة، والأفق يبقى ثابتاً في مكانه حتى التاسعة ليلاً. عندما انتهينا من مشاهدة القلعة، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، لكن ميغيل أصر على مرافقتنا لمشاهدة جداريات بيروديلا فرانسيسكا في كنيسة القديس فرانشيسكو، ثم تناولنا فنجاناً من القهوة مع محادثة مطولة تحت عرائش الساحة. وحين عدنا لأخذ الحقائب، وجدنا العشاء جاهزاً، وهكذا بقينا لتناول العشاء.

وبينما نحن نفعل ذلك تحت السماء الخبازية ذات النجمة الوحيدة، اخذ الطفلان بعض المشاعل من المطبخ، ومضيا لاستكشاف العتمة في الطوابق العليا. ومن المائدة كنا نسمع وقع خطواتهم على السلم الحجري كوقع حوافر خيول جامحة. وكانت تصل إلى مسامعنا تأوهات الأبواب، وصرخاتهما السعيدة وهما يناديان لودروفيكو في الحجرات المعتمة. وكانا هما صاحبا الفكرة الخبيثة ببقائنا هناك للنوم. وقد أيدهما ميغيل أوترو سيلفا بفرح، ولم تكن لدينا الشجاعة التمدنية لنقول لهما لا.

وعلى عكس ما كنت أخشاه، فقد نمنا نوماً مريحاً جداً، أنا وزوجتي في غرفة نوم في الطابق السفلي، وابناي في الغرفة المجاورة. الحجرتان كلتاهما كانتا معدلتين على الطراز الحديث، ولم يكن فيهما أي شيء قاتم. وبينما كنت أحاول أن أغفو، عددت الدقات المؤرقة الاثنتي عشرة الصادرة عن ساعة البندول في الصالة، وتذكرت تحذير الراعية الرهيب. لكننا كنا متعبين إلى حد نمنا معه بسرعة، في إغفاءة عميقة ومتواصلة، واستيقظت بعد الساعة السابعة على شمس رائعة تنفذ من خلال النباتات المعرشة على النافذة. وكانت زوجتي إلى جانبي تبحر في بحر البريئين الراكد. وقلت لنفسي: «أية حماقة هي إيمان المرء بالأشباح في هذا الزمان». عندئذ فقط هزتني رائحة الفريز المقطوف حديثاً، ورأيت المدفأة برمادها البارد والحطبة الأخيرة المتحجرة فيها، وصورة الفارس الحزين الذي ينظر إلينا عبر ثلاثة قرون في الإطار الذهبي. ذلك أننا لم نكن في غرفة نوم الطابق السفلي حيث نمنا في الليلة السابقة، وإنما في مخدع لودوفيكو، تحت الإفريز والستائر المعبَّرة والشراشف المبللة بالدم الدافئ في فراشه الملعون.

تشرين الأول ١٩٨٠

ماريا دوس براسيريس

María dos Prazeres

وصل مندوب مؤسسة دفن الموتى في موعده بالضبط، وكانت ماريا دوس براسيروس لا تزال بقميص النوم، ورأسها ممتلئ بلفافات الشعر، ولم تكد تجد الوقت الكافي لوضع وردة حمراء على أذنها حتى لا تبدو بمظهر غير مرغوب، كما كانت تشعر. وقد ازداد أسفها على مظهرها حين فتحت الباب ورأت أن الرجل لم يكن كاتباً شرعياً حدادي الهيئة كما كانت تتخيل هيئة تجار الموت، بل كان شاباً خجولاً يلبس سترة مخططة على شكل مربعات، وربطة عنق مزينة بعصافير ملونة. لم يكن يحمل معطفاً على الرغم من ربيع برشلونة المريب بأمطاره ذات الرياح الكاسحة التي تجعله منفراً أكثر من الشتاء. وماريا دوس براسيروس التي اعتادت على استقبال رجال كثيرين في كل الأوقات، أحست بخجل قلما تشعر به. لقد أتمت منذ وقت قريب سبعة وستين عاماً من عمرها، وكانت موقنة من أنها ستموت قبل عيد الميلاد، وعلى الرغم من ذلك، كادت أن تغلق الباب وتطلب من بائع الجنازات أن ينتظر

لحظة ريثما ترتدي ملابسها لتستقبله بما يتناسب ومكانته. لكنها فكرت بعد ذلك في أنه سيتجمد على السلّم المظلم، فدعته إلى الدخول قائلة:

ـ اعذرني على هذا المظهر الخفاشي. لكنني أعيش في كتالونيا منذ أكثر من خمسين سنة، وهذه هي المرة الأولى التي يأتي إليّ بها شخص في الموعد المحدد.

كانت تتكلم لغة كتلانية دقيقة فيها شيء من العراقة، بالرغم من أنه مازالت تظهر في كلامها موسيقى برتغاليتها المنسية. وعلى الرغم من سنوات حياتها ولفافات شعرها السلكية، كانت لا تزال خلاسية نحيفة وخفيفة، ذات شعر قاس وعينين صفراوين شرستين، وكانت قد فقدت الشفقة على الرجال منذ زمن بعيد. أما البائع الذي مازال مبهوراً من ضوء الشارع، فلم ينطق بأي تعليق، وإنما مسح نعل حذائه بحصيرة القنب، وقبّل يدها باحترام.

فقالت له ماريا دوس براسيروس وهي تطلق قهقهة حصوية:

ـ أنت رجل مثل رجال زماني. تفضل واجلس.

وبالرغم من أنه جديد في المهنة، إلا أنه كان يعرف حقيقة مهنته جيداً، بحيث لا يأمل بمثل ذلك الاستقبال الاحتفالي في الساعة الثامنة صباحاً، وخاصة من امرأة مسنة لا ترحم، بدت له للوهلة الأولى أنها عجوز معتوهة هاربة من أمريكا. وهكذا ظل واقفاً على بعد خطوة واحدة من الباب لا يدري ما يقول، بينما

كانت ماريا دوس براسيروس تزيح ستائر القطيفة السميكة عن النوافذ. أضاء بريق نيسان الخفيف الصالة المرتبة التي بدت أشبه بواجهة في محل ثريات. وكانت كل أداة من أدوات الاستخدام اليومي، دون زيادة ولا نقصان، تبدو موضوعة في مكانها الطبيعي، وبذوق صائب تماماً لدرجة يصعب العثور على بيت آخر أفضل ترتيباً في مدينة برشلونة شديدة العراقة والسرية.

ـ أرجو المعذرة. لقد أخطأت في البيت ـ قال.

ـ ليتك تكون كذلك، ولكن الموت لا يخطئ ـ قالت له.

فتح البائع فوق منضدة غرفة الطعام مخططاً مثنياً في طيات كبيرة، مثل سجل إبحار السفن، ومقسم إلى قطع ملونة بألوان مختلفة على كل منها صلبان وأرقام عديدة. وأدركت ماريا دوس براسيروس أنه المخطط الكامل لمقبرة مونجويك الفسيحة. وتذكرت برعب قديم جداً مقبرة ماناوس تحت أمطار تشرين الأول، حيث كانت حيوانات التابير تغوص في الماء الموحل بين جثوات التراب التي لا تحمل أسماء وقبور المغامرين الفخمة ذات الواجهات الفلورنسية. وفي أحد تلك الأيام، وكانت لا تزال طفلة صغيرة جداً، طلع الصباح على الأمازون وقد فاض وطغى على ما حوله متحولاً إلى مستنقع نتن، ورأت يومذاك التوابيت المهشمة تطفو في فناء بيتها وقد علقت في شقوقها نتف من ملابس الموتى وشعورهم. وكانت تلك الذكرى هي السبب الذي جعلها تختار

هضبة مونجويك كي ترقد فيها بسلام، بدلاً من أن تختار مقبرة سان خيرفاسيو الصغيرة والقريبة والمألوفة لديها.

ـ أريد مكاناً لا تصله المياه أبداً ـ قالت.

ـ إنه هنا ـ قال البائع وهو يشير إلى موقع على الخريطة بمؤشر قابل للطي والتمديد كان يحمله في جيبه مثل قلم حبر فولاذي: ـ ليس ثمة بحر يمكنه الصعود إلى هنا.

جالت ببصرها على رقعة المربعات الملونة حتى وجدت المدخل الرئيسي، وهناك كانت القبور الثلاثة المتلاصقة والمتشابهة التي لا أسماء عليها، حيث يرقد يوينا فينتورا دوروتي وقائدان فوضويان آخران ماتوا في الحرب الأهلية. في كل ليلة كان هناك من يكتب الأسماء على الألواح الحجرية البيضاء. كانوا يكتبونها بقلم رصاص، بالدهان، بالفحم، بقلم لتخطيط الحواجب أو بطلاء أظفار، بكامل حروفها وبالترتيب الصحيح. وفي كل صباح كان الحراس يمحون الأسماء كيلا يعرف أحد من هو الذي تحت الرخام الأبكم. كانت ماريا دوس براسيروس قد حضرت جنازة دوروتي، الأكثر حزناً وهياجاً بين كل من عاشوا في برشلونة منذ الأزل، وكانت ترغب في أن ترقد بالقرب من قبره. ولكن لم يكن هناك أي مكان شاغر في المقبرة المكتظة بساكنيها. فكان عليها أن ترضى بما هو ممكن. قالت: «شرط ألا تحشروني في أحد الأدراج مدة خمس سنوات حيث تكون إحدانا كأنها في علبة بريد». ثم تذكرت فجأة الشرط الأساسي الآخر.

ـ وخاصة ـ أكملت ـ، أن تدفنوني مستلقية.

فقد كانت قد سرت، بالفعل، إشاعة تقول إنهم يحفرون قبوراً عمودية للاقتصاد في المكان، وقد جاءت تلك الإشاعة رداً على حملة دعائية صاخبة لبيع القبور بالتقسيط قبل الوفاة. فأوضح لها البائع، بخطبة محفوظة عن ظهر قلب، ومكرورة مرات ومرات، بأن تلك الرواية هي أكذوبة خبيثة أطلقتها مؤسسات دفن الموتى التقليدية للنيل من مصداقية الحملة لتشجيع شراء القبور بالتقسيط، وبينما هو يشرح الأمر، طرق أحدهم الباب ثلاث طرقات مكتومة، فتوقف عن الكلام حائراً، لكن ماريا دوس براسيروس أومأت له بأن يتابع.

ـ لا تقلق ـ قالت بصوت خافت .. إنه نوي.

فأمسك البائع خيط الحديث ثانية، وأحست ماريا دوس براسيروس بالرضا عن التفسير الذي قدمه. ومع ذلك، وقبل أن تفتح الباب، أرادت أن تقدم إجمالاً نهائياً لفكرة نضجت في قلبها خلال سنوات طويلة، حتى أدق تفاصيلها الحميمة، منذ طوفان ماناوس المغرق في القدم. وقالت:

ـ ما أريد قوله هو أنني أبحث عن مكان أكون فيه مستلقية تحت التراب، بعيداً عن أخطار الفيضانات، وإذا كان ممكناً تحت ظل الأشجار في الصيف، وحيث لا يخرجوني بعد بضع سنوات ليلقوا بي إلى القمامة.

فتحت باب الشقة ودخل كلب صغير مبلل بماء المطر، ذو مواهب فاسدة لا علاقة لها بكل ما في البيت. كان عائداً من نزهته الصباحية في

الجوار، وأصيب لدى دخوله بنوبة فرح. فقد قفز إلى الطاولة وهو ينبح دون معنى، وكاد يفسد مخطط المقبرة بقوائمه الملوثة بالوحل. ولكن نظرة واحدة من السيدة كانت كافية لتهدئة اندفاعه.

ـ نوي! ـ قالت له دون أن تصرخ ـ *Baixa d'aci!*[١]

انكمش الحيوان على نفسه، ونظر إليها مرعوباً، وانزلقت دمعتان صافيتان على وجهه. عندئذ عادت ماريا دوس براسيروس إلى الاهتمام بالبائع، فرأته واجماً.

ـ *Collons!*[٢]، ـ هتف ـ لقد بكى!

فاعتذرت منه ماريا دوس براسيروس بصوت خافت:

ـ لقد هاج فرحاً لأنه وجد شخصاً هنا في مثل هذه الساعة. إنه يدخل إلى البيت عادة بحذر أشد من حذر الرجال، اللهم إلا أنت كما رأيتك تدخل الآن.

ـ ولكنه بكى، كونيو! ـ كرر البائع، وانتبه في الحال إلى الكلمة النابية التي تلفظ بها، فاعتذر خجلاً:ـ اعذريني، ولكني لم أر مثل هذا حتى في السينما.

ـ جميع الكلاب يمكنها عمل ذلك إذا دُربت ـ قالت ـ. كل ما في الأمر أن أصحاب الكلاب يقضون حياتهم في تعليمها عادات تسبب

---

(١) باللغة الكتلانية في الأصل: نوي! أخرج من هنا!
(٢) بالكتلانية في الأصل: «خصيات!»، وهي كلمة تقال للتعبير عن الاستغراب والدهشة.

لها الألم، كأن تأكل في أطباق أو تقضي حاجاتها في ساعات محددة وفي أمكنة معينة. ولا يعلمونها بالمقابل الأشياء الطبيعية التي تروقها، مثل الضحك والبكاء. أين وصلنا في موضوعنا؟

لم يكن قد بقي إلا القليل. وكان على ماريا دوس براسيروس أن تخضع لقضاء فصول الصيف بعيداً عن ظل الأشجار، لأن الأماكن الظليلة المتبقية في المقبرة محجوزة لذوي المراتب العليا في النظام. لكن شروط العقد وبنوده بالمقابل كانت حشواً لا حاجة له، لأنها تريد الاستفادة من الحسم بالدفع مقدماً ونقداً.

انتهى البائع وبدأ يضع أوراقه في الحقيبة. وعندئذ فقط، تفحص البيت بنظرة واعية، فانبهر بجماله. ثم أعاد النظر إلى ماريا دوس براسيروس كأنه يراها أول مرة.

ـ هل يمكنني توجيه سؤال غير لائق؟ ـ سألها.

فقادته نحو الباب وهي تقول:

ـ بالطبع، ما لم يكن عن السن.

ـ لدي هوس في تخمين مهن الناس من الأشياء التي أراها في بيوتهم ـ قال ـ، والحقيقة أنني لم أستطع أن أخمن شيئاً هنا. ماذا تشتغلين حضرتك؟

فردت عليه ماريا دوس براسيروس وهي تكاد تموت من الضحك:

ـ أنا شرموطة يا بني. أم أنه لم يعد يظهر عليّ ذلك؟

احمر البائع خجلاً وقال:

ـ آسف.

ـ أنا التي عليها أن تعتذر ـ قالت وهي تمسك ذراعه لتحول دون أن يشج رأسه بعارضة الباب: ـ وانتبه لنفسك! لا تهشم رأسك قبل أن تدفنني جيداً.

وما إن أغلقت الباب حتى حملت الكلب وراحت تداعبه، وضمت صوتها الأفريقي البديع إلى كورال الأطفال الذي بدأ يُسمع في تلك اللحظة من جوقة أطفال في الجوار. قبل ثلاثة أشهر من ذلك، كان قد انكشف لها في الحلم أنها ستموت، ومنذ ذلك اليوم أحست بأنها مشدودة أكثر من أي وقت آخر إلى ذلك الكائن الوحيد في عزلتها. كانت قد رتبت بدقة شديدة مسألة توزيع ممتلكاتها ومصير جسدها بعد موتها، وكانت مستعدة للموت في تلك اللحظة دون أن تزعج أحداً. لقد اعتزلت العمل بإرادتها بعد أن جنت ثروة جمعتها طوبة فوق طوبة، ولكن دون تضحيات شديدة المرارة. وقد اختارت لنفسها ملجأ نهائياً في قرية غراسيا القديمة والنبيلة جداً، والتي هضمها توسع المدينة العمراني. كانت قد اشترت الطابق الأول المهدم الذي يعبق برائحة الرنكة والرطوبة، وكانت جدرانه المتآكلة بفعل الملح البحري ما تزال تحتفظ بآثار رصاص المعارك غير المجيدة. لم يكن للبناء بواب، وكانت تنقص السلم الرطب والمظلم بعض الدرجات، بالرغم من أن جميع الطوابق كانت مشغولة. أصلحت ماريا دوس براسيروس

الحمام والمطبخ، وغطت الجدران بملصقات ذات ألوان بهيجة، وركّبت زجاجاً وستائر من القطيفة للنوافذ. ثم جاءت أخيراً بالأثاث المتقن، بأدوات المطبخ والديكور وصناديق الحرير والبروكار التي كان يسرقها الفاشيون من بيوت هجرها الجمهوريون في هروب الهزيمة، ومنهم راحت تشتري شيئاً فشيئاً على امتداد سنوات طويلة، بأسعار أوكازيون ومزادات سرية. العلاقة الوحيدة التي بقيت لها من ماضيها هي صداقتها مع الكونت دي كاردونا الذي واظب على زيارتها في يوم الجمعة الأخير من كل شهر، لتناول العشاء معها وممارسة حب فاتر بعد الأكل. ولكن، حتى تلك الصداقة التي تعود إلى أيام الشباب ظلت في حدود المحافظة، فقد كان الكونت يترك سيارته التي تحمل شعاره النبيل على مسافة بعيدة وحذرة، ويأتي إلى طابقها الأول ماشياً في الظل، لحماية كرامته وكرامتها على السواء. ولم تكن ماريا تعرف أحداً في العمارة، باستثناء البيت المقابل، حيث يعيش منذ وقت قصير، زوجان شابان، مع طفلة في التاسعة من عمرها. ومع أن الأمر يبدو غير معقول، إلا أنه صحيح، فهي لم تلتق أحداً سواهم من الجيران على السلم.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أثبت لها توزيع ثروتها أنها أكثر رسوخاً مما كانت تتصور هي نفسها في ذلك المجتمع الكتلاني النقي الذي تستند كرامته الوطنية على الحياء. فحتى أتفه الأشياء وأقلها قيمة وزعتها على أقرب الناس إلى قلبها، وكان هؤلاء هم

أقربهم إلى بيتها. وفي النهاية لم تكن تشعر قانعة بأنها عادلة، ولكنها كانت واثقة بالمقابل من أنها لم تنس أحداً لا يستحق النسيان. وقد كان توزيع ثروتها عملاً أعدته بصرامة ودقة جعلت الكاتب بالعدل في شارع أربول، وهو الذي يفاخر بأنه رأى كل شيء، لا يصدق عينيه حين رآها تملي من الذاكرة على كتبته القائمة المفصلة لممتلكاتها، بالاسم الدقيق لكل شيء منها بلغة كتلانية من العصر الوسيط، والقائمة الكاملة للورثة مع مهنهم وعناوينهم والمكان الذي يحتلونه في قلبها.

بعد زيارة بائع الجنازات تحولت إلى زائرة أخرى من زائري المقبرة في أيام الآحاد. ومثل جيرانها في القبور، بدأت تغرس زهوراً للفصول الأربعة في الأحواض المحيطة بالقبر، وتسقي العشب الذي نما حديثاً، وتشذبه بمقص جنائني إلى أن يصبح مثل سجادة مقر البلدية. وتأقلمت كثيراً مع المكان حتى إنها لم تفهم كيف بدا لها في أول الأمر موحشاً.

في الزيارة الأولى أحست بقلبها يقفز حين رأت، عند البوابة، القبور الثلاثة التي لا تحمل أسماء، لكنها لم تتوقف حتى للنظر إليها، لأن الحارس المؤرق كان على بعد خطوات منها. غير أنها انتهزت، في الزيارة الثالثة، فرصة سهو الحارس لتنجز حلماً آخر من أحلامها الكبيرة، فكتبت بأحمر الشفاه على لوحة القبر الأول الحجرية التي غسلها المطر: دوروتي. وأصبحت منذ ذلك الحين تفعل الشيء نفسه كلما سنحت لها الفرصة، أحياناً على واحد من

القبور، وأحياناً على اثنين، وأحياناً على الثلاثة معاً، ودائماً بيد ثابتة وقلب مضطرب بالحنين.

وفي يوم أحدٍ في أواخر شهر أيلول، شهدت أول عملية دفن على الرابية. وبعد ثلاثة أسابيع من ذلك، في مساء رياح جليدية، دفنوا شابة حديثة الزواج في قبر مجاور لقبرها. وحتى نهاية تلك السنة كانت سبعة ضرائح قد أصبحت مشغولة، لكن الشتاء الفاني انقضى دون أن يؤثر عليها. لم تكن تشعر بأي ألم. ومع ازدياد الحر ودخول ضجة الحياة المتدفقة من النوافذ المفتوحة، كانت معنوياتها ترتفع وتجدها كافية لتجاوز غموض أحلامها وهي على قيد الحياة. والكونت دي كاردونا الذي كان يقضي أشد الشهور حراً في الجبل، وجدها لدى عودته أكثر جاذبية مما كانت عليه في شبابها المفاجئ، حين كانت في الخمسين من عمرها.

وبعد عدة محاولات فاشلة، تمكنت ماريا دوس براسيروس من جعل نوي يميز قبرها في المقبرة الفسيحة ذات القبور المتشابهة. ثم سعت بعد ذلك لتعليمه البكاء فوق الضريح الفارغ لكي يواصل عمل ذلك كعادة بعد موتها. أخذته عدة مرات مشياً على الأقدام من بيتها إلى المقبرة، مشيرة له إلى نقاط علاّم لكي يحفظ الطريق الذي يقطعه أتوبيس لاس رمبلاس، إلى أن رأت أنه قد أتقن ذلك بما يكفي لإرساله وحيداً.

وفي يوم الأحد الذي أجرت فيه التجربة الأخيرة، في الساعة الثالثة بعد الظهر، نزعت عنه السترة الربيعية، لأن الصيف كان

وشيكاً من جهة، وكي لا يلفت الأنظار من جهة أخرى، ثم أطلقته ليذهب وحيداً. رأته يبتعد على الرصيف المظلل بخطوات رشيقة ومؤخرته مضغوطة وحزينة تحت ذيله المشعث، وتمكنت بصعوبة من كبح رغبتها في البكاء على نفسها وعليه، وعلى السنوات الطويلة والمريرة من الأوهام المشتركة، إلى أن رأته ينعطف باتجاه البحر عند ناصية كاييه مايور. بعد خمس عشرة دقيقة من ذلك صعدت إلى حافلة لاس رامبلاس من ساحة ديليسبس المجاورة، وهي تحاول أن تراقبه من النافذة، ورأته فعلاً بين جماعات الأطفال الذين يخرجون يوم الأحد، وكان بعيداً وجدياً، ينتظر تبدل ضوء إشارة عبور المشاة في شارع باسيو دي غراسيا.

«رباه!» تنهدت: «كم يبدو وحيداً».

وكان عليها أن تنتظر نحو ساعتين تحت شمس مونجيك القاسية، حيَّت عدداً من زائري القبور الذين كانت قد التقت بهم في آحاد أخرى أقل تاريخية، وهي تكاد لا تتذكرهم، لأن زمناً طويلاً قد انقضى مذ رأتهم أول مرة، حتى إنهم ما عادوا يلبسون ثياب الحداد، ولا يبكون، وصاروا يضعون الأزهار على القبور دون أن يفكروا في موتاهم. وبعد قليل، حين ذهب الجميع، سمعت جؤاراً حزيناً أفزع النوارس، ورأت في البحر الفسيح عابرة محيطات بيضاء ترفع علم البرازيل، فتمنت من أعماق روحها أن تأتيها برسالة من شخص مات من أجلها في سجن بيرنامبوكو. وبعد الخامسة بقليل، ظهر نوي على الرابية متقدماً اثنتي عشرة دقيقة عن

موعده. كان لعابه يسيل من الإنهاك والحر، لكنه يمشي بخيلاء طفل فائز. في تلك اللحظة تجاوزت ماريا دوس براسيروس مخاوفها من ألا تجد من يبكي على قبرها.

وكان في الخريف التالي أن بدأت تشعر بنذر مشؤومة لا تستطيع فك رموزها، لكنها تزيد من ثقل قلبها. عادت إلى تناول القهوة تحت أشجار الأكاسيا الذهبية في ساحة الساعة بمعطفها ذي الياقة المصنوعة من ذيول الثعالب، وقبعتها المزينة بأزهار اصطناعية، والتي عادت لشدة قِدمها وأصبحت دارجة من جديد. شحذت غريزيتها. وفي محاولة لتفسير جزعها أمعنت النظر في ثرثرة بائعات العصافير في لاس رمبلاس، وهمس الرجال في أكشاك الكتب الذين ما كانوا يتكلمون عن كرة القدم لأول مرة منذ سنوات طويلة، وصمت مشوهي الحرب وهم يلقون فتات الخبز للحمائم، ورأت في كل مكان علامات الموت المؤكدة. في عيد الميلاد علقوا أنواراً ملونة على أشجار الأكاسيا، وكانت الموسيقى وأصوات البهجة تنطلق من الشرفات، واقتحمت جموع السائحين الغرباء عن قدرنا مقاهي الهواء الطلق، لكنها حتى وهي في تلك الأجواء الاحتفالية كانت تشعر بالتوتر المقموع نفسه الذي سبق الأزمنة التي أصبح الفوضويون فيها هم سادة الشارع[1] وماريا دوس براسيروس التي عاشت تلك الحقبة المشحونة بالانفعالات

(١) في سنوات الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) كان الفوضويون هم الذين يسيطرون على برشلونة وحكومة كتالونيا المستقلة ذاتياً.

العظيمة، لم تستطع التحكم بقلقها، واستيقظت أول مرة وهي لا تزال في منتصف الحلم على وخزات فزع. وفي إحدى الليالي أطلق مخبرو أمن الدولة الرصاص قبالة نافذتها على طالب كان قد كتب على الجدار بفرشاة دهان: *Visca Catalunya llivre!*(١)

«رباه! ـ قالت لنفسها مذهولة ـ يبدو كأن الجميع يموتون معي!».

لم تعرف مثل ذلك الجزع إلا وهي طفلة في ماناوس، قبل لحظة من بزوغ الفجر، حين هدأت ضوضاء الليل المتنوعة فجأة، وتوقفت المياه، وتذبذب الوقت في مكانه، وغرقت الغابات الأمازونية في صمت مطبق لا يمكن له إلا أن يكون مثل صمت الموت، ووسط ذلك التوتر الذي لا يُقاوم، في يوم الجمعة الأخير من شهر نيسان، جاء الكونت دي كاردونا كعادته لتناول العشاء في بيتها.

كانت زيارته قد تحولت إلى طقس تقليدي. فالكونت يأتي في موعد محدد ودقيق، بين السادسة والتاسعة ليلاً، حاملاً زجاجة شمبانيا من إنتاج البلاد، ملفوفة بجريدة المساء، لإخفائها قدر الإمكان. وعلبة شوكولاته محشوة. وكانت ماريا دوس براسيروس تُعد له معكرونة في الفرن وفروجاً طرياً بصلصته، وهما الطبقان المفضلان للكتلانيين النبلاء في أيام عزهم، وطبقاً فيه تشكيلة من فواكه الموسم. وبينما هي مشغولة في المطبخ، كان الكونت يستمع من الغراموفون إلى مقاطع من الأوبريات الإيطالية في نسخ تاريخية

---

(١) بالكتلانية في الأصل: «تحيا كتالونيا حرة!.».

وهو يتناول، برشفات بطيئة، كأساً من نبيذ أوبورتو، يبقى معه حتى انتهاء الاسطوانات.

وبعد العشاء الذي يمتد طويلاً، ويتحدثان فيه كثيراً، كانا يمارسان، عن ظهر قلب، حباً ثابتاً يخلّف في نفسيهما رواسب كارثية. وقبل أن ينصرف الكونت، وهو قلق دائماً من اقتراب منتصف الليل، كان يترك خمساً وعشرين بيزتا تحت منفضة السجائر في المخدع. وكان هذا هو السعر الذي تتقاضاه ماريا دوس براسيروس حين تعرف عليها في فندق للعابرين في شارع باراليلو، والشيء الوحيد الذي لم يطله صدأ الزمان.

لم يسأل أي منهما نفسه يوماً إلى أي شيء ترتكز تلك الصداقة. لقد كانت ماريا دوس براسيروس مدينة له ببعض الخدمات البسيطة. وكان يقدم لها نصائح مناسبة من أجل استثمار جيد لمدخراتها، وقد علمها معرفة القيمة الحقيقية لممتلكاتها الأثرية، وكيفية حيازتها بطريقة لا يُكشف معها أنها أشياء مسروقة. والأهم من ذلك كله أنه هو الذي أشار عليها بأن تعيش شيخوخة محترمة في حي غراسيا، حين أخبروها في المبغى الذي أمضت فيه حياتها أنها صارت مستعملة جداً وغير مناسبة للأذواق المعاصرة، وأرادوا إرسالها إلى بيت للمتقاعدات السريات، حيث يتولين تعليم الأطفال ممارسة الحب مقابل خمس بيزتات. كانت قد روت للكونت أن أمها باعتها وهي في الرابعة عشرة من عمرها، في ميناء ماناوس، وأن أول

قبطان باخرة تركية تمتع بها دون رحمة خلال عبور المحيط، ثم هجرها دون نقود ودون لغة ودون اسم في مستنقع أضواء باراليلو. كلاهما كان مدركاً أن ما يجمع بينهما قليل جداً، حتى إنهما لم يكونا يشعران بالوحدة قدر شعورهما بها وهما معاً، ولكن أياً منهما لم يتجرأ على إلحاق الأذى باللقاءات المعهودة. كانا بحاجة إلى هزة وطنية كي يدركا معاً، وفي الوقت المناسب، كم كان يكره كل منهما الآخر، وبأي قدر من الحنان، طوال تلك السنوات الطويلة.

وقد جاءت تلك الهزة بصورة صاعقة. كان الكونت دي كاردونا يستمع إلى أغنية الحب الثنائية **لابوهيمي**، تغنيها ليسيا ألبانيسي بمرافقة بينيامين جيغلي، حين وصلت إلى مسامعه رشة أخبار مفاجئة من المذياع الذي كانت تستمع إليه ماريا دوس براسيروس في المطبخ. دنا على رؤوس أصابعه ليستمع معها. كان الجنرال فرانثيسكو فرانكو، دكتاتور إسبانيا مدى الحياة قد تولى مسؤولية تقرير المصير النهائي لثلاثة انفصاليين باسكيين صدر بحقهم حكم الإعدام. أطلق الكونت تنهدة اطمئنان وقال:

ـ سيرمونهم بالرصاص إذاً، لأن الزعيم رجل عادل.

ثبتت ماريا دوس براسيروس عليه عيني الكوبرا الملكية المتوقدتين، ورأت حدقتيه الخاليتين من الشفقة وراء نظارته الذهبية، وأسنانه المفترسة، ويديه الهجينتين كيدي حيوان معتاد على الرطوبة والعتمة. تماماً مثلما كان في الواقع. وقالت له:

ـ عليك أن تتضرع إلى الله ألا يحدث ذلك، لأنه إذا أُعدم واحد منهم فسوف أدس لك السمَّ في الحساء.

ارتعب الكونت:

ـ لماذا؟

ـ لأني قحبة عادلة أيضاً.

لم يرجع الكونت بعد ذلك قط، وأيقنت ماريا دوس براسيروس أن الحلقة الأخيرة من حياتها قد أُغلقت. والحقيقة أنها، إلى ما قبل ذلك بقليل، كانت تغضب إذا ما تخلى لها أحدهم عن المقعد في الحافلة، أو حاول مساعدتها في عبور الشارع، أو الإمساك بذراعها لتصعد السلّم. لكنها لم تعد تقبل ذلك وحسب، بل أصبحت تتمناه كضرورة بغيضة. عندئذ أوصت على إعداد لوحة من الحجر لقبرها، مثل التي على قبور الفوضويين، دون اسم أو تاريخ، وبدأت تنام دون أن تقفل الباب لكي يتسنى لنوي الخروج بالخبر إذا ماتت وهي نائمة.

في أحد أيام الآحاد، ولدى عودتها من المقبرة، التقت على فسحة السلم بالطفلة التي تعيش في البيت المقابل. فسارت معها في الشارع عدة كوادرات، وكانت تحدثها عن كل شيء بسذاجة الجدات، وتراقبها وهي تلعب مع نوي كصديقين قديمين. وفي ساحة ديامنتي دعتها، مثلما كانت قد خططت، لتناول المثلجات.

ـ هل تحبين الكلاب؟ ـ سألتها.

ـ إنها تفتنني ـ قالت الطفلة.

عندئذ عرضت عليها ماريا دوس براسيروس الاقتراح الذي كانت قد أعدته منذ زمن طويل.

ـ إذا حدث لي شيء في يوم من الأيام، خذي نوي واهتمي به. بشرط واحد، هو أن تتركيه طليقاً في أيام الآحاد دون أن تقلقي عليه. فهو يعرف ما سيفعله.

بدت السعادة على الطفلة. ورجعت ماريا دوس براسيروس أيضاً إلى بيتها بسعادة من عاشت حلماً كان ينضج في قلبها منذ سنوات. ومع ذلك، لم يكن إرهاق الشيخوخة ولا تأخر الموت هو السبب في عدم اكتمال ذلك الحلم. بل إنه لم يكن قراراً ذاتياً كذلك. فالحياة هي التي قادتها في إحدى أمسيات تشرين الأول الجليدية لتنتبه إلى اقتراب عاصفة مباغتة وهي خارجة من المقبرة. كانت قد كتبت الأسماء على الألواح الحجرية الثلاثة، وبدأت تنزل نحو موقف الحافلة، ماشية على قدميها، حين تبللت تماماً تحت زخة المطر الأولى. وبالكاد استطاعت أن تحتمي عند أبواب بيوت في حي مقفر يبدو كأنه في مدينة أخرى، بحاناته الخربة ومعامله المعفرة بالغبار، وقاطرات الشحن الضخمة التي تجعل دوي العاصفة أشد رعباً. وبينما هي تحاول أن تدفئ الكلب بجسمها، كانت ماريا دوس براسيروس ترى الحافلات تمر مزدحمة بالركاب، وسيارات الأجرة تمر فارغة ولكن إشاراتها مطفأة. ولم يلتفت أحد

إليها وهي تشير بيدها مثل غريق. وفجأة، عندما بدا أن تحقق معجزة هو أمر مستحيل، مرت سيارة فاخرة لها لون الفولاذ الغسقي في الشارع الغارق بالماء، دون أن تصدر صوتاً تقريباً، ثم توقفت بغتة عند الناصية ورجعت القهقرى إلى حيث كانت تقف هي. أُنزل الزجاج بنفحة سحرية، وعرض عليها السائق أن يوصلها.

ـ مشواري بعيد ـ قالت ماريا دوس براسيروس بصراحة ـ ولكنك تقدم لي جميلاً عظيماً إذا جعلتني أقترب قليلاً.

ـ أخبريني إلى أين تودين الذهاب ـ قال بإصرار.

ـ إلى غراسيا ـ قالت.

فُتح الباب دون أن يمسه أحد. وقال لها:

ـ إنه طريقي. اصعدي.

في السيارة العابقة برائحة أدوية مبردة، تحول المطر إلى محنة غير واقعية، فتبدل لون المدينة، وأحست أنها في عالم غريب وسعيد، كل شيء فيه محلول مسبقاً. كان السائق يشق طريقه وسط فوضى المرور بانسيابية فيها شيء من السحر. وكانت ماريا دوس براسيروس تشعر بالخوف، ليس لبؤسها هي بالذات فقط، وإنما أيضاً لبؤس الكلب المحزن الذي ينام في حضنها.

قالت، لأنها شعرت بأنه عليها أن تقول شيئاً:

ـ هذه السيارة أشبه بعابرة محيطات. لم أرَ مثلها في حياتي، حتى ولا في الأحلام.

ـ الحقيقة إن الشيء السيئ الوحيد فيها هو أنها ليست لي، قال ذلك بكتلانية متعثرة، ثم أضاف باللغة القشتالية بعد لحظة:ـ راتبي مدى الحياة لا يكفي لشرائها.

ـ هذا ما تصورته ـ قالت متنهدة.

تأملته بطرف عينها، كان مضاءً بلون أخضر يرسله ضوء لوحة القيادة، ورأت أنه مراهق تقريباً، شعره مجعد وقصير، وله بروفيل برونزي كتمثال روماني. فكرت في أنه ليس جميلاً، إنما له سحر مختلف، وتناسبه تماماً سترة الجلد الرخيصة المستهلكة من كثرة الاستعمال، ولا بد أن أمه تشعر بالسعادة حين تراه يرجع إلى البيت. وبسبب يديه الفلاحيتين وحدهما، اقتنعت بأنه ليس مالك السيارة.

لم يعودا إلى تبادل الحديث في بقية الطريق، لكن ماريا دوس براسيروس أحست أنها خضعت لنظرات تأمل عارضة عدة مرات كذلك، فتألمت مرة أخرى لأنها ما زالت على قيد الحياة بعد هذه السن. أحست أنها قحبة، وأنها تدعو للرثاء بمنديل المطبخ الذي وضعته على رأسها كيفما اتفق حين بدأ هطول المطر، والمعطف الخريفي المحزن الذي لم يخطر ببالها استبداله لأنها كانت تفكر في الموت.

وعندما وصلا إلى حي غراسيا، كان المطر قد بدأ بالتوقف، وكان الظلام قد خيم، وأنوار الشارع قد أضيئت. طلبت ماريا دوس براسيروس من سائقها أن يتركها عند ناصية قريبة، لكنه أصر على

إيصالها حتى باب بيتها. لم يفعل ذلك وحسب، وإنما أوقف السيارة فوق الرصيف أيضاً لكي تستطيع النزول دون أن تبتل بالماء. أفلتت الكلب، وحاولت الخروج من السيارة بكل الوقار الذي يتيحه لها جسدها، وعندما التفتت لتشكره، وجدت نفسها في مواجهة نظرة رجل قطعت أنفاسها. ظلت لحظة لا تفهم جيداً من منهما الذي ينتظر شيئاً، وممن ينتظره. وعندئذ سألها هو بصوت حازم:

ـ هل أصعد؟

أحست ماريا دوس براسيروس بالإهانة. فقالت:

ـ أشكرك لأنك أوصلتني، ولكنني لا أسمح لك بأن تسخر مني.

ـ ليس هناك ما يدعوني للسخرية من أحد ـ قال بالقشتالية وبجدية حاسمة ـ وخاصة من امرأة مثل حضرتك.

كانت ماريا دوس براسيروس قد تعرفت على رجال كثيرين مثل هذا، وكانت قد أنقذت من الانتحار آخرين أكثر جرأة منه، لكنها لم تشعر على امتداد سنوات حياتها الطويلة بمثل ذلك الخوف في حسم الموقف. وسمعته يقول بإصرار دون أدنى تبدل في رنة صوته:

ـ هل أصعد؟

مضت دون أن تغلق باب السيارة، وردت عليه بالقشتالية لتكون واثقة من أنه فهمها:

ـ افعل ما تشاء.

دخلت إلى الدهليز المضاء بنور خافت من بريق الشارع الزائغ، وبدأت تصعد الدرجات الأولى وركبتاها ترتعشان، وكانت مختنقة برعب ما كان لها أن تصدق أنه ممكن إلا في لحظة الموت. وعندما توقفت أمام باب الطابق الأول، وهي ترتجف جزعاً في البحث عن المفاتيح في حقيبتها، سمعت صوت إغلاق بابي السيارة على التوالي في الشارع. وحاول نوي الذي كان قد سبقها أن ينبح، فأمرته بتمتمة احتضار: «اصمت». وعلى الفور تقريباً سمعت وقع الخطوات الأولى على الدرجات الخربة في السلم، وخافت أن ينفجر قلبها. وخلال جزء من الثانية عادت تستعرض كامل الحلم المنذر الذي بدّل حياتها تماماً طوال ثلاث سنوات، وأدركت خطأ تفسيرها. فقالت لنفسها بذهول:

«رباه! لم يكن نذير الموت إذاً!»

وأخيراً، وجدت ثقب المفتاح وهي تسمع الخطوات المعدودة في الظلام، وتسمع الأنفاس المتصاعدة من شخص يقترب مرتعداً مثلها في الظلام، وعندئذ أدركت أن الانتظار سنوات وسنوات، ومعاناتها الطويلة الطويلة في الظلام، لم تكن عبثاً، حتى ولو لمجرد أن تعيش تلك اللحظة فقط.

أيار ١٩٧٩

سبعة عشر إنكليزياً مسموماً

Diecisiete ingleses envenenados

أول ما لاحظته السيدة برودينثيا لينيرو لدى وصولها إلى ميناء نابولي هو أن له رائحة ميناء يوهاتشا نفسها. لم تقل ذلك لأحد بالطبع، لأن أحداً لن يفهمه في عابرة المحيطات الهرمة تلك، المزدحمة بإيطاليين من بوينس آيرس يعودون إلى الوطن أول مرة بعد الحرب، ولكنها أحست على أي حال أنها أقل توحداً وأقل ذعراً وبُعداً وهي في الثانية السبعين من العمر، وبعد ثمانية عشر يوماً من الإبحار في بحر سيء بعيداً عن أناسها وعن بيتها.

لقد رأت أنوار اليابسة منذ الفجر. وكان المسافرون قد استيقظوا في وقت مبكر أكثر من المعتاد، وارتدوا ملابسهم الجديدة في ما كان قلق الوصول يثقل على قلوبهم، فبدا يوم الأحد الأخير ذاك على متن السفينة كأنه الشيء الوحيد الحقيقي طوال الرحلة كلها. كانت السيدة برودينثيا لينيرو بين الأشخاص القليلين الذين حضروا القداس. وعلى خلاف الأيام الأخرى، حين كانت تمضي على متن السفينة بملابس حدادية، ارتدت للنزول إلى البر رداء رمادياً من

الكتان الخشن، وعقدت حول خصرها حزام أخوية القديس فرانثيسكو، وانتعلت صندلاً من الجلد الخام لا يبدو كنعال الحجاج لأنه جديد فقط. وكانت تلك هي الدفعة الأولى على الحساب: فقد نذرت للرب أن تلبس مسوح التوبة حتى الموت إذا ما منحها نعمة زيارة روما ورؤية الحبر الأعظم، وها هي ذي النعمة قد مُنحت لها. وعند حافة الطاولة أشعلت شمعة للروح القدس لأنه بثها الشجاعة على تحمل أنواء الكاريبي، ورتلت صلاة من أجل كل واحد من أبنائها التسعة وأحفادها الأربعة عشر الذين يحلمون بها في تلك اللحظة، في ليلة رياح عاتية في ريوهاتشا.

عندما صعدت إلى السطح بعد تناول الفطور، كانت الحياة في السفينة قد تبدلت. فالأمتعة مكدسة في صالة الرقص، وسط شتى أنواع بضائع السياح التي اشتراها الإيطاليون من أسواق السحر في جزر الأنتيل، وكان هناك فوق منضدة الكونتوار قرد من بيرنانبوكو في قفص حديدي مزركش. كان صباحاً مشعاً في أوائل شهر آب. يوم أحد نموذجي من فصول الصيف تلك التي تلت الحرب، حيث الضوء كوحي يومي. وكانت السفينة الضخمة تتحرك ببطء شديد، مطلقة لهاثَ مريضٍ، في مياه ساكنة صافية. وكان حصن دوق أنجو الملفوف بالضباب قد بدأ يظهر بصورة غير واضحة في الأفق، لكن المسافرين الواقفين عند حافة السفينة كانوا يظنون أنهم يتعرفون على الأماكن المألوفة لديهم، ويشيرون بأصابعهم دون رؤيتها ويصرخون مبتهجين بلهجات جنوبية. أما السيدة برودينثيا لينيرو التي

عقدت صداقات كثيرة خلال الرحلة في السفينة، واعتنت بأطفالٍ بينما كان أباؤهم يرقصون، بل إنها خاطت كذلك أحد أزرار سترة الضابط الأول في السفينة، وجدت الجميع وقد أصبحوا غرباء وبعيدين عنها فجأة. فقد اختفت الآن الروح الاجتماعية والدفء الإنساني والأشياء التي أتاحت لها البقاء على قيد الحياة خلال نوبات الحنين الأولى في السبات المداري. إن الحب الأبدي في أعالي البحار ينتهي مع رؤية الميناء. وفكرت السيدة برودينثيا لينيرو التي لم تكن تعرف طباع الإيطاليين المتقلبة، إن الداء ليس في قلوب الآخرين وإنما في قلبها هي بالذات. لأنها هي الوحيدة الذاهبة بين جموع العائدين. وفكرت في أن السفر لا بد أن يكون كذلك، وأحست أول مرة في حياتها بوخزةِ كونها غريبة بينما هي تتأمل من حافة السفينة آثار عوالم كثيرة خامدة في قعر الماء. وأرعبتها صرخة رعب مفاجئة أطلقتها فتاة جميلة جداً كانت تقف إلى جوارها:

ـ يا أماه! ـ قالت الفتاة وهي تشير إلى الماء ـ انظروا هناك.

كان هناك غريق. وقد رأته السيدة برودينثيا لينيرو طافياً على ظهره وسط الماء. كان رجلاً ناضجاً وأصلع ذا بنية غريبة، وكانت عيناه المفتوحتان السعيدتان بلون السماء عند الشروق. وكان يرتدي بدلة مراسم مع صدار من البروكار، وينتعل حذاء لماعاً، ويضع على ياقة سترته زهرة غاردينيا. وكانت في يده اليمنى علبة صغيرة

مكعبة الشكل ملفوفة بورق هدايا، وكانت أصابعه الحديدية الزرقاء الضاربة إلى السواد مشدودة على شريط العلبة، وهو الشيء الوحيد الذي وجده ليتمسك به لحظة موته.

ـ لا بد أنه سقط من أحد زوارق الأعراس ـ قال أحد ضباط السفينة ـ هذا يحدث بكثرة خلال الصيف في هذه المياه.

كان مشهداً عابراً، لأنهم بدؤوا حينئذ بالدخول إلى الخليج، وشدت اهتمام المسافرين أمور أخرى أقل كآبة. لكن السيدة برودينثيا لينيرو واصلت التفكير في الغريق، الغريق المسكين، الذي كانت أذيال سترته الرسمية تتماوج مع أثر مخور السفينة في الماء.

ما إن دخلت السفينة الخليج حتى خرج لاستقبالها مركب جرّ، وسحبها برسنٍ بين أنقاض عدد كبير من السفن الحربية المدمرة خلال الحرب. بدأ الماء يتحول إلى زيت مع تقدم السفينة بين الأنقاض الصدئة، وأصبح الحر أكثر حدة حتى من حرّ ريوهاتشا في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي الجانب الآخر من المضيق، تحت شمس الساعة الحادية عشرة المتوهجة، ظهرت فجأة المدينة كلها، بقصورها الخيالية وكنائسها القديمة ذات الألوان المتلبدة على التلال. وفاحت حينئذ من القيعان التي حُركت رائحة كريهة لا تطاق تعرفت عليها السيدة برودينثيا لينيرو كرائحة السرطانات المتعفنة في فناء بيتها.

وأثناء مناورة السفينة للرسو، كان المسافرون يتعرفون على

أقربائهم في فوضى الميناء بسعادة مبالغ فيها. وكان معظم هؤلاء من السيدات الخريفيات ذوات الصدور المهيبة اللواتي يختنقن في ملابس الحداد، مع أجمل الأطفال وأكثرهم عدداً على وجه الأرض، ومع أزواجهن الضئيلين النشيطين، من ذلك الصنف الخالد الذي يقرأ الجريدة بعد الزوجات، والذين يرتدون بدلات كتّاب بالعدل صارمة رغم شدة الحر.

ووسط ضجة الاحتفال تلك، كان هناك رجل عجوز ذو مظهر لا عزاء له، يلبس رداء شحاذ، ويُخرج من جيوبه بكلتا يديه حفنات وحفنات من الصيصان الحية التي ملأت الميناء في لحظات وراحت تزقزق بجنون في كل الأنحاء، ولأنها حيوانات سحر، فإن عدداً كبيراً منها يواصل الجري حياً بعد أن تدوسه الجموع الغافلة عن الأعجوبة. وضع الساحر قبعته مقلوبة على الأرض، لكن أحداً ممن كانوا عند حافة السفينة لم يلق إليه بقطعة نقد واحدة على سبيل الإحسان.

فُتنت السيدة برودينثيا لينيرو بالمشهد العجيب الذي بدا كأنه أقيم على شرفها، لأنها الوحيدة التي أبدت إعجابها به، ولم تنتبه في أية لحظة أنزلوا سقالة المرور، واقتحم سيل بشري السفينة بصراخ واندفاع قراصنة. وبينما هي مشدوهة من تلك البهجة ومن رائحة البصل المنبعثة من تلك الأُسر في الصيف، ومعرضة لضربات زمر الحمالين الذين كانوا يتعاركون على حمل الأمتعة، أحست بأنها مهددة بميتة غير مجيدة كميتة صيصان الميناء. عندئذ

جلست فوق صندوقها الخشبي ذي الزوايا الصفيحية المطلية، وحافظت على تماسكها بترتيل حلقة مفرغة من الصلوات ضد الشرور والأخطار في أراضي الكفار. وهناك وجدها الضابط الأول في السفينة بعد انتهاء الجائحة وعدم بقاء أحد سواها في الصالة الخاوية.

ـ يجب ألا يبقى أحد هنا حتى هذا الوقت ـ قال لها الضابط بشيء من اللطف ـ هل أستطيع مساعدتك في شيء؟

ـ عليّ أن أنتظر القنصل ـ قالت.

وهذا ما كان. فقبل يومين من إبحارها، كان ابنها البكر قد أرسل برقية إلى القنصل في نابولي، وهو من أصدقائه، يرجوه فيها أن ينتظرها في المرفأ ويساعدها في الإجراءات لتواصل السفر إلى روما. وكان قد بعث إليه باسم السفينة وموعد الوصول، ونبهه أيضاً إلى أنه يستطيع التعرف عليها من مسوح القديس فرانشيسكو التي سترتديها عند النزول إلى البر. وقد أبدت تشبثاً صارماً بموقفها مما جعل الضابط الأول في السفينة يسمح لها بالانتظار قليلاً، على الرغم من اقتراب موعد غداء الطاقم، ومن أنهم قد وضعوا الكراسي فوق المناضد وبدؤوا بشطف سطح السفينة بسكب دلاء من الماء. وكان عليهم أن يحركوا الصندوق من مكانه عدة مرات كي لا يبللوه بالماء، ولكنها كانت تبدل مكانها دون تأثر، ودون أن تقطع صلواتها، إلى أن أخرجوها من صالة اللهو، ثم انتهى بها

المطاف إلى الجلوس تحت الشمس في زوارق النجاة. وهناك وجدها الضابط الأول مرة أخرى قبل الساعة الثانية بعد الظهر بقليل، غارقة في العرق وهي بثياب غوص التائبين. وكانت تصلي دون أمل، لأنها خائفة وحزينة، وتكبح بمشقة رغبتها في البكاء.

قال لها الضابط الأول دون اللطف الذي أبداه أول مرة:

- لا جدوى من مواصلتك الصلاة. فالرب نفسه يذهب في إجازة في شهر آب.

وأوضح لها أن نصف إيطاليا موجودة على شواطئ البحر في هذه الفترة، وخاصة في أيام الآحاد. ومن المحتمل ألا يكون القنصل في إجازة، بسبب طبيعة منصبه، ولكنه لا يفتح مكتبه بكل تأكيد حتى يوم الاثنين. والشيء العقلاني الوحيد الذي يمكنها عمله هو الذهاب إلى أحد الفنادق، والاستراحة باطمئنان هذه الليلة، والاتصال في اليوم التالي بالقنصلية هاتفياً، ولا شك أن رقم هاتفها موجود في الدليل. وهكذا كان على السيدة برودينثيا لينيرو أن تقتنع بوجهة النظر هذه، وقد ساعدها الضابط في إجراءات قسم الهجرة والجمارك، وفي تبديل النقود، ووضعها في سيارة أجرة طالباً من السائق أن يأخذها إلى فندق محترم.

انطلقت سيارة الأجرة الهرمة التي تشبه عربة جنائزية وهي تهتز وتتمايل في الشوارع المقفرة، وفكرت السيدة برودينثيا لينيرو لحظة في أنها هي والسائق الكائنان الوحيدان الحيان، في مدينة أشباح،

وأنهما معلقان بأسلاك وسط الشارع، ولكنها فكرت أيضاً في أن رجلاً يتكلم كثيراً، وبكل تلك العاطفة لن يكون لديه وقت ليلحق الأذى بامرأة مسكينة وحيدة تحدت مخاطر المحيط لترى البابا.

وبعد متاهة الشوارع عادت ترى البحر ثانية، وواصلت سيارة الأجرة اهتزازها على امتداد شاطئ متقد ومنعزل، حيث كانت توجد فنادق صغيرة كثيرة ذات ألوان صاخبة. لكن السيارة لم تتوقف عند أي منها، وإنما مضت مباشرة إلى أقلها ظهوراً، قائم وسط حديقة عامة فيها أشجار نخيل ضخمة ومقاعد خضراء. وهناك وضع السائق الصندوق على الرصيف المظلل، وأمام تردد السيدة بروDينثيا لينيرو، أكد لها أن ذلك هو الفندق الأكثر وقاراً في نابولي.

رفع حمَّال وسيم ولطيف الصندوق على كتفه وتولى أمرها. قادها إلى مصعد محاط بشبكة معدنية مرتجلة في فراغ السلّم، وانطلق يغني أغنية لبوتشيني بملء صوته وبتصميم مفزع. كان بناء قديماً مؤلفاً من تسعة طوابق مرممة، وفي كل واحد من تلك الطوابق يوجد فندق مختلف. أحست السيدة برودينثيا لينيرو فجأة بلحظة تشوش وهي محشورة في صندوق كصندوق الدجاج يصعد ببطء في فراغ سلّم من المرمر، ويفاجئ الناس في البيوت وهم في أكثر لحظات ترددهم حميمية، بسراويلهم الداخلية المثقوبة وتجشؤاتهم الحمضية. توقف المصعد مهتزاً في الطابق الثالث،

وحينئذ توقف حمّال الحقائب عن الغناء، وفتح باب المصعد ذا المعيّنات القابلة للطي، وأشار للسيدة برودينثيا لينيرو بحركة احترام لطيفة أنها أصبحت في بيتها.

رأت فتى مراهقاً ونحيلاً وراء طاولة خشبية مطعمة بقطع من الزجاج الملون في البهو، ونباتات ظل في أصص من النحاس. وقد أعجبها الفتى على الفور، لأن ناصية شعره جميلة تشبه ناصية شعر حفيدها الأصغر. وأعجبها اسم الفندق بحروفه المحفورة على لوحة برونزية، وأعجبتها رائحة الفينيك المنبعثة من المكان، وأعجبتها نباتات السرخس المعلقة، والصمت، والزنابق المذهبة التي تزين ورق الجدران، فخطت خارج المصعد، لكن قلبها انكمش عندئذ. كانت هناك جماعة من السائحين الإنكليز يرتدون سراويل قصيرة ونعال الشاطئ يغفون في صف طويل على مقاعد الانتظار. كانوا سبعة عشر، وكانوا يجلسون في ترتيب متسلسل فيبدون كأنهم شخص واحد مكرر في رواق مرايا. رأتهم السيدة برودينثيا لينيرو بنظرة واحدة، دون أن تتمكن من تمييزهم. والشيء الوحيد الذي انطبع في ذهنها هو صف الرُّكب الوردية التي بدت لها مثل قطع لحم خنزير معلقة بخطافات في دكان جزارة. لم تتقدم خطوة أخرى نحو الطاولة، وإنما تراجعت فزعة ودخلت إلى المصعد ثانية. قالت:

ـ فلنذهب إلى طابق آخر.

ـ هذا هو الفندق الوحيد الذي فيه مطعم يا سيدتي ـ قال الحمَّال.

ـ ليس مهماً ـ قالت.

أومأ الحمال موافقاً، ثم أغلق المصعد، وأكمل غناء المقطع المتبقي له من الأغنية حتى وصلا إلى فندق الطابق الخامس. كان كل شي يبدو أقل صرامة مما في الفندق الآخر، وكانت صاحبة الفندق سيدة ربيعية، تتكلم القشتالية بطلاقة، ولم يكن هناك من ينام القيلولة على كراسي البهو. ولم يكن في الفندق مطعم بالفعل، ولكن صاحبته كانت متفقة مع أحد المطاعم على تقديم طعام لنزلاء الفندق بسعر خاص. وهكذا قررت السيدة برودينثيا لينيرو أن تمضي تلك الليلة هناك، مطمئنة إلى طلاقة لسان صاحبة الفندق ولطفها، بقدر اطمئنانها لعدم وجود أي إنكليزي وردي الركبتين في البهو.

كانت ستائر نوافذ الغرفة مسدلة في الثانية ظهراً، وكان للظل برودة وصمت أيكة خفية، وكان مناسباً للبكاء. وما إن صارت السيدة برودينثيا لينيرو وحدها حتى أغلقت الباب بالمزلاجين، وتبولت، لأول مرة منذ الصباح، تبولاً خفيفاً أتاح لها أن تتذكر شخصيتها المفقودة طوال الرحلة. ثم نزعت نعليها وحزام مسوحها وتمددت على جهة القلب فوق السرير المزدوج الذي كان فسيحاً جداً وموحشاً جداً بالنسبة لها وحدها. وأطلقت الينبوع الآخر من دموعها المتأخرة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تغادر فيها ريوهاتشا وحسب، وإنما إحدى المرات القليلة التي تغادر فيها بيتها منذ أن تزوج أبناؤها وغادروها، وظلت وحدها مع هنديتين حافيتين لتعتني بجسد زوجها الذي صار بلا روح. لقد أمضت نصف حياتها في غرفة قبالة أنقاض الرجل الذي أحبته، والذي بقي في غيبوبة نحو ثلاثين سنة، مستلقياً على سرير غراميات شبابه، فوق فرشة من جلود الماعز.

وفي شهر تشرين الأول الماضي، فتح المريض عينيه في ومضة صحو مفاجئة، وتعرف على ذويه، وطلب استدعاء مصور، فجاؤوا بمصور الحديقة العجوز مع جهازه ذي الكم الأسود، وطست المغنيسيوم الذي يستخدمه للصور المنزلية، وقد وجه المريض نفسه عملية التصوير. قال: «صورة لبرودينثيا، من أجل الحب والسعادة اللذين منحتني إياهما في الحياة»، والتُقطت الصورة بأول وميض من المغنسيوم. ثم قال: «والآن صورتان لابنتي المعبودتين برودنثيتا وناتاليا»، والتُقطت الصورتان. وبعدها: «صورتان أخريان لابنيّ النموذجيين في الأسرة بعاطفتهما وحكمتهما». وظل على تلك الحال إلى أن انتهى ورق الصور، وكان على المصور أن يذهب إلى بيته ويتمون بمزيد منها. وفي الساعة الرابعة مساء، عندما لم يعد بالإمكان التنفس في غرفة النوم العابقة بالمغنسيوم وصخب الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين جاؤوا لأخذ نسخهم من

الصورة، بدأ المشلول يتلاشى وهو يودع الجميع مصافحة، وكأنه يُمحى من الدنيا على حافة سفينة مبحرة.

لم يكن موته هو الراحة التي ينتظرها الجميع للأرملة. فقد ظلت مغمومة جداً مما دعا أولادها إلى الاجتماع لسؤالها كيف يمكنهم مواساتها، فردت عليهم بأنها لا تريد شيئاً سوى الذهاب إلى روما ورؤية البابا. وحذرتهم قائلة:

ـ سأذهب وحيدة ومرتدية مسوح القديس فرانثيسكو. هذا نذر.

الشيء الوحيد السار الذي بقي لها من سنوات السهر تلك هو متعة البكاء. وحين اضطرت وهي في السفينة إلى تقاسم القمرة مع راهبتين غادرتا السفينة في مرسيليا، كانت تتأخر في المرحاض كي تبكي دون أن يراها أحد. وهكذا كانت غرفة الفندق في نابولي هي المكان الوحيد المناسب للبكاء على هواها، منذ أن غادرت ريوهاتشا. وكانت ستبكي حتى موعد انطلاق القطار إلى روما في اليوم التالي، لو لم تطرق صاحبة الفندق عليها الباب في الساعة السادسة لتذكرها بأنها إذا لم تذهب إلى المطعم في الوقت المناسب، فسوف تبقى دون طعام.

اصطحبها موظف الفندق ليدلها على المطعم. كانت هناك نسمة باردة قد بدأت تهب من البحر، وكان بعض المستحمين لا يزالون على الشاطئ تحت شمس الساعة السابعة الباهتة. لحقت السيدة برودينثيا لينيرو الموظف في الشوارع الصاعدة والضيقة التي كانت

تستيقظ للتو من قيلولة يوم الأحد، ووجدت نفسها فجأة تحت عريشة وارفة، حيث توجد مناضد للطعام مغطاة بشراشف ذات مربعات حمراء، وعليها مرطبانات مخللات فارغة تستخدم كمزهريات فيها أزهار ورقية. الزبائن الوحيدون في تلك الساعة المبكرة كانوا عمال الخدمة في المطعم، وكاهن فقير جداً يأكل بصلاً وخبزاً في ركن منزو. ولدى دخولها، أحست بأن الجميع يتطلعون إليها بسبب مسوحها الرمادية، ولكنها لم تتأثر، لأنها تعلم أن تحول المرء إلى أضحوكة هو جزء من التوبة والتكفير عن الذنوب. أما النادلة بالمقابل، فقد أثارت في نفسها شيئاً من الشفقة، لأنها كانت شقراء وجميلة وتتكلم كما لو أنها تغني. ففكرت أن الوضع في إيطاليا سيئ جداً بعد الحرب، إذا كانت مثل هذه الفتاة مضطرة للخدمة في مطعم، ولكنها أحست بالراحة في الجو المزهر تحت العريشة. وأيقظت فيها روائح الطبخ بأوراق الغار، في المطبخ، الجوع المؤجل بسبب هموم ذلك اليوم. ولأول مرة، منذ زمن طويل، لم تشعر بالرغبة في البكاء.

وبالرغم من ذلك، لم تستطع أن تأكل كما تشتهي، لأنها وجدت، من جهة أولى، صعوبة كبيرة في التفاهم مع النادلة الشقراء التي كانت مع ذلك لطيفة وصبورة؛ ومن جهة أخرى لأن اللحم الوحيد المتوافر هو لحم العصافير المغردة التي يربونها في أقفاص في بيوت ريوهاتشا. الكاهن الذي كان يأكل في الركن، وانتهى إلى تقديم خدماته كمترجم لها مع النادلة، حاول أن يُفهمها

أن حالة طوارئ الحرب لم تنته في أوروبا بعد، وأنه عليها أن تنظر إلى وجود عصافير برية تؤكل كمعجزة. ولكنها رفضت أن تأكلها.

ـ إن ذلك سيكون بالنسبة إليّ كأنني آكل أحد أبنائي ـ قالت.

وكان عليها أن تقنع بحساء شعيرية، وطبق من الكوسا المسلوقة مع شرائح صغيرة من لحم الخنزير الزنخ، وقطعة خبزتبدو كأنها قطعة من الرخام. وبينما هي تأكل، دنا الكاهن منها ليتوسل إليها أن تدعوه، على سبيل الإحسان، لتناول فنجان من القهوة، وجلس معها. كان يوغسلافياً، ولكنه عمل مبشراً في بوليفيا، وكان يتكلم، بصعوبة، قشتالية معبرة. بدا للسيدة برودينثيا لينيرو رجلاً عادياً لا يملك أدنى قدر من الحلم، ولاحظت أن يديه قبيحتان وأظفارهما متشظية وقذرة، وكانت تنبعث منه رائحة بصل دائمة، تبدو جزءاً من شخصيته. ولكنه في نهاية المطاف رجل في خدمة الرب، ثم إن اللقاء بشخص يمكنها التفاهم معه وهي بعيدة كل هذا البعد عن بيتها، هو متعة جديدة أيضاً.

تبادلا الحديث بتمهل، ساهيين عن ضجة الاسطبل التي كانت تتزايد كلما ازداد عدد الزبائن على الطاولات الأخرى. وكانت السيدة برودينثيا لينيرو قد أصدرت حكمها القاطع بشأن إيطاليا: لا تعجبها. ليس لأن الرجال متعسفون قليلاً، وهذا كثير؛ وليس لأنهم يأكلون العصافير، وهذا أكثر من كثير؛ وإنما لطبيعتهم الخبيثة في ترك الغرقى يهيمون مع التيار.

الكاهن الذي كان قد طلب على حسابها، فضلاً عن القهوة، كأساً من الغَرَّابا، حاول أن يبين لها سطحية حكمها ذاك. ففي زمن الحرب وُضع نظام خدمات فعال جداً لإخراج الغرقى الكثيرين الذين كانوا يظهرون كل صباح طافين في مياه خليج نابولي، وتحديد هوياتهم ودفنهم في المقابر.

وانتهى الكاهن إلى القول:

ـ منذ قرون وعى الإيطاليون أنه لا توجد إلا حياة واحدة، وهم يحاولون أن يعيشوها على أفضل وجه يستطيعونه. وهذا جعلهم متحسبين ومتقلبين، ولكنه أشفاهم من القسوة أيضاً.

ـ حتى إنهم لم يوقفوا السفينة ـ قالت.

ـ ما يفعلونه هو إخطار سلطات الميناء بواسطة جهاز الإرسال ـ قال الكاهن ـ، ولا بد أنهم الآن قد أخرجوا الغريق ودفنوه وفق مشيئة الرب.

بدلت المحادثة مزاج الاثنين. كانت السيدة برودينثيا لينيرو قد انتهت من تناول الطعام، وعندئذ فقط انتبهت إلى أن جميع الموائد صارت مشغولة. وعلى أقربها إليها كان هناك سائحون شبه عراة يأكلون بصمت، وكان بينهم بعض العشاق الذين يتبادلون القبلات بدلاً من تناول الطعام. أما على الموائد التي في صدر المحل، قريباً من الكونتوار، فكان هناك زبائن من أهالي الحي يلعبون النرد

ويشربون نبيذاً لا لون له. فأدركت السيدة برودينثيا أن هناك سبباً وحيداً لوجودها في ذلك البلد البغيض.

ـ هل تظن حضرتك أن هناك صعوبة كبيرة في رؤية البابا؟ ـ سألت.

وأجابها الكاهن بأنه ليس هناك ما هو أسهل من ذلك في الصيف. فقد كان البابا يقضي إجازته في قلعة غاندولفو، وفي مساء كل يوم أربعاء، يستقبل في جلسة عامة حجاجاً من جميع أرجاء العالم. وكان رسم الدخول زهيداً جداً: عشرون ليراً.

ـ وكم يتقاضى مقابل تلقي الاعتراف؟ ـ سألته.

فقال الكاهن بشيء من الاستنكار:

ـ الأب المقدس لا يتلقى اعترافات أحد، باستثناء الملوك طبعاً.

ـ لا أرى سبباً يجعله يرفض تقديم هذا الجميل لامرأة بائسة جاءت من بعيد جداً ـ قالت.

ـ حتى بعض الملوك، وهم ملوك، ماتوا وهم ينتظرون ـ قال الكاهن ـ ولكن، لا بد أنها خطيئة رهيبة جعلتك تقومين بمثل هذه الرحلة لمجرد الاعتراف أمام الحبر الأعظم.

لم تفكر السيدة برودينثيا لينيرو في الأمر لحظة واحدة، ورآها الكاهن تبتسم أول مرة، وقالت:

ـ المجد لمريم الطاهرة! تكفيني رؤيته. ـ ثم أضافت مع زفرة بدت كأنها تخرج من روحها :ـ لقد كان حلم حياتي!

الحقيقة أنها كانت لا تزال خائفة وحزينة. والشيء الوحيد الذي كانت ترغب فيه هو الذهاب فوراً، ليس من المكان وحسب، بل من إيطاليا كلها. ولا بد أن الكاهن قد أحس بأن تلك الممسوسة لن تقدم له شيئاً آخر، فتمنى لها حظاً سعيداً ومضى إلى منضدة أخرى ليطلب أن يقدموا له فنجاناً من القهوة على سبيل الإحسان.

عندما خرجت السيدة برودينثيا لينيرو من المطعم، وجدت المدينة وقد تبدلت، فاجأها ضوء الشمس في الساعة التاسعة ليلاً، وأرعبتها الجموع الصاخبة التي اقتحمت الشوارع في سكينة النسيم الجديد. لم يكن العيش ممكناً على دوي كل دراجات الفيسبا النارية المجنونة التي يقودها رجال دون قمصان، يحملون وراءهم نساءهم الجميلات اللواتي يتمسكن بخصورهم، ويشقون طريقهم في طفرات متلوية بين الخنازير المعلقة ومناضد بيع البطيخ.

كانت الأجواء أجواء احتفال، لكن السيدة برودينثيا لينيرو رأتها أجواء كارثة. سألت عن الطريق. ووجدت نفسها فجأة في شارع غير صحيح، فيه نساء يجلسن عند أبواب بيوتهن المتشابهة التي سببت لها أضواؤها الحمراء المتقطعة ارتعاشة ذعر ولحق بها لعدة كوادرات رجل جيد الملابس، يضع في إصبعه خاتماً ذهبياً،

وجوهرة على ربطة عنقه، وكان يقول لها شيئاً ما بالإيطالية، ثم بالإنكليزية والفرنسية بعد ذلك.. وحين لم يحظ برد منها، عرض عليها بطاقة بريدية من رزمة بطاقات أخرجها من جيبه، ولم تكن بحاجة إلا لنظرة واحدة كي تعرف أنها كانت تجتاز الجحيم.

هربت مذعورة، وفي نهاية الشارع وجدت من جديد البحر الغسقي برائحة الحيوانات البحرية المتعفنة نفسها التي تنطلق من ميناء ريوهاتشا، فعاد قلبها إلى مكانه. وتعرفت على الفنادق ذات الألوان قبالة الشاطئ المقفر، وسيارات الأجرة الجنائزية، وألماسة النجمة الأولى في السماء الرحبة. وفي طرف الخليج رأت السفينة التي وصلت فيها، وحيدة في الميناء، وكانت ضخمة ومضاءة. ولكنها انتبهت إلى أنه لم تعد لها أية علاقة بحياتها. ومن هناك، انعطفت إلى اليسار، ولكنها لم تستطع التقدم، فقد كان هناك حشد من الفضوليين توقفهم عند حدّ معين دورية من رجال الدرك. وكان هناك صف من سيارات الإسعاف تنتظر وأبوابها مفتوحة أمام مبنى الفندق.

تطلعت السيدة برودينثيا لينيرو من فوق أكتاف الفضوليين، ورأت حينئذ السياح الإنكليز من جديد. كانوا يُخرجونهم، واحداً واحداً، على حمالات إسعاف، وجميعهم كانوا يبدون وقورين ودون حراك، وكانوا لا يزالون يشبهون شخصاً واحداً مكرراً عدة مرات، بالبدلة الرسمية التي ارتدوها للعشاء: بنطال من قماش

صوفي رقيق، وربطة عنق ذات خطوط مائلة، والسترة الغامقة التي تحمل شعار ترينيتي كوليج مطرزاً على جيب السترة. وكان الجيران على الشرفات، والفضوليون في الشارع، يعدونهم معاً بصوت جماعي، كما في استاد رياضي، كلما أخرجوا واحداً منهم. كانوا سبعة عشر. وضعوهم في سيارات الإسعاف اثنين اثنين، وانطلقوا بهم وسط دوي صفارات إنذارها الحربية.

صعدت السيدة برودينثيا لينيرو وهي مصعوقة من كل تلك الأحداث، وفي المصعد الممتلئ بزبائن الفنادق الأخرى الذين يتكلمون لغات مغلقة عليها. وكانوا ينزلون في كل الطوابق، باستثناء الطابق الثالث الذي كان مفتوحاً ومضاء، ولكن لم يكن هناك أحد وراء الكونتوار أو على مقاعد البهو، حيث رأت الركب الوردية للسبعة عشر إنكليزياً النائمين. كانت صاحبة الطابق الخامس تعلق على الكارثة بحماسة منفلتة، وقالت للسيدة برودينثيا لينيرو بالقشتالية:

ـ ماتوا جميعهم. لقد تسمموا بحساء محار العشاء. محار في آب! تصوري!

أعطتها مفتاح غرفتها دون أن توليها مزيداً من الاهتمام، وراحت تقول لزبائن آخرين بلهجتها: «بما أنه لا وجود لدي مطعم هنا، فإن كل من ينام عندنا يطلع عليه الصباح وهو حي!». ومرة

أخرى أقفلت السيدة برودينثيا لينيرو باب الغرفة بالمزلاجين، بينما كانت عقدة من الدموع محبوسة في حلقها. ثم دفعت وراء الباب طاولة الكتابة والكنبة، ووضعت أخيراً كاستحكام لا يمكن تجاوزه في مواجهة رعب ذلك البلد الذي تحدث فيه أشياء كثيرة في وقت واحد. بعد ذلك ارتدت ثياب الأرملة، واستلقت على السرير، ثم صلّت سبع عشرة سبحة من أجل الراحة الأبدية لأرواح السبعة عشر إنكليزياً المسممين.

نيسان ١٩٨٠

ريح الشمال

Tramontana

رأيته مرة واحدة في «**بوكاشيو**»، الكباريه الرائج في برشلونة، قبل ساعات قليلة من ميتته المشؤومة. كانت تطارده عصبة شبان سويسريين يحاولون أخذه معهم، في الساعة الثانية فجراً، لإنهاء الحفلة في كاداكيس. كانوا أحد عشر، يصعب التمييز بينهم، الرجال والنساء منهم يبدون متشابهين. فهم جميلون ذوو أرداف ضيقة وشعور ذهبية طويلة. ويجب ألا يكون هو قد تجاوز العشرين من عمره. رأسه مغطى بتجعيدات كثة، وله بشرة ضاربة إلى الصفرة ولامعة كبشرة الكاريبيين الذين اعتادوا من أمهاتهم على المشي في الظل، وفي عينيه نظرة غريبة كأنها خُلقت لتفتن السويسريات، وربما بعض السويسرين أيضاً. كانوا قد أجلسوه إلى منضدة الكونتوار مثل دمية تتكلم من بطنها، وراحوا يغنون له أغنيات رائجة يرفقونها بإيقاع من أكفهم، ليقنعوه بالذهاب معهم. وكان يشرح لهم أسبابه مذعوراً. وتدخل أحد الحاضرين ليطلب منهم أن

يتركوه وشأنه، فتصدى له أحد السويسريين وهو يكاد يموت من الضحك:

ـ إنه لنا ـ قال صارخاً ـ لقد وجدناه ملقى في صندوق الزبالة.

كنت قد دخلت قبل قليل مع جماعة من الأصدقاء بعد حضورنا الكونشيرتو الأخير الذي قدمه دافيد أوستراخ في قصر الموسيقى، وقد اقشعر بدني من عدم اقتناع السويسريين بتركه. فالأسباب التي كان الفتى يطرحها مقدسة. لقد كان يعيش في كاداكيس حتى الصيف الماضي، حيث تعاقد لغناء أغنيات أنتيلية في حانة رائجة، وظل هناك إلى أن هزمته ريح الشمال. وقد تمكن من مغادرة المكان هارباً في اليوم التالي وقرر عدم العودة إليه أبداً، سواء أكانت هناك ريح شمالية أم لم تكن، ليقينه بأن الموت ينتظره إذا ما عاد ثانية. وكان ذاك نوعاً من الإيمان الكاريبي الذي لا يمكن أن تفهمه عصبة الشماليين العقلانيين المتأججين بالحر وبنبيذ كتالونيا القوي في ذلك الحين، والذي كان يزرع في القلب أفكاراً خارقة للنواميس والأعراف.

أما أنا فكنت أفهمه كما لا يمكن لأحد أن يفهمه. لقد كانت كاداكيس إحدى أجمل قرى شاطئ كوستابرافا، وأكثرها محافظة. وبعض السبب في ذلك يعود إلى أن الطريق إليها جبلي ضيق ومتعرج على حافة هاوية بلا قرار، حيث لا بد أن تكون الروح ثابتة جداً كي يتمكن المرء من قيادة السيارة بسرعة تزيد على

خمسين كيلومتراً في الساعة. بيوتها القديمة بيضاء وواطئة، على الطريقة التقليدية لقرى الصيد على شواطئ البحر المتوسط. أما البيوت الجديدة فأشرف على بنائها مهندسون معماريون مشهورون احترموا التناسق الأصلي. وفي الصيف، حين يبدو الحر كأنه آتٍ من الشاطئ الأفريقي المقابل، كانت كاداكيس تتحول إلى بابل جهنمية، تغص بسياح من كل أرجاء أوروبا، ينازعون طوال ثلاثة شهور سكانها الأصليين جنتهم وجنة الغرباء الذين حالفهم الحظ بشراء بيت بسعر مناسب حين كان الشراء لا يزال ممكناً. ومع ذلك، وعندما تصبح كاداكيس مرغوبة أكثر، في فصلي الربيع والخريف، لم يكن هناك من يتوقف عن التفكير مذعوراً بريح الشمال، ريح الأراضي القاسية والعنيدة، والتي يقول الأهالي وبعض الكتّاب الذين وقعوا في المحنة إنها تحمل معها بذرة الجنون.

منذ نحو خمس عشرة سنة كنت من روادها المواظبين، إلى أن تقاطعت ريح الشمال مع حيواتنا. أحسست بها قبل مجيئها، في ساعة القيلولة في أحد أيام الآحاد، ومن خلال نُذر لا يمكن تفسيرها، تشير إلى أن شيئاً ما سيحدث. خمدت همتي، وأحسست بالكآبة دون سبب، وشعرت بأن ابنيّ، وهما دون العاشرة في ذلك الحين، يلاحقاني عبر البيت بنظرات عدائية. وبعد قليل دخل البواب حاملاً صندوق عدّة وحبالاً بحرية لتثبيت النوافذ والأبواب، ولم يفاجأ بحالة الإنهاك التي أشعر بها.

ـ إنها ريح الشمال. وستكون هنا بعد أقل من ساعة ـ قال لي.

كان رجل بحر قديم، عجوزاً جداً، يحتفظ من مهنته بتلك السترة الواقية من المطر، والقبعة والغليون، وبشرته المحروقة بأملاح بحار العالم. وكان في ساعات فراغه يلعب لعبة البتانكو في الساحة مع محاربين قدماء في عدة معارك خاسرة، ويتناول المقبلات مع السياح في حانات الشاطئ. فقد كانت لديه القدرة على التفاهم مع أناس من جميع اللغات بكتلانية المدفعي التي يتكلمها. وكان يفتخر بأنه يعرف جميع موانئ الكوكب الأرضي، ولكنه لا يعرف مدينة داخلية واحدة، ويقول: «ولا حتى باريس الفرنسية، على الرغم مما هي باريس». وهو لا يثق بأية مركبة ما لم تكن بحرية.

في السنوات الأخيرة شاخ دفعة واحدة، ولم يعد يخرج إلى الشارع. كان يقضي معظم وقته في وكره كبواب، وحيداً، مثلما عاش حياته كلها. كان يطهو طعامه بنفسه في علبة من الصفيح، على موقد كحولي، وبهذا كان يجد ما يكفي كي نستمتع جميعنا بلذائذ المطبخ القوطي. ومنذ الفجر كان يهتم بشؤون المستأجرين، شقة فشقة. وكان أحد أفضل الرجال الخدومين الذين تعرفت إليهم في حياتي، يضاف إلى ذلك ما يتمتع به من كرم الكتلانيين غير الإرادي وحنانهم الخشن. كان قليل الكلام، لكنه يتكلم بأسلوب مباشر وصائب. وعندما لا يكون لديه ما يفعله، يقضي ساعات

وساعات في ملء جداول يانصيب التنبؤ بنتائج كرة القدم، لكنه قلما يلصق عليها طابع الاشتراك في المراهنات.

في ذلك اليوم، وبينما هو يدعم الأبواب والنوافذ تحسباً للكارثة، حدثنا عن ريح الشمال كما لو أنها امرأة فظيعة؛ ولكن حياته تصبح بلا معنى من دونها. وقد فوجئت لأن رجل بحر يقدم مثل تلك الإتاوة لريح تأتي من اليابسة.

ـ إنها أكثر قِدماً ـ قال.

وكان المرء يشعر بأنه لا يقسم سنواته إلى أيام وشهور، وإنما إلى عدد المرات التي جاءتها ريح الشمال. «السنة الماضية، وبعد حوالي ثلاثة أيام من هبة ريح الشمال الثانية، أُصبتُ بنوبة مغص حادة»، هكذا قال لي في إحدى المرات. وربما أوضح ذلك إيمانه بأنه بعد كل ريح شمال يشيخ عدة سنوات. وقد كان تسلُّط الفكرة عليه شديداً إلى حد أننا نتلهف إلى التعرف عليها كزيارة قاتلة وشائقة.

ولم يكن علينا أن ننتظر طويلاً. فما كاد البواب يخرج حتى سُمع صفير أخذ يزداد حدة وزخماً، ثم انقض في دوي أشبه بهزة أرضية. وعندئذ بدأت الريح، في هبات متفرقة أول الأمر، ثم أخذت تتزايد أكثر فأكثر إلى أن صارت متواصلة، دون توقف ودون سكون، بزخم وعتو فيهما شيء خارج عن المألوف. كانت شقتنا، خلافاً لما هو شائع في الكاريبي، تقوم قبالة الجبل، وربما كان

ذلك بسبب حب الكتلانيين العريقين الغريب للبحر، ولكن دون أن يروه. وهكذا كانت الريح تصفعنا من الجهة الأمامية مهددة بتقطيع أحزمة النوافذ.

وأكثر ما لفت انتباهي هو أن الطقس ظل محتفظاً ببهاء لا يتكرر، بشمس ذهبية وسماء صافية. حتى إنني قررت الخروج إلى الشارع مع الطفلين لرؤية حالة البحر. ولأن الصغيرين، في نهاية المطاف، قد ترعرعا بين زلازل المكسيك وأعاصير الكاريبي، فقد بدا لنا أن ريحاً أقوى أو أخف لا يمكن أن تسبب القلق لأحد. مررنا على رؤوس أصابعنا أمام حجرة البواب، ورأيناه ساكناً أمام طبق فاصولياء مع السجق وهو يتأمل الريح عبر النافذة. ولم يرنا ونحن نخرج. تمكنا من المشي أثناء احتمائنا بالبناء، ولكننا حين وصلنا إلى الناصية المكشوفة اضطررنا إلى التشبث بأحد الأعمدة كي لا تسحبنا قوة الريح، وبقينا هناك نتأمل بإعجاب البحر الهادئ والصافي وسط الكارثة، إلى أن جاء البواب وأنقذنا بمساعدة بعض الجيران. وعندئذ فقط اقتنعنا بأن الشيء العقلاني الوحيد هو البقاء محبوسين في البيت إلى أن يشاء الله. ولم تكن لدى أحد حينئذ أي فكرة عن الموعد الذي سيشاء فيه.

بعد مضي يومين، أحسسنا أن تلك الريح المرعبة ليست ظاهرة أرضية وإنما هي إساءة شخصية يوجهها أحدهم ضد أحد بعينه، وضد واحد بعينه فقط. كان البواب يزورنا عدة مرات في اليوم،

قلقاً على حالتنا المعنوية، وكان يأتينا بفواكه الموسم وكعك للطفلين. ومن أجل غداء يوم الأحد، أهدى إلينا طبق البستنة الكتلاني المتفوق، محضّراً في علبة مطبخه الصفيحية: لحم أرنب مع حلزونات. فكانت حفلة وسط الرعب.

أما يوم الأربعاء، حين لم يحدث أي شيء آخر سوى الريح، فقد كان أطول أيام حياتي. ولكن لا بد أنه كان شيئاً أشبه بعتمة الفجر، لأننا استيقظنا جميعاً في الوقت نفسه بعد منتصف الليل، متضايقين من الصمت المطبق الذي لا يمكن له أن يكون إلا صمت الموت. لم تكن تتحرك ورقة واحدة على الأشجار من جهة الجبل. وهكذا خرجنا إلى الشارع حين لم يكن هناك نور بعد في غرفة البواب، واستمتعنا بسماء الفجر وهي بكامل نجومها اللامعة، وبالبحر الفوسفوري المشع. وعلى الرغم من أن الساعة كانت دون الخامسة، إلا أن عدداً كبيراً من السائحين كان يستمتع بالسكينة على صخور الشاطئ، وبدأ بعضهم بتهيئة زوارقهم الشراعية بعد ثلاثة أيام من الاعتكاف.

لم يلفت انتباهنا عند خروجنا أن غرفة البواب مظلمة. لكننا حين رجعنا إلى البيت، كان الهواء قد أصبح فوسفورياً كالبحر، وكانت غرفة البواب لا تزال مطفأة الأنوار. طرقنا الباب مرتين وقد استغربنا الأمر، ولأننا لم نتلق أي ردّ، فقد دفعتُ الباب. أظن أن الطفلين قد رأياه قبلي، وأطلقا صرخة رعب. فالبواب العجوز،

بشعارات البحار البارز المتدلية من ياقة سترته البحرية، كان معلقاً من عنقه إلى دعامة السقف الوسطى، وهو لا يزال ينوس بفعل الهبة الأخيرة من ريح الشمال.

في ذروة النقاهة، وبإحساس بالحنين المسبق، غادرنا القرية قبل الموعد المقرر، واتخذنا قراراً لا رجعة فيه بعدم العودة إليها أبداً. كان السائحون قد عادوا إلى الشارع من جديد، وكانت هناك موسيقى في ساحة قدماء المحاربين الذين لم يكونوا يبدون أية حماسة في قذف كرات البيتانكا. ومن خلال زجاج مقهى ماريتيم المعفر، تمكنا من رؤية بعض الأصدقاء الناجين، وقد بدؤوا الحياة من جديد في ربيع الشمال المشع ذاك. لكن هذا الأمر كله صار ينتمي إلى الماضي.

لهذا السبب، وفي فجر ذلك اليوم الحزين في كباريه **بوكاشيو**، لم يكن هناك من يفهم مثلي رعب شخص يرفض العودة إلى كاداكيس لأنه متأكد من أنه سيموت هناك. ومع ذلك، لم تكن ثمة طريقة لثني السويسريين الذين انتهى بهم الأمر إلى حمل الفتى بالقوة تحت الادعاء الأوروبي بضرورة تطبيق علاج حماري على شعوذته الأفريقية.

أدخلوه وهو يرفس بقدمية إلى شاحنة سكارى، وسط تصفيق وسخرية الزبائن المنقسمين، وانطلقوا في تلك الساعة في الرحلة الطويلة إلى كاداكيس.

في الصباح التالي أيقظني الهاتف. وكنت قد نسيت أن أسدل الستارة عند عودتي من الحفلة، ولم تكن لدي أية فكرة عن الوقت، ولكن غرفة النوم كانت مجللة ببهاء الصيف. وقد أيقظني تماماً الصوت الجزع القادم عبر الهاتف، والذي لم أتبين صاحبة للوهلة الأولى:

ـ هل تذكر الفتى الذي حملوه في الليل إلى كاداكيس؟

ولم أكن بحاجة إلى سماع المزيد. اللهم إلا أن الأمر لم يكن مثلما تخيلته، وإنما أكثر مأساوية. فالفتى المذعور من العودة الوشيكة، انتهز سهو السويسريين المجانين وألقى بنفسه من السيارة المنطلقة بسرعة إلى الهوة السحيقة، محاولاً بذلك الهرب من موت محتم.

كانون الثاني ١٩٨٢

صيف السيدة فوربس السعيد

El verano feliz de la senora Forbes

عندما عدنا إلى البيت في المساء، وجدنا ثعبان بحر ضخماً معلقاً من عنقه في إطار الباب، كان أسود لامعاً، وبدا مثل تعويذة غجر شريرة. عيناه لا تزالان تشعان بالحياة وأسنانه المنشارية بادية في فكيه المفتوحين. كنت في ذلك الحين في التاسعة من عمري، وأحسست برعب هائل أمام ذلك المنظر الهذياني، حتى إن صوتي انحبس. أما أخي الذي كان يصغرني بسنتين، فقد أفلت اسطوانات الأكسجين وقناع الغوص وأقدام السباحة الزعنفية، ومضى هارباً وهو يطلق صرخة رعب. سمعته السيدة فوربس من السلم الحجري المتعرج الذي يصعد بين الصخور من المرسى حتى البيت، فلحقت بنا لاهثة وشاحبة. وكانت رؤيتها للحيوان المصلوب على الباب كافية لجعلها تدرك سبب رعبنا. لقد اعتادت أن تقول إنه عندما يكون هناك طفلان معاً فكلاهما مذنب في ما يفعله كل واحد منهما، ولهذا أنبتنا نحن الاثنين على صرخات أخي، وواصلت توبيخها لنا لعدم سيطرتنا على نفسينا. تكلمت بالألمانية، وليس

بالإنكليزية مثلما يطالبها عقد عملها كمربية، ربما لأنها كانت خائفة أيضاً وترفض الإقرار بذلك. ولكنها ما إن التقطت أنفاسها حتى عادت إلى إنكليزيتها الحجرية، وقالت لنا:

- إنها حية *هيلينية سمراء*، هكذا تسمى لأنها كانت حيواناً مقدساً عند قدماء الإغريق.

ظهر أوريستي فجأة من وراء شجيرات الكبَّار. إنه الفتى الوطني الذي يدربنا على الغوص في المياه العميقة. كان يضع نظارة الغوص على جبهته، ويرتدي سروال سباحة صغيراً جداً، ويلف حول خصره حزاماً جلدياً فيه ست مُدى مختلفة الأشكال والأحجام، لأنه لم يكن يعرف طريقة أخرى للصيد تحت الماء إلا الصراع جسداً لجسد مع الحيوانات. كان في نحو العشرين من عمره، وكان يقضي في الأعماق البحرية وقتاً أطول مما يقضيه على اليابسة، وكان هو نفسه يبدو مثل حيوان بحري بجسده المطلي بشحم المحركات. عندما رأته السيدة فوربس أول مرة، قالت لوالدي إنه من المستحيل تصور وجود كائن بشري أجمل منه، ومع ذلك، فإن جماله لم ينقذه من صرامتها. وكان عليه أن يتحمل توبيخاً بالإيطالية لأنه علق الحية السمراء على الباب، دون أي مبرر آخر ممكن سوى إخافة الطفلين. ثم أمرته السيدة فوربس بنزعها من مكانها بالاحترام اللائق بمخلوق أسطوري، وأمرتنا بأن نذهب لارتداء ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ذلك فوراً ونحن نحاول ألا نقترف خطأ واحداً، لأننا

تعلمنا بعد أسبوعين من الحياة في ظل نظام السيدة فوربس أنه ليس هناك ما هو أقسى من العيش. وبينما نحن نستحم في الحمام المعتم، انتبهت إلى أن أخي ما زال يفكر في السمراء، فقد قال لي: «لها عينا بشر». وكنت متفقاً معه، لكنني أقنعته بعكس ذلك، وتمكنت من تغيير الموضوع إلى أن انتهيت من الاستحمام. ولكن، عندما خرجتُ من تحت الدوش، طلب مني أخي أن أبقى معه.

ـ مازال الوقت نهاراً ـ قلت له.

ثم أزحت الستارة. كنا في أوج آب، وبدا من خلال النافذة السهب القمري الملتهب الممتد حتى الجانب الآخر من الجزيرة، والشمس المتوقفة في السماء.

ـ ليس هذا ما أعنيه ـ قال أخي ـ لكنني أخاف أن يتملكني الخوف.

ومع ذلك، فقد بدا هادئاً عندما وصلنا إلى المائدة، وعمل كل شيء بإتقان استحق معه تهنئة خاصة من السيدة فوربس، ونقطتين إضافيتين على رصيده الأسبوعي الجيد. أما أنا بالمقابل، فقد حسمت لي نقطتين من النقاط الخمس التي كنت قد نلتها، لأني تعجلت في اللحظة الأخيرة، ووصلت إلى غرفة الطعام وأنا مضطرب الأنفاس. كان حصولنا على خمسين نقطة يمنحنا الحق بتناول حصة مضاعفة من الحلوى، ولكن أياً منا لم يستطع تجاوز الخمس عشرة نقطة. وكان ذلك مؤسفاً حقاً، لأننا لم نجد منذ ذلك

الحين مطلقاً حلوى بودين ألذ من تلك التي كانت تصنعها السيدة فوربس.

قبل البدء بتناول العشاء كنا نصلي ونحن واقفون أمام الأطباق الفارغة. ومع أن السيدة فوربس لم تكن كاثوليكية، إلا أن عقد عملها يشترط عليها أن تجعلنا نصلي ست مرات في اليوم، وقد تعلمت صلواتنا كي تنفذ شروط العقد. بعد ذلك، كنا نجلس ثلاثتنا، حابسين أنفاسنا بينما هي تتفحص أدق تفاصيل سلوكنا، وعندما تتأكد من أن كل شيء على ما يرام، تقرع الجرس، وعندئذ تدخل الطاهية فولفيا فلامينيا حاملة حساء الشعيرية الأبدي في ذلك الصيف المضجر.

في البداية، حين كنا وحدنا مع والدينا، كان تناول الطعام يتحول إلى حفلة. كانت فولفيا فلامينيا تقدم لنا الطعام وهي تحوم حول المائدة، بميل إلى الفوضى يبعث السعادة في الحياة، ثم تجلس معنا أخيراً، وينتهي بها الأمر إلى أكل شيء من طبق كل واحد منا. ولكن مذ تولت السيدة فوربس مسؤولية مصيرنا، أصبحت تقدم لنا الطعام بصمت مطبق يمكننا معه أن نسمع فوران الحساء الذي يغلي في القدر. كنا نتناول العشاء وعمودنا الفقري مستند إلى مسند الكرسي، ونمضغ اللقمة عشر مرات في أحد الحنكين، ثم عشر مرات أخرى في الحنك الآخر، دون أن نرفع بصرنا عن السيدة الحديدية النحيلة الخريفية وهي تلقي علينا من

ذاكرتها دروساً في التمدن. كان العشاء أشبه بقداس الأحد، ولكن دون سلوى الناس الذين يغنون.

في اليوم الذي وجدنا فيه السمراء الميتة معلقة على الباب، حدثتنا السيدة فوربس عن الواجبات تجاه الوطن. وبعد الحساء قدمت لنا فولفيا فلامينيا التي كانت تطفو في الجو المخلخل بصوت السيدة فوربس، شريحة مشوية على الفحم من لحم ثلجي تعبق برائحة شهية. أنا الذي كنت أفضل منذ ذلك الحين لحم السمك على أي شيء آخر في الأرض أو في السماء، سكّنت تلك الذاكرة لبيتنا في غواكامايال اضطراب قلبي. لكن أخي رفض طبقه دون أن يتذوقه.

ـ لا يعجبني ـ قال.

قطعت السيدة فوربس الدرس وقالت له:

ـ لا يمكنك معرفة ذلك، فأنت لم تذقه بعد.

ثم توجهت إلى الطاهية بنظرة تحذير، ولكن بعد فوات الأوان. فقد قالت فوافيا فلامينيا:

ـ السمراء هي أفخر سمك في العالم يا صغيري، تذوقها وسترى ذلك.

لم تضطرب السيدة فوربس. وروت لنا بمنهجيتها الصارمة، أن السمراء كانت طعام الملوك المفضل في قديم الزمان، وأن المحاربين كانوا يتنازعون مرارتها لأنها تمنحهم شجاعة خارقة. ثم

كررت علينا ما قالته مرات كثيرة في تلك الفترة القصيرة، بأن الذوق الجيد في الأكل ليس موهبة خِلقِّية، كما أنه من غير الممكن تعلمه في أية فترة من فترات العمر، وإنما يجب فرضه فرضاً منذ الطفولة. وهكذا لم يكن هناك أي مبرر لعدم الأكل. أنا الذي كنت قد تذوقت السمراء قبل أن أعرف ما هي، بقيت أشعر إلى الأبد بالتناقض: كان لها طعم صافٍ، وإن خالطه شيء من الكآبة، ولكن صورة الثعبان المعلق في عارضة الباب العليا كانت أكثر تسلطاً من شهيتي. بذل أخي أقصى ما لديه من الجهد لابتلاع اللقمة الأولى، لكنه لم يطقها: وتقيأ.

قالت له السيدة فوربس دون أن تضطرب:

ـ ستذهب إلى الحمام، وتنظف نفسك جيداً، ثم تعود لتأكل.

شعرتُ بغم شديد من أجله. فقد كنت أعرف كم يعذبه اجتياز البيت كله مع العتمة الأولى، والبقاء وحيداً في الحمام طوال الوقت الذي يتطلبه غسل فمه. لكنه رجع سريعاً وهو يرتدي قميصاً آخر نظيفاً، وكان شاحباً يرتعش ارتعاشة خفيفة، وتحمل جيداً التفتيش الصارم على نظافته. وبعدئذ قطعت السيدة فوربس قطعة من السمراء، وأصدرت الأمر بمواصلة تناول الطعام. ابتلعتُ لقمة أخرى بمشقة بالغة. أما أخي فامتنع حتى عن الإمساك بأدوات الطعام.

ـ لن آكلها ـ قال.

كان تصميمه حازماً لدرجة أن السيدة فوربس تفادت المواجهة.

ـ لا بأس ـ قالت ـ ولكنك لن تأكل الحلوى.

وقد بثت طمأنينة أخي الحماسة في نفسي، فقاطعتُ الشوكة والسكين فوق الطبق، مثلما علمتنا السيدة فوربس أن نضعهما عند الانتهاء من الطعام، وقلت:

ـ وأنا لن آكل حلوى أيضاً.

ـ ولن تشاهدا التلفزيون ـ ردت عليّ.

ـ ولن نشاهد التلفزيون ـ قلت.

وضعت السيدة فوربس الفوطة على المنضدة، ونهضنا ثلاثتنا كي نصلي. بعد ذلك أرسلتنا إلى غرفة النوم مع تحذيرنا بأنه علينا أن نغفو قبل أن تنتهي هي من تناول الطعام. كما أن جميع النقاط التي كنا قد حصلنا عليها قد أُلغيت، ولن يكون بإمكاننا، قبل الحصول على عشرين نقطة، التلذذ مجدداً بحلوى الكريمة، وكعكة الفانيليا، وبسكويت الكرز الشهي الذي كانت تصنعه لنا، والذي لن نتذوق مثله طوال ما تبقى من حياتنا.

كان لا بد لتلك القطيعة من أن تأتي عاجلاً أو آجلاً. فطوال سنة كاملة كنا ننتظر بلهفة ذلك الصيف الحُر الذي سنقضيه في جزيرة بانتيلاريا، في أقصى جنوب صقلية. وقد كان كذلك فعلاً خلال الشهر الأول، حين كان أبوانا معنا. ومازلت أتذكر، كما في حلمٍ، بطحاء الصخور البركانية الشمسية، والبحر الخالد، والبيت

المطلي كله بالكلس، حتى جدران الآجر فيه، والذي كانت تظهر من نوافذه، في الليالي الصافية، أحزمة الضوء المنبعثة من منارات الشاطئ الأفريقي. وبينما كنا نستكشف مع أبي الأعماق البحرية الهاجعة حول الجزيرة، اكتشفنا وجود صف طوربيدات صفراء، ملتصقة بالقاع منذ الحرب الأخيرة. وأخرجنا جرة خزف إغريقية طولها نحو متر، مزينة بأغصان غار متحجرة، وفي قعرها تترسب ثمالة نبيذ قديم جداً وسام. وكنا قد سبحنا في مياه مدخنة وراكدة، حيث المياه كثيفة إلى حد يمكن معه المشي فوقها. لكن الاكتشاف الأكثر إبهاراً بالنسبة لنا كان فولفيا فلامينيا. فقد كانت تبدو مثل أسقف سعيد، وتمضي على الدوام محاطة بدورية من القطط الناعسة التي تعرقل مشيها، وكانت تقول إنها لا تتحملها حباً بها، وإنما لكي تحول دون أن تأكلها الجرذان. وفي الليل، بينما أبوانا يشاهدان برامج الكبار في التلفزيون، كانت تأخذنا إلى بيتها الذي يبعد أقل من مئة متر عن بيتنا، وتعلمنا تمييز الأصوات البعيدة، والأغنيات، وعويل الرياح القادمة من تونس. كان زوجها رجلاً فتياً جداً بالمقارنة معها، وكان يعمل خلال الصيف في الفنادق السياحية في الجانب الآخر من الجزيرة، ولم يكن يأتي إلى البيت إلا للنوم. وكان أوريستي يعيش مع أبويه في مكان أبعد قليلاً، ويأتي دائماً في الليل ومعه مجموعة من الأسماك المربوطة بسلك، وسلال من جراد البحر التي اصطادها للتو، ويعلقها في المطبخ كي يأخذها زوج فولفيا فلامينيا ويبيعها في الفنادق في اليوم التالي. وبعد ذلك

كان يضع نظارة الغوص على جبهته من جديد، ويصطحبنا معه لاصطياد الجرذان البرية الكبيرة كالأرانب، والتي تترصد فضلات المطابخ. وكنا نرجع إلى البيت في بعض الأحيان بعد أن يكون أبوانا قد ناما، ونكاد لا ننام بسبب الضجة التي تثيرها الجرذان وهي تتنازع على الفضلات في أفناء البيوت. ولكن، حتى ذلك الإزعاج كان عنصراً سحرياً آخر من عناصر صيفنا السعيد.

لا يمكن لقرار التعاقد مع مربية ألمانية أن يخطر إلا لوالدي، وهو كاتب من الكاريبي لديه من الخيلاء أكثر مما لديه من الموهبة. ولانبهاره برماد الأمجاد الأوروبية، كان يبدو في قلق دائم للاعتذار عن أصوله، سواء في كتبه أو في حياته الواقعية، وكان قد فرض أوهامه بأنه لن يُبقي في أبنائه على أي أثر من ماضيه. أما أمي فقد ظلت ذليلة على الدوام، مثلما كانت وهي معلمة جوالة في أعالي غواخيرا. ولم تكن تتصور أنه يمكن أن تخطر لزوجها فكرة غير ملهمة. وهكذا لم يكن لأي منهما أن يسأل نفسه بقلبه كيف ستكون حياتنا مع تلك الرقيب القادمة من دورتموند، والتي عمدت إلى تلقيننا أقدم العادات الأوروبية بالقوة، بينما هما يشاركان مع أربعين كاتباً رائجاً في رحلة بحرية ثقافية تستمر خمسة أسابيع يطوفون فيها على جزر بحر إيجة.

كانت السيدة فوربس قد وصلت يوم الخميس الأخير من شهر تموز في رحلة المركب النظامية من باليرمو. ومذ رأيناها أول مرة أدركنا أن الحفلة قد انتهت. جاءت منتعلة جزمة رجل ميليشيا

ومرتدية ثوباً ذا ياقات متقاطعة في ذلك الحر الجنوبي، وبشعر مقصوص كشعور الرجال، تحت قبعة من اللبد. وكانت تنبعث منها رائحة قرد. وقد قال لي أبي: «هكذا هي رائحة الأوروبيين كلهم، وخاصة في الصيف، إنها رائحة الحضارة». ولكن، بغض النظر عن زيها العسكري، كانت السيدة فوربس مخلوقة هزيلة، وربما كانت ستثير في نفوسنا شيئاً من الشفقة لو أننا كنا كباراً، أو لو أنها كانت تملك أثراً من الحنان. انقلبت الدنيا منذ مجيئها رأساً على عقب. فساعات البحر الست التي كانت منذ بداية الصيف تمريناً متواصلاً على التخيل، تحولت إلى ساعة واحدة متشابهة، ومكرورة في أحيان كثيرة. عندما كنا مع أبوينا كان لدينا كل الوقت الذي نشاء للسباحة مع أوريستي، فكان يذهلنا بفنه وجرأته اللذين يواجه بهما الأخطبوطات في مخابئها المعكرة بالحبر والدم، دون أن يكون لديه أي سلاح آخر سوى سكاكينه القتالية. وواصل بعد ذلك المجيء في الزورق الصغير ذي المحرك، مثلما كان يفعل دائماً، لكن السيدة فوربس لم تعد تسمح له بالبقاء معنا لحظة واحدة زائدة عن الوقت المخصص لدرس السباحة تحت الماء. ومنعتنا من الخروج ليلاً إلى بيت فولفيا فلامينيا، لأنها اعتبرت ذلك مبالغة في الألفة مع الخدم. وصار علينا أن نخصص الوقت الذي كنا نستمتع فيه من قبل باصطياد الجرذان، لقراءة أعمال شكسبير قراءة تحليلية. كان من المستحيل علينا، نحن الذين اعتدنا سرقة المانجا من الجنائن وقتل الكلاب رجماً بالحجارة في شوارع غواكامايال

الملتهبة، أن نتصور عذاباً أشد قسوة وشراسة من تلك الحياة القائمة على المبادئ.

ومع ذلك، سرعان ما انتهينا إلى أن السيدة فوربس لم تكن صارمة جداً مع نفسها مثلما هي معنا. وكان ذلك هو الشرخ الأول في سلطتها. في أول الأمر كانت تبقى على الشاطئ تحت المظلة الملونة، بملابسها الحربية، وهي تقرأ مقاطع من شيللر بينما أوريستي يعلمنا الغوص، ثم كانت تعطينا درساً نظرياً حول السلوك في المجتمع، ساعة بعد ساعة، وحتى استراحة الغداء.

وفي أحد الأيام طلبت من أوريستي أن يأخذها معه في الزورق ذي المحرك إلى دكاكين السياح في الفنادق، ورجعت من هناك ومعها ثوب استحمام من قطعة واحدة، أسود ولامعاً مثل جلد فقمة، ولكنها لم تنزل إلى الماء مطلقاً. كانت تستلقي تحت الشمس على الشاطئ، بينما نحن نسبح، وتمسح العرق عن جسمها بمنشفة، دون أن تمر تحت الدوش. وهكذا صارت تبدو بعد ثلاثة أيام مثل جرادة بحر مسلوقة، وصارت رائحة حضارتها لا تطاق.

كانت لياليها استهتاراً متواصلاً. فمنذ بدء ولايتها علينا شعرنا بأن هناك من يمشي في ظلام البيت، ملوحاً بذراعيه في العتمة، وبدأ أخي يقلق من فكرة كونهم الغرقى التائهين الذين كثيراً ما حدثتنا عنهم فولفيا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أن السيدة فوربس تعيش في الليل حياتها الحقيقية كامرأة متوحدة، وتستنكر هي نفسها

تلك الحياة في النهار. وفي فجر أحد الأيام فاجأناها في المطبخ بقميص نوم تلميذة، وهي تعدّ حلوياتها الرائعة، وجسدها كله حتى وجهها ملوث بالطحين، وتشرب كأساً من نبيذ أوبورتو باضطراب ذهني كان لا بد له أن يثير حفيظة السيدة فوربس الأخرى. ومنذ ذلك الحين عرفنا أنها لا تذهب إلى مخدعها بعد أن تدفعنا إلى النوم، وإنما تنزل لتسبح خفية، أو تبقى في الصالة حتى ساعة متأخرة جداً من الليل، تشاهد في التلفزيون، دون صوت، الأفلام المحرمة على الصغار، وهي تأكل قوالب كاملة من الحلوى، وتشرب حتى زجاجة كاملة من النبيذ الخاص الذي كان أبي يحتفظ به بحرص شديد للمناسبات المهمة. وعلى عكس مواعظها في الصرامة والرصانة، كانت تسرف في الطعام دون ضابط، وبنوع من الشغف المفرط. وكنا نسمعها بعد ذلك تتكلم وحدها في غرفتها، ونسمعها تلقي بألمانيتها الرخيمة مقاطع كاملة من *Die Jungfrau von Orleans* ونسمعها تغني، ونسمعها تنتحب في الفراش حتى الفجر، ثم تخرج لتناول الفطور بعد ذلك وعيناها منتفختان من البكاء، وتكون في كل مرة أكثر كآبة وتسلطاً. لم نعرف أنا وأخي مثل تلك التعاسة منذ ذلك الحين، ولكنني من جانبي كنت مستعداً لتحملها حتى النهاية، لأني أعرف أن حجتها ستتغلب في جميع الأحوال على حجتنا. أما أخي بالمقابل، فقد واجهها بكل اندفاع طبعه، وتحول صيفنا السعيد إلى جحيم. وكانت حادثة السمراء هي الحد الأخير. ففي تلك الليلة بالذات، وبينما نحن في السرير، سمعنا

جلبة السيدة فوربس المتواصلة في البيت الهاجع، فأطلق أخي دفعة واحدة شحنة الحقد كلها التي كانت تتعفن في روحه.

ـ سأقتلها ـ قال.

لقد فاجأني. ليس بسبب تصميمه، وإنما لأني كنت أفكر في الشيء نفسه منذ العشاء. ومع ذلك، حاولت أن أثنيه عن أفكاره.

ـ سيقطعون رأسك ـ قلت له.

ـ لا توجد مقصلة في صقلية ـ قال ـ ثم إن أحداً لن يعرف من هو الفاعل.

كان يفكر في جرة الخزف المستخرجة من البحر التي ما زالت فيها بقية من نبيذ قاتل. وكان أبي قد احتفظ بها ليُجري عليها تحاليل أكثر تعمقاً لمعرفة طبيعة السمّ فيها، لأنه لا يمكن أن يكون السبب في تحول النبيذ إلى سمّ هو مجرد القِدم ومرور الزمن. وقد كان استخدام ذلك السمّ ضد السيدة فوربس سهلاً جداً. ولن يخطر ببال أحد أن الأمر لم يكن أكثر من حادث أو انتحار. وفي الفجر، حين سمعناها تهوي منهوكة من السهر الصاخب، سكبنا نبيذاً من الجرة الخزفية في زجاجة النبيذ الخاص الذي يحتفظ به أبي. وكنا قد سمعنا أن تلك الجرعة كافية لقتل حصان.

كنا نتناول وجبة الفطور عادة في المطبخ، في الساعة التاسعة تماماً، وكانت تقدمها لنا السيدة فوربس نفسها مع أرغفة الخبز الصغيرة المحلاة التي تأتي بها فولفيا فلامينيا منذ الصباح الباكر

وتتركها في سلة فوق الفرن. وبعد يومين من استبدال النبيذ، وبينما نحن نتناول الفطور، نبهني أخي بنظرة فيها خيبة أمل إلى أن الزجاجة السامة لا تزال في خزانة الكؤوس دون أن يمسها أحد. كان ذلك في يوم الجمعة، وقد ظلت الزجاجة في مكانها طوال نهاية الأسبوع. في ليلة الثلاثاء، شربت السيدة فوربس نصفها وهي تشاهد أفلاماً ماجنة في التلفزيون.

ومع ذلك، فقد جاءت في موعدها المعتاد إلى فطور يوم الأربعاء، بوجهها المعهود بعد ليلة سيئة، وعيناها القلقتان مثلما كانتا دائماً وراء زجاج نظارتها السميك، وقد ازداد قلقهما حين وجدت في سلة أرغفة الخبز رسالة عليها طوابع من ألمانيا. قرأتها وهي تشرب القهوة، بالطريقة نفسها التي نهتنا عنها مرات ومرات. وأثناء القراءة كانت تنعكس على وجهها هبات إشراق تشع من الكلمات المكتوبة. بعد ذلك نزعت الطابع عن مغلف الرسالة ووضعته في السلة مع أرغفة الخبز من أجل مجموعة زوج فولفيا فلامينيا الذي يهوى جمع الطوابع البريدية. وعلى الرغم من سوء تجاربنا السابقة معها، فقد رافقتنا في ذلك اليوم في استكشاف الأعماق البحرية، وتسكعنا معاً في بحر مياه رقيقة إلى أن أخذ الأكسجين ينفد من الاسطوانات، فرجعنا إلى البيت دون أن نأخذ درس العادات الحميدة. ولم تكن السيدة فوربس متمتعة بمزاج وردي طوال ذلك النهار وحسب، بل بدت في موعد العشاء أكثر حيوية مما كانت عليه أبداً. أما أخي من جهته فلم يكن قادراً على

تحمل معاناة خيبة الأمل. فما إن تلقينا أمر البدء بتناول الطعام حتى أزاح طبق حساء الشعيرية جانباً بحركة استفزازية، وقال:

ـ لقد سئمت حتى خصيتي من ماء الديدان هذا.

بدا كأنه ألقى على المائدة قنبلة حربية. شحب لون السيدة فوربس وتصلبت شفتاها إلى أن بدأ دخان الانفجار ينقشع. وكانت الدموع قد أحدثت غبشاً على زجاج نظارتها، فنزعتها ومسحتها بالفوطة، ثم وضعت الفوطة على الطاولة قبل أن تنهض وهي تشعر بمرارة هزيمة دون أمجاد، وقالت:

ـ افعلا ما ترغبان فيه. اعتبراني غير موجودة.

وحبست نفسها في غرفتها منذ الساعة السابعة. ولكن قبل أن ينتصف الليل، حين كانت تظن أننا قد نمنا، رأيناها تمر بقميص نوم التلميذة، حاملة إلى غرفة نومها نصف قالب حلوى الشيكولاتة والزجاجة التي مازال فيها مقدار أربعة أصابع من النبيذ المسموم. أحسستُ بارتعاشة شفقة عليها.

ـ مسكينة السيدة فوربس ـ قلت.

لم يكن أخي يتنفس بسلام حين قال:

ـ نحن المساكين إذا هي لم تمت هذه الليلة.

في فجر ذلك اليوم، عادت إلى التكلم وحدها لوقت طويل، وأنشدت أشعاراً لشيللر بصوت عالٍ، وبإلهام جنوني، واختتمتها بصرخة أخيرة ملأت كل جو البيت. بعد ذلك تنهدت عدة مرات

من أعماق روحها وسقطت بصفير كئيب ومتواصل كصفير سفينة منساقة مع التيار. وعندما استيقظنا ونحن لا نزال منهوكين من توتر السهر، كانت الشمس تنفذ كالسكاكين من بين فتحات أباجور النافذة، لكن البيت كان يبدو كأنه غارق في مستنقع. عندئذ انتبهنا إلى أن الساعة تقترب من العاشرة، وإلى أنه لم يجر إيقاظنا وفق روتين السيدة فوربس الصباحي. لم نسمع صوت تدفق الماء في المرحاض في تمام الساعة الثامنة، ولا صوت صنبور المغسلة، ولا صوت رفع أباجورات النوافذ، ولا صوت حدوتي جزمتها، ولا الطرقات الثلاث القاتلة على الباب براحة يدها النحاسية. وضع أخي أذنه على الجدار، وحبس أنفاسه كي يسمع أدنى همسة في الحجرة المجاورة، ثم أطلق زفير تحرر في النهاية.

ـ انتهى الأمر ـ قال ـ الشيء الوحيد المسموع هو صوت البحر.

أعددنا فطورنا قبل الحادية عشرة بقليل، ثم نزلنا إلى الشاطئ، ونحن نحمل أسطوانتي أكسجين لكل واحد منا، واثنتين أخريين احتياطيتين، قبل أن تأتي فولفيا فلامينيا مع دورية قططها لتقوم بتنظيف البيت. كان أوريستي في المرسى ينزع أحشاء سمكة ذهبية تزن ست ليبرات اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة فوربس حتى الساعة الحادية عشرة، ولأنها ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر. وقلنا له أيضاً إنها عانت في الليل من نوبة بكاء وهي على المائدة، وربما تكون قد نامت نوماً سيئاً وفضلت البقاء في الفراش. لم يبد أوريستي اهتماماً زائداً بتوضيحاتنا، مثلما كنا نأمل

تماماً، ورافقنا للطواف طوال أكثر من ساعة في الأعماق البحرية. بعد ذلك أشار علينا أن نصعد لتناول الغداء، ومضى في الزورق ذي المحرك ليبيع السمكة الذهبية في فنادق السياح. ومن السلم الحجري قلنا له وداعاً بأيدينا، إلى أن اختفى وراء صخور الشاطئ. عندئذ وضعنا أسطوانات الأكسجين وواصلنا السباحة دون إذن من أحد.

كان اليوم غائماً، وكانت هناك جلبة رعود قاتمة في الأفق، لكن البحر كان هادئاً وصافياً ومكتفياً بضوئه وحده. سبحنا على سطح الماء حتى خط فنار بانتيلاريا، ثم انحرفنا نحو مئة متر إلى اليمين، وغصنا حيث قدرنا أننا رأينا الطوربيدات الحربية في بداية الصيف. وقد وجدناها هناك: كانت ستة طوربيدات، مطلية بلون أصفر شمسي وتحمل أرقاماً متسلسلة سليمة لم تمس. وكانت مستلقية في القاع البركاني في نظام دقيق لا يمكن له أن يكون مصادفة. ثم واصلنا الدوران حول الفنار بحثاً عن المدينة الغارقة التي كثيراً ما حدثتنا عنها فولفيا فلامينيا بفزع شديد. ولكننا لم نستطع العثور عليها. وبعد ساعتين، حين أقتنعنا بأنه ليست هناك أسرار جديدة تستحق الاكتشاف، صعدنا إلى سطح الماء مع انتهاء جرعة الأكسجين الأخيرة.

كانت عاصفة صيفية قد بدأت بينما نحن غائصان. فقد هاج البحر، وراحت أسراب من الطيور آكلة اللحوم تحوّم مطلقة زعقات متوحشة فوق جماعات الأسماك المحتضرة المنثورة على الشاطئ.

ولكن ضوء المساء بدا كما لو أنه قد صُنع للتو، وكانت الحياة طيبة دون وجود السيدة فوربس. ومع ذلك، حين انتهينا من الصعود بمشقة على الدرجات الصخرية، رأينا أناساً كثيرين في البيت وسيارتي شرطة أمام الباب. عندئذ وعينا أول مرة هول ما أقدمنا عليه. صار أخي يرتجف، وحاول الرجوع على أعقابه.

ـ أنا لن أدخل ـ قال.

أما أنا بالمقابل، فقد راودني إلهام غامض بأننا ما إن نرى الجثة حتى نصبح بمنأى عن أي شكوك.

ـ اهدأ ـ قلت له ـ خذ نفساً عميقاً، وفكر في أمر واحد فقط: نحن لا نعرف شيئاً.

لم يهتم بنا أحد. تركنا أسطوانات الأكسجين والأقنعة وأقدام العوم عند البوابة، ودخلنا من الممر الجانبي، حيث كان يقف رجلان. انتبهنا إلى وجود سيارة إسعاف عند الباب الخلفي، وعدد من العسكريين المسلحين ببنادق. وفي الصالة، كانت نسوة الجوار يصلين بلهجتهن وهن جالسات على كراسٍ مستندة إلى الجدار، بينما كان رجالهن يتجمعون في الفناء ويتحدثون في أي أمر لا علاقة له بالموت. ضغطتُ بقوة أكبر على يد أخي المتصلبة والباردة، ودخلنا البيت من الباب الخلفي. كانت غرفة نومنا مفتوحة وبالحالة نفسها التي تركناها بها في الصباح. وفي غرفة نوم السيدة فوربس، وهي التالية بعد غرفتنا، كان يقف دركي مسلح يراقب

الدخول إليها، لكن الباب كان مفتوحاً. نظرنا إلى الداخل بقلب مثقل، وما كدنا نفعل ذلك حتى خرجت فولفيا فلامينيا من المطبخ مثل هبة ريح، وأغلقت الباب مطلقة صرخة رعب:

ـ حباً بالرب يا صغيريّ، لا ترياها!

ولكن ذلك كان متأخراً. ولن ننسى أبداً، مدى الحياة، ما رأيناه في تلك اللحظة الخاطفة. كان هناك رجلان يرتديان ملابس مدنية ويقيسان بشريط متري المسافة بين السرير والجدار، بينما كان شخص آخر يلتقط صوراً بآلة تصوير ذات غطاء أسود من تلك التي يستخدمها مصورو الحدائق العامة. ولم تكن السيدة فوربس على السرير المشعث، بل كانت ملقاة على جانبها فوق الأرض، عارية وسط بركة من الدم الجاف الذي صبغ أرض الغرفة كلها. وكان جسدها مثقباً مثل غربال بطعنات خنجر. لقد كان في جسمها سبعة وعشرون جرحاً قاتلاً، وكان يبدو من عدد الطعنات وقسوتها أنها وُجهت بثورة حب متأجج، وأن السيدة فوربس تلقتها بالعاطفة نفسها، حتى دون أن تصرخ، ودون أن تبكي، مرددة أشعار شيللر بصوتها العسكري البديع، ومدركة أن ذلك هو الثمن المحتوم لصيفها السعيد.

١٩٧٦

الضوء كالماء

La luz es como el agua

في عطلة عيد الميلاد، عاد الطفلان إلى طلب زورق التجديف.

ـ حسن ـ قال الأب ـ، سنشتريه حين نعود إلى كارتاخينا.

لكن توتو، في التاسعة من عمره، وجويل، في السادسة، كانا أشد تصميماً مما اعتقده أبواهما. فقد قالا معاً:

ـ لا. إننا نحتاجه الآن وهنا.

ـ أولاً، ـ قالت الأم ـ لا يوجد هنا ماء للإبحار سوى الماء الذي ينزل من الدوش.

وكانت هي وزوجها على حق. ففي بيتهم في كارتاخينا دي إندياس، يوجد فناء فيه رصيف على الخليج، ومكان يتسع ليختين كبيرين. أما هنا، في مدريد، فيعيشون محشورين في شقة في الطابق الخامس من المبنى رقم ٤٧ في شارع باسيو دي لاكاستيّانا. لكنهما في النهاية لم يستطيعا، هو أو هي، أن يرفضا، لأنهما كانا قد وعدا الطفلين بزورق تجديف مع آلة سدس وبوصلة إذا فازا بإكليل الغار في السنة الثالثة الابتدائية، وقد فازا به. وهكذا اشترى

الأب كل شيء دون أن يخبر زوجته، وهي الأكثر معارضة لتحمل ديون من أجل الألعاب. كان زورقاً بديعاً من الألمنيوم، مزيناً بخط ذهبي عند حد الغاطس.

وقد كشف الأب السر عند الغداء:

ـ الزورق موجود في الكراج. المشكلة أنه لا يمكن الصعود به في المصعد أو على السلم، وفي الكراج لا يوجد متسع كاف.

ومع ذلك، دعا الطفلان أصدقاءهما يوم السبت التالي للصعود بالزورق على السلم، وتمكنوا من حمله إلى غرفة المستودع في البيت.

ـ تهانينا. ـ قال لهما الأب ـ ثم ماذا الآن؟

قال الطفلان:

ـ الآن لا شيء. كل ما كنا نريده هو حمل الزورق إلى الغرفة، وها قد صار هنا.

يوم الأربعاء ليلاً، وكما في كل أربعاء، ذهب الأبوان إلى السينما. أما الطفلان اللذان صارا وحيدين وسيدي البيت فقد أغلقا الأبواب والنوافذ، وكسرا أحد مصابيح الصالة المضاءة. فبدأ يتدفق تيار من الضوء الذهبي والبارد من المصباح المكسور، تركاه يسيل إلى أن بلغ ارتفاعه أربعة أشبار. عندئذ أقفلا التيار، وأخرجا الزورق، وأبحرا بمتعة بين جزر البيت.

كانت هذه المغامرة الخرافية نتيجة طيش مني حين شاركت في

ندوة حول شِعر الأدوات المنزلية. فقد سألني توتو كيف يضاء النور بمجرد ضغط الزرّ، ولم تكن لدي الشجاعة للتفكير في الأمر مرتين حين أجبته:

ـ الضوء كالماء: يفتح أحدنا الصنبور، فيخرج.

وهكذا واصلا الإبحار كل يوم أربعاء ليلاً، وتعلما استخدام آلة السدس والبوصلة، وحين كان الأبوان يرجعان من السينما يجدانهما نائمين على اليابسة كملاكين. وبعد عدة شهور، كانا يتحرقان للمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، فطلبا أجهزة صيد تحت الماء. مجموعة كاملة: أقنعة، أقدام زعنفية، أسطوانات أكسجين، وبنادق هواء مضغوط.

ـ أمر سيء أن يكون لديكما في غرفة المستودع زورق تجديف لا يمكن استخدامه في شيء ـ قال الأب ـ لكن الأسوأ من ذلك أن تطلبا حيازة أجهزة غوص.

ـ وماذا لو فزنا بالغاردينيا الذهبية في الفصل الأول من السنة؟ ـ قال جويل.

ـ لا ـ قالت الأم مذعورة ـ لا نريد أي شيء آخر.

لامها الأب على تصلبها. فقالت:

ـ المشكلة أن هذين الولدين لا يفوزان بقلامة ظفر لمجرد القيام بالواجب، أما من أجل نزواتهما فإنهما مستعدان للفوز بكرسي المعلم.

ولم يقل الأبوان في نهاية الأمر نعم ولم يقولا لا. لكن توتو وجويل اللذين كان ترتيبهما الأخير في السنوات السابقة، فازا في تموز بالغاردينتين الذهبيتين وثناء المدير العلني. وفي ذلك المساء بالذات، ودون أن يطلبا، وجدا في غرفة نومهما أجهزة الغوص في علبتها الأصلية. وفي يوم الأربعاء التالي، بينما كان الأبوان يشاهدان ***التانغو الأخير في باريس***، ملأ الطفلان الشقة إلى ارتفاع ذراعين، وغاصا مثل سمكتي قرش وديعتين تحت الأثاث والأسرة، وأخرجا من أعماق الضوء الأشياء التي كانا قد فقدها منذ سنوات في الظلام.

وعند منح الجوائز النهائية، اختير الأخوان كتلميذين مثاليين في المدرسة، وقُدمت لهما شهادات امتياز. وفي هذه المرة لم يطلبا شيئاً، لأن الأبوين سألاهما عما يريدانه. وقد كانا عاقلين لدرجة أنهما لم يرغبا إلا في إقامة حفلة في البيت لتكريم زملائهم في الصف.

كان الأب متألقاً وهو يتحدث على انفراد مع زوجته.

ـ هذا دليل على نضجهما ـ قال.

ـ الله يسمع منك ـ قالت الأم.

وفي يوم الأربعاء التالي، بينما الأبوان يشاهدان فيلم ***معركة الجزائر***، رأى الناس الذين كانوا يمرون في شارع كاستيّانا شلالاً من الضوء يهوي من عمارة قديمة مختفية بين الأشجار. كان يخرج

من الشرفات، ويتدفق بغزارة على واجهة المبنى، ويجري في الجادة العريضة في سيل ذهبي يضيء المدينة حتى غوادارما.

حطم رجال الإطفاء الذين استدعوا على عجل باب الطابق الخامس، ووجدوا البيت طافحاً بالضوء حتى السقف. كانت الأريكة والمقاعد المغلفة بجلد فهد تطفو في الصالة على مستويات متعددة بين زجاجات البار، والبيانو بشرشفه الذي من مانيلا الذي كان يتحرك مثل سمكة مانتاريا ذهبية. وكانت الأدوات المنزلية، في أوج شاعريتها، تطير بأجنحتها الخاصة في سماء المطبخ، وأدوات الجوقة الحربية التي يستخدمها الطفلان للرقص تطفو على غير هدى بين الأسماك الملونة المتحررة من الحوض الذي تحبسها فيه ماما. وكانت تلك الأسماك هي الوحيدة التي تطفو حية وسعيدة في المستنقع الفسيح المضيء. وفي الحمام، كانت تطفو فراشي أسنان الجميع، والواقيات الذكرية التي يستخدمها بابا، وأنابيب معجون الأسنان، وطقم أسنان ماما الاصطناعية، وكان تلفزيون الصالة يطفو مائلاً وهو ما يزال مفتوحاً يبث الحلقة الأخيرة من فيلم منتصف الليل المحظور على الأطفال.

وفي نهاية الممر، كان الصغيران يطفوان بين مائين، توتو جالساً في مقدمة الزورق، متشبثاً بالمجدافين والقناع على وجهه، وهو يبحث عن فنار الميناء إلى حيث سمح له الهواء الذي في الاسطوانة، وجويل يطفو في مؤخرة المركب وهو ما يزال يبحث

بآلة السدس عن موقع نجم القطب. وكان يطفو في جميع أرجاء البيت رفاقهم في الصف السبعة والثلاثون، وقد تخلدوا في لحظة تبولهم في أصيص الجرانيوم، أو غنائهم النشيد المدرسي بكلمات محورة إلى سخرية من المدير، أو تناولهم خفية كأس براندي من زجاجة بابا. ذلك أنهم كانوا قد فتحوا أنواراً كثيرة في وقت واحد جعلت البيت يطفح، وغرق جميع تلاميذ الصف الرابع الابتدائي في مدرسة سان خوليان الهوسبيتالاريو في الطابق الخامس من المبنى ٤٧ في باسّو دي كاستيانا، في مدريد بإسبانيا، المدينة البعيدة عن الأصياف الملتهبة والرياح المتجمدة، والتي لا بحر فيها ولا نهر، والتي لم يكن سكان يابستها يوماً من الأيام ماهرين في فنون الإبحار في الضوء.

كانون الأول ١٩٧٨

أثر دمك على الثلج

El rastro de tu sangre en la nieve

عند الغروب، حين وصلا إلى الحدود، لاحظت نينا داكونتي أن إصبعها الذي تضع فيه خاتم الزفاف ما زال ينزف. وكان الحارس الأهلي الإسباني الملتف ببطانية من الصوف الخام فوق القلنسوة المثلثة اللامعة، يتفحص جوازي السفر بوساطة مصباح كربوري، وكان يبذل جهده كي لا تقلبه شدة الريح التي تهب من جبال البيرنيه. وعلى الرغم من أن جوازي السفر كانا دبلوماسيين نظاميين، فقد رفع الحارس المصباح ليتأكد من تطابق الصورتين مع الوجهين. كانت نينا داكونتي تبدو أشبه بطفلة، لها عينا عصفور سعيد وبشرة بلون الدبس مازالت تشع بوهج شمس الكاريبي في غروب كانون الأول الكئيب ذاك، وكانت متدثرة حتى العنق بمعطف من فرو أعناق النمس المسكي لا يمكن شراؤه براتب سنة كاملة من رواتب حرس الحدود كلهم. أما زوجها بيللي سانتشث دي أفيلا، الذي كان يقود السيارة، فكان يصغرها بسنة واحدة، ويكاد يكون جميلاً مثلها، وكان يرتدي سترة ذات مربعات اسكتلندية وقبعة لاعب كرة. وعلى العكس من زوجته، فقد كان

طويل القامة ورياضياً، وله فكان حديديان مثل فكوك القتلة المرهوبين. ولكن ما كان يكشف حالتهما بصورة أفضل، هي السيارة البلاتينية التي تنبعث من دخلها رائحة حيوان حي، وهي سيارة لم تكن حدود الفقراء تلك قد شهدت مثلها من قبل. كان المقعد الخلفي ممتلئاً بحقائب جديدة وعدة علب هدايا لم تُفتح بعد. وكان هناك أيضاً الساكسيفون الذي كان الهوى المتسلط على حياة نينا داكونتي قبل أن تنهزم أمام الحب المعاكس لقاطع طريقها الرقيق في النادي.

عندما أعاد الحارس جوازي السفر مختومين، سأله بيللي سانتشث أين يمكنه أن يجد صيدلية لتضميد إصبع زوجته، فصاح الحارس وهو يواجه الريح إنه يمكنهما السؤال عن ذلك في هيندايا، على الجانب الفرنسي من الحدود، لكن حراس هيندايا كانوا يجلسون حول الطاولة بقمصان قصيرة الأكمام، ويلعبون الورق في ما هم يأكلون خبزاً يغمسونه في فناجين نبيذ كبيرة، داخل كشك زجاجي دافئ وجيد الإضاءة. وكانت رؤيتهم لحجم ونوع السيارة كافية ليشيروا لهما بأيديهم أن يدخلا إلى فرنسا. فأطلق بيللي سانتشث نفير سيارته عدة مرات، لكن الحراس لم يفهموا أنه يناديهم، بل فتح أحدهم زجاج الكشك وصرخ بغضب أشد قوة من الريح:

Merde. Allez-vous-en.[1]

---

(١) بالفرنسية: اللعنة، أدخلا.

عندئذ خرجت نينا داكونتي من السيارة وهو ملتحفة بالمعطف حتى أذنيها، وسألت الحارس بفرنسية تامة أين توجد صيدلية. فرد الحارس رداً معهوداً وفمه ممتلئ بالخبز إن هذه المسألة ليست من اختصاصه، لاسيما في مثل تلك العاصفة، ثم أغلق النافذة الصغيرة. ولكنه ما لبث أن أمعن النظر في الصبية التي كانت تمص إصبعها المجروح، وهي متدثرة ببريق النمس المسكي، ولا بد أنه ظنها رؤيا سحرية في ليلة الرعب تلك، لأن مزاجه تبدل في الحال. أوضح لهما أن أقرب مدينة هي بياريتز، ولكنهما قد لا يجدان صيدلية مفتوحة وسط رياح الذئاب تلك في عز الشتاء إلى أن يصلا بايون، وهي أبعد قليلاً من بياريتز. ثم سألها:

ـ هل الأمر خطير؟

فابتسمت نينا داكونتي وهي تعرض عليه بنصرها ذا الخاتم الماسي، حيث يكاد لا يظهر الجرح الذي أحدثته شوكة الورد.

ـ لا شيء. إنها وخزة وحسب ـ قالت.

قبل وصولهما إلى بايون، عاد الثلج للهطول من جديد. لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة، ولكنهما وجدا الشوارع مقفرة والبيوت مقفلة بسبب العاصفة الهوجاء، وبعد عدة جولات في المدينة، لم يجدا أية صيدلية مفتوحة، فقررا مواصلة التقدم. وقد فرح بيللي سانتشث بالقرار. كان به ولع بالسيارات الغريبة لا يرتوي. وله أب يعاني شعوراً كبيراً بالذنب، وثروات هائلة تفيض عن إرضاء نزوات ابنه الذي لم يكن قد قاد من قبل مثل تلك

السيارة من طراز بينتلي التي أهديت إليه بمناسبة زفافه. لقد كانت نشوته وراء المقود كبيرة لدرجة أنه كلما سار مسافة أطول، شعر بقدر أقل من الإرهاق. وكان مستعداً للوصول في تلك الليلة إلى بوردو، حيث حُجز لهما جناح زفافي، في فندق سبليندد، ولم تكن هناك رياح ولا ثلوج في السماء قادرة على الوقوف في وجهه. أما نينا داكونتي فكانت منهوكة، لاسيما في الجزء الأخير من الطريق الذي قطعاه من مدريد، فقد كان طريقاً جبلياً ضيقاً كدروب الماعز، يعصف فيه البرد. وهكذا، بعد خروجهما من بايون، لفت منديلاً على إصبعها ذي الخاتم وضغطت عليه جيداً لتوقف الدم الذي مازال يسيل، ونامت بعمق. ولم يوقظها بيللي سانتشث إلا عند منتصف الليل، حين توقف هطول الثلج وهدأت الريح فجأة، بين أشجار الصنوبر، وامتلأت سماء السهل بنجوم جليدية. كان قد مرّ قبالة أنوار بوردو الهاجعة، ولكنه لم يتوقف إلا لملء خزان الوقود في إحدى محطات الطريق، فقد كانت لديه الحماسة الكافية للوصول إلى باريس دون التوقف لالتقاط أنفاسه. كان سعيداً جداً بلعبته الكبيرة التي يبلغ ثمنها خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني، حتى إنه لم يسأل نفسه إذا ما كانت سعيدة مثله تلك المخلوقة المشعة النائمة إلى جواره وضماد إصبعها مضمخ بالدم، وأحلامها المراهقة متقاطعة، أول مرة، بدفقات من القلق.

لقد تزوجا قبل ثلاثة أيام، على بعد عشرة آلاف كيلومتر من ذلك المكان، في كارتخينا دي إندياس، وسط ذهول أبويهما،

وخيبة أملها هي، ومباركة شخصية من رئيس الأساقفة بالذات. لم يكن هناك أحد سواهما يفهم الأساس الحقيقي لذلك الحب الطارئ، أو يعرف منشأه. كان حبهما قد بدأ قبل ثلاثة شهور من الزفاف، في يوم أحد بحري هاجمت فيه عصبة بيللي سانتشث غرف استبدال ملابس النساء في نادي السباحة في ماربيبيا. كانت نينا داكونتي قد أكملت ثمانية عشر عاماً من عمرها، ورجعت لتوها من مدرسة شاتيلنيه في سانت بلايز بسويسرا، وهي تتكلم أربع لغات دون لكنه، ولديها براعة تامة في عزف الساكسيفون. وكان ذلك هو يوم الأحد الأول الذي تخرج فيه إلى البحر منذ عودتها. كانت قد تعرت تماماً لكي ترتدي ملابس السباحة عندما بدأت تتعالى صرخات الهلع وضجة الهجوم في الغرف المجاورة، ولكنها لم تدرك ما الذي كان يجري إلى أن طار مزلاج بابها متشظياً، ورأت أمامها أجمل قاطع طريق يمكنها تخيله. الشيء الوحيد الذي كان يرتديه هو سروال سباحة رفيع جداً من جلد فهد مزيف، وكان له جسم متناسق ومرن ولون ذهبي كلون أهل البحر. وفي قبضة يده اليمنى، حيث يوجد سوار مصارع روماني معدني، كان يحمل سلسلة حديدية ملفوفة على يده يستخدمها كسلاح قاتل، وكان يعلق في عنقه سلسلة لا تحمل صورة قديس، وتنبض بصمت مع ذعر القلب.

لقد كانا معاً في المدرسة الابتدائية، وكانا قد كسرا معاً جرار حلوى كثيرة معلقة في أعياد ميلادهما، ذلك أنهما كانا ينتميان إلى

السلالة الريفية التي تتحكم بمصير المدينة منذ زمن المستعمرة، ولكنهما لم يلتقيا منذ سنوات طويلة، ولهذا السبب لم يتعرف كل منهما على الآخر للوهلة الأولى. بقيت نينا داكونتي واقفة دون حراك، ودون أن تفعل شيئاً لإخفاء عريها الحاد. حينئذ أنجز بيللي سانتشث طقوسه الصبيانية: أنزل سرواله جلد الفهد، وعرض عليها حيوانه المنتصب. فنظرت إليه مباشرة ودون دهشة، وقالت متحكمة برعبها:

ـ رأيت ما هو أكبر وأصلب. لهذا عليك أن تفكر جيداً في ما ستفعله، لأنه عليك أن تكون في سلوكك معي أفضل من عبد زنجي.

الحقيقة أن نينا داكونتي لم تكن عذراء وحسب، بل إنها لم تكن قد رأت رجلاً عارياً من قبل. ولكن تحديها أعطى نتيجة. فالشيء الوحيد الذي خطر لبيللي سانتشث هو توجيه لكمة غضب إلى الجدار بقبضته الملفوفة عليها السلسلة، فهشم عظامها. حملته بسيارتها إلى المستشفى، وساعدته على تجاوز فترة النقاهة، وأخيراً تعلما ممارسة الحب بالأسلوب القويم. أمضيا أمسيات حزيران الصعبة على الشرفة الداخلية للبيت الذي ماتت فيه ستة أجيال من أعيان أسرة نينا داكونتي: هي تعزف ألحاناً دارجة على الساكسيفون، وهو يتأملها ويده ملفوفة بالجصّ، من أرجوحة النوم وهو غارق في خدر لا سكينة فيه. كان للبيت نوافذ كبيرة بحجم الجسم، تطل على مستنقع الخليج المتعفن. وكان البيت أحد أكبر

الدور وأقدمها في حي لامانغا، وأكثرها قبحاً دون شك. أما الشرفة ذات البلاط الشطرنجي حيث كانت نينا داكونتي تعزف الساكسيفون، فكانت ملاذاً مريحاً في قيظ الساعة الرابعة، تطل على فناء وارف الظلال تتخلله جذوع أشجار مانجا وشجيرات موز، وتحتها قبر عليه لوحة لا تحمل اسماً، أقدم من البيت ومن ذاكرة الأسرة. وحتى أقل المتفهمين للموسيقى كانوا يفكرون في أن صوت الساكسيفون كان غير مناسب لمثل ذلك البيت النبيل. وكانت جدة نينا داكونتي قد قالت لها حين سمعتها تعزف أول مرة: «صوته مثل صوت سفينة». حاولت أمها عبثاً جعلها تعزف بطريقة أخرى، وليس مثلما كانت تفعل هي بوضع مريح لها، رافعة تنورتها حتى فخذيها ومباعدة ما بين ركبتيها، وبحسية لم تكن تبدو لأمها ضرورية في الموسيقى، فكانت تقول لها: «لا يهمني أية آلة تعزفين ما دمت تفعلين ذلك بساقين مضمومتين». لكن موسيقى السفن المودعة تلك وشراسة الحب هي التي أتاحت لنينا داكونتي أن تكسر قوقعة بيللي سانتشث المريرة. وتحت سمعة الفظاظة المحزنة التي كانت ثابتة عليه بتأثير كنيتيه الشهيرتين، اكتشفت يتيماً مذعوراً ورقيقاً. وقد توصل كل منهما إلى معرفة الآخر جيداً بينما كانت عظام يده تلتحم، حتى أنه هو نفسه ذهل للسلاسة التي يجري بها الحب حين أخذته إلى سرير عذريتها في مساء يوم ماطر كانا فيه وحيدين في البيت. وكل يوم في مثل تلك الساعة، وعلى امتداد أسبوعين تقريباً، تداعبا عاريين تحت الأنظار الذاهلة لصور

المحاربين الأهليين والأجداد النبلاء الذين سبقوهما إلى فردوس ذلك السرير التاريخي. وحتى في استراحات الحب، كانا يبقيان عاريين، والنوافذ مفتوحة، يستنشقان نسيم حطام السفن في الخليج، ورائحته البرازية، ويستمعان في صمت الساكسيفون إلى ضجة الحياة اليومية في الفناء، والمعزوفة الوحيدة للضفدع تحت شجيرات الموز، ووقع قطرة المطر على قبر المجهول، وخطوات الحياة الطبيعية التي لم يكن لديهما متسع من الوقت لمعرفتها من قبل.

حين رجع أبوا نينا داكونتي إلى البيت، كان الشابان قد تقدما في الحب إلى حد لم يعد معه العالم يتسع لشيء آخر، وكانا يمارسانه في أي وقت وأي مكان، ويحاولان اختراعه من جديد في كل مرة. في البدء مارساه على أحسن وجه يستطيعانه في السيارات الرياضية التي كان أبو بيللي سانتشث يحاول التكفير عن خطاياه بشرائها له. وعندما أصبحت السيارات سهلة جداً عليهما، صارا يدخلان في الليل إلى الغرف المقفرة على شاطئ ماربيبيا، حيث قادهما القدر للقاء أول مرة، بل إنهما دخلا متنكرين في كرنفال تشرين الثاني إلى الغرف المستأجرة في حي العبيد القديم في خيتسيماني، في كنف المومسات اللواتي كن يعانين الأمرين إلى ما قبل شهور قليلة من بيللي سانتشث وعصابته من ذوي السلاسل الحديدية. وقد استسلمت نينا داكونتي لممارسات الحب السرية بالولاء الجنوني نفسه الذي كانت تهدره من قبل في العزف

على الساكسيفون، إلى أن انتهى الأمر بقاطع طريقها المروض لأن يفهم ما عانته حين قالت له إنه عليه ان يكون في سلوكه معها مثل عبد زنجي. وقد تجاوب بيللي سانتشث معها جيداً على الدوام، وبالفرح نفسه. وبعد زواجهما، قاما بواجبهما في ممارسة الحب، أثناء نوم المضيفات، فوق الأطلسي، وهما محبوسان بصعوبة في مرحاض الطائرة، وكانا في أثناء ذلك يموتان من الضحك أكثر مما يموتان من اللذة. وهما وحدهما كانا يعرفان، بعد أربع وعشرين ساعة من الزفاف، أن نينا داكونتي، كانت حبلى منذ ثلاثة شهور.

وهكذا فإنهما حين وصلا إلى مدريد، كانا بعيدين عن الإحساس بأنهما عاشقان متخمان، ولكنهما كانا يملكان احتياطات كافية للتصرف كزوجين جديدين صافيين. كان والدا الاثنين قد جهزا لهما كل شيء. فعندما حطت الطائرة، صعد أحد موظفي المراسم إلى مقصورة الدرجة الأولى حاملاً إلى نينا داكونتي معطفاً من فراء النمس المسكي الأبيض، فيه خطوط سوداء لامعة، كهدية زفاف من والديها. وحمل إلى بيللي سانتشث سترة من جلد الخروف هي الموضة الجديدة في ذلك الشتاء، ومفاتيح سيارة لا تحمل اسم ماركتها لتكون مفاجأة.

استقبلته بعثة بلاده الدبلوماسية في صالة المطار الرسمية. ولم يكن السفير وزوجته صديقين قديمين لأسرتهما وحسب، بل إن السفير نفسه كان الطبيب الذي أشرف على ولادة نينا داكونتي، وقد

كان ينتظرها بباقة ورد مشعة وطازجة، حتى إن قطرات الندى عليها بدت كأنها اصطناعية. سلمت على الاثنين بقبلات ممازحة، وهي تشعر بشيء من الارتباك كمتزوجة جديدة، ثم تلقت باقة الورد. وحين أمسكت بها، وخزت شوكة منها إصبعها، ولكنها تجاوزت الحادثة بمزحة فاتنة:

ـ لقد تعمدت ذلك لكي تنتبهوا إلى خاتمي.

وبالفعل، أبدى جميع أعضاء البعثة الدبلوماسية إعجابهم بروعة الخاتم الذي لا بد أنه يساوي ثروة، ليس لنوعية ماساته فقط، وإنما لِقِدَمه المحفوظ جيداً. ولكن أحداً لم ينتبه إلى أن الإصبع بدأت تنزف. فقد انصرف انتباه الجميع بعد ذلك إلى السيارة الجديدة. وقد كان لدى السفير ميلاً إلى الدعابة جعله يأخذ السيارة إلى المطار، ويلفها بورق السيلوفان، ويعقد حولها شريطاً ذهبياً هائلاً. ولم ينتبه بيللي سانتشث إلى تلك اللفتة الذكية من السفير. فقد كان متلهفاً للتعرف على السيارة، فمزق اللفافة بشدَّة واحدة، ووقف مبهوراً. كانت من نوع بينتلي، موديل السنة نفسها، وكانت منجدة من الداخل بجلد حقيقي. ومع أن السماء كانت تبدو كأنها رداء من رماد، وكانت غواداراما ترسل ريحاً قارسة وجليدية، ولم يكن الوقوف في العراء مناسباً، إلا أن بيللي سانتشث لم يكن يعرف بعد ما هو البرد. وقد أبقى البعثة الدبلوماسية في المرآب المكشوف، غير منتبه إلى أنهم كانوا يتجمدون من البرد لمجاملته، إلى أن انتهى من التعرف على السيارة بكل تفاصيلها الخفية. بعد ذلك جلس

السفير إلى جواره ليدله على الطريق إلى منزله الرسمي، حيث أعدوا له غداء. وكان يشير له في الطريق إلى المعالم المشهورة في المدينة، ولكنه بدا غير مهتم بشيء سوى افتتانه بالسيارة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها من بلاده. وكان قد مرّ بكل أنواع المدارس الخاصة والعامة، مكرراً السنة الدراسية نفسها دائماً، حتى انتهى به الأمر إلى الطفو في ليمبوس من الكراهية. إن رؤيته الأولى لمدينة مختلفة عن مدينته، ولغابة العمارات الرمادية بأنوارها المضاءة في عز النهار، والأشجار العارية، والبحر النائي، كانت تزيد كلها من إحساسه بفقدان الحماية الذي يجهد لإبقائه في هامش قلبه. ومع ذلك، فقد سقط بعد قليل، ودون أن ينتبه، في أولى مصايد النسيان. كانت قد بدأت تهب عاصفة مفاجئة وصامتة، الأولى في ذلك الموسم، وحين خرجا من منزل السفير، بعد العشاء، ليبدأا الرحلة إلى فرنسا، وجدا المدينة مغطاة بثلج متوهج. حينئذ نسي بيللي سانتشث السيارة، وراح يطلق الصرخات أمام الجميع، ويلقي حفنات من الثلج على رأسه، ويتمرغ في الشارع وهو بمعطفه.

انتبهت نينا داكونتي، أول مرة، إلى أن إصبعها ينزف، عند خروجهما من مدريد في أمسية تحولت إلى الصفاء بعد العاصفة. وقد فوجئت بذلك، لأنها كانت قد عزفت على الساكسيفون لمرافقة زوجة السفير التي تحب غناء مقاطع من الأوبريات الإيطالية بعد ولائم الغداء الرسمية، ولم تكد تشعر بأي إزعاج في بنصرها.

وفيما بعد، بينما هي تدل زوجها على أقصر الطرق إلى الحدود، كانت تمص إصبعها، لاشعورياً، كلما نزف، ولم يخطر ببالها البحث عن صيدلية إلا عندما وصلا إلى جبال البيرنيه. ثم استسلمت أخيراً للنعاس المتراكم من الأيام الأخيرة، وحين استيقظت فجأة من الكابوس الذي رأت فيه أن السيارة تمشي على الماء، لم تتذكر لفترة طويلة المنديل المربوط على إصبعها. رأت ساعة لوحة القيادة المضيئة، وكانت قد تجاوزت الثالثة، فأجرت حسابات ذهنية سريعة، وأدركت عندئذ فقط أنهما قد تجاوزا بوردو، وكذلك انغوليم وبواتيه، وكانا يعبران سد اللور الذي غمره الطوفان. كان بريق القمر يتسرب من بين الغيوم، وتبدو أشباح القصور بين غابات الصنوبر كأنها قصور حكايات الجنيات. وقدرت نينا داكونتي التي كانت تعرف المنطقة عن ظهر قلب، أنهما صارا على مسافة نحو ثلاث ساعات من باريس، وبيللي سانتشيث لا يزال ممسكاً بالمقود.

ـ أنت متوحش. ـ قالت له ـ إنك تسوق منذ إحدى عشرة ساعة دون أن تأكل شيئاً.

كان لا يزال يقيم أوده على نشوته بالسيارة الجديدة. وعلى الرغم من أن ما نامه في الطائرة كان قليلاً، وبشكل سيء، فإنه كان يشعر بالانتعاش والقوة الكافية للوصول إلى باريس مع طلوع النهار.

ـ مازلت شبعاً من غداء السفارة ـ قال، وأضاف دون أي منطق

ثم إنهم يخرجون الآن من السينما في كارتاخينا. فالساعة هناك الآن حوالي العاشرة.

ومع ذلك، خشيت نينا داكونتي أن يغفو وهو يقود السيارة. ففتحت إحدى علب الهدايا الكثيرة التي قدموها لهما في مدريد، وحاولت أن تدس في فمه قطعة من حلوى البرتقال بالسكر. لكنه تفاداها قائلاً:

ـ الذكور لا يأكلون حلوى.

انقشع الضباب قبل قليل من وصولهما إلى أورليان، وأضاء قمر كبير الحقول المغطاة بالثلج، ولكن حركة المرور أصبحت أصعب بسبب شاحنات الخضار الكبيرة وسيارات صهاريج النبيذ المتوجهة إلى باريس. كانت نينا داكونتي راغبة في مساعدة زوجها على المقود، ولكنها لم تتجرأ على مجرد التلميح إلى ذلك، لأنه كان قد نبهها، منذ أول مرة خرجا فيها معاً، إلى أنه ليس هناك من إذلال للرجل أكبر من ترك امرأته تقوده. كانت تشعر بالانتعاش تماماً بعد نحو خمس ساعات من النوم، وكانت سعيدة أيضاً لأنهما لم يتوقفا في أحد فنادق المقاطعات الفرنسية التي كانت تعرفها منذ طفولتها في رحلاتها العديدة مع أبويها. وكانت تقول: «لا توجد مناظر طبيعية في الدنيا أجمل منها. ولكن المرء يموت من العطش فيها دون أن يجد من يقدم له كوب ماء مجاناً». وقد كانت مقتنعة بذلك إلى حد وضعت معه، في اللحظة الأخيرة، قطعة صابون ولفافة ورق صحي في حقيبة يدها، لأنهم في فنادق فرنسا لا

يضعون الصابون مطلقاً، أما ورق المراحيض عندهم فهو صحف الأسبوع السابق مقصوصة على شكل مربعات ومعلقة بخطاف. والشيء الوحيد الذي كانت تتحسر عليه حينئذ هو تبديدهما ليلة كاملة دون ممارسة الحب. وكان ردّ زوجها فورياً:

ـ الآن بالضبط كنتُ أفكر في أن ممارسة الحب على الثلج ستكون مشوقة. هنا بالذات، إذا شئتِ.

فكرت نينا داكونتي في الأمر جدياً. كان منظر الثلج على جانبي الطريق، وتحت القمر، يبدو وثيراً ودافئاً؛ ولكن حركة المرور، مع اقترابهما من ضواحي باريس، صارت أشد كثافة، وكانت هناك مراكز صناعية مضاءة وأعداد من العمال على الدراجات. ولو لم يكن الفصل شتاء، لكان النهار قد طلع منذ زمن.

ـ من الأفضل الانتظار حتى باريس ـ قالت نينا داكونتي ـ سنكون دافئين جيداً، وفي سرير عليه ملاءات نظيفة، مثل الناس المتزوجين.

ـ هذه أول مرة لا تتجاوبين فيها معي ـ قال.

ـ طبعاً ـ ردت ـ. فهذه أول مرة نتزوج فيها.

قبل الفجر بقليل، غسلا وجهيهما وتبولا في استراحة على الطريق، وتناولا قهوة وكروسان ساخنة، حيث كان سائقو الشاحنات يتناولون الفطور مع نبيذ أحمر. ولاحظت نينا داكونتي وهي في المرحاض وجود بقع دم على بلوزتها وتنورتها، ولكنها لم تحاول تنظيفها. ألقت المنديل المبلل بالدم إلى القمامة، ونقلت

خاتم الزواج إلى يدها اليسرى، وغسلت الإصبع المجروح بالماء والصابون. كانت الوخزة غير مرئية تقريباً. ولكن ما إن رجعا إلى السيارة حتى عاد النزيف ثانية، فأخرجت نينا داكونتي ذراعها خارج السيارة موقنة من أن لهواء الحقول الجليدي فوائد علاجية. كانت وسيلة أخرى غير مجدية. ولكنها لم تكن مذعورة بعد، فقد قالت بفتنتها الطبيعية: «إذا أراد أحد العثور علينا، فسيجد الأمر سهلاً جداً. ما عليه إلا أن يتتبع أثر دمي على الثلج». ثم فكرت في ما قالته بصورة أفضل، وأشرق وجهها مع أنوار الصباح الأولى.

ـ تصور ـ قالت ـ: أثر من الدماء على الثلج من مدريد إلى باريس. ألا يبدو لك هذا جميلاً في أغنية؟

لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير ثانية. ففي ضواحي باريس صار إصبعها ينبوعاً لا يتوقف، وأحست أن روحها تفارقها عبر ذلك الجرح. حاولت وقف النزيف بلفافة الورق الصحي التي تحملها في حقيبتها، ولكنها ما كانت تكاد تلف الإصبع حتى تضطر إلى رمي قطع الورق المضمخة بالدم من النافذة. وراحت ملابسها ومعطفها ومقاعد السيارة تبتل بالدم شيئاً فشيئاً، ولكن بطريقة لا يمكن وقفها. أحس بيللي سانتشث بذعر حقيقي، وأصر على البحث عن صيدلية، ولكنها كانت قد أدركت عندئذ أن الأمر لم يعد من اختصاص صيدلي.

ـ إننا بالقرب من بوابة أورليان ـ قالت ـ تابع التقدم إلى جادة

الجنرال ليكلير، وهي الأكثر اتساعاً، وفيها أشجار كثيرة، وهناك سأوجهك.

كان ذلك الطريق هو أصعب مقطع في الرحلة. فقد كانت جادة الجنرال ليكلير عقدة جهنمية من السيارات الصغيرة والدرجات النارية المتزاحمة في الاتجاهين، وبينها شاحنات ضخمة تحاول الوصول إلى الأسواق المركزية. وأصبح بيللي سانتشث نزقاً جداً بسبب صخب نفير السيارة غير المجدي، وتبادَلَ الشتائم بلغة حملة السلاسل الحديدية مع عدة سائقين، بل إنه حاول النزول من السيارة ليتعارك مع أحدهم، لكن نينا داكونتي تمكنت من إقناعه بأن الفرنسيين لا يصلون إلى حد الضرب بالأيدي مطلقاً. وكان ذلك برهاناً آخر على فطنتها، لأنها كانت تبذل جهدها كيلا يضيعا الوقت.

وقد تطلب منهما الخروج من ميدان ليون دي بيلفو وحده ساعة كاملة. كانت المقاهي والمخازن مضاءة كما لو أن الوقت منتصف الليل، ذلك أنه كان يوم ثلاثاء تقليدي من أيام كانون الثاني الباريسية الغائمة والوسخة، يتخلله رذاذ مطر لجوج لا يصل إلى التحول إلى ثلج. أما جادة دينفر ـ روشو، فكانت أكثر صفاء. وبعد اجتياز عدة شوارع، أشارت نينا داكونتي على زوجها أن ينعطف إلى اليمين، وتوقف أمام مدخل الطوارئ في مستشفى ضخم وقاتم.

كانت بحاجة إلى مساعدة كي تخرج من السيارة، ولكنها لم

تفقد صفاءها ولا صحوها. وبانتظار مجيء الطبيب المناوب، أجابت على أسئلة الممرضة التقليدية، عن هويتها وسوابقها الصحية. حمل لها بيللي سانتشث محفظتها وضغط على يدها اليسرى حيث كانت تضع خاتم الزواج، فأحس أنها خامدة وباردة، وكانت شفتاها قد فقدتا لونهما. بقي إلى جانبها ويده في يدها إلى أن جاء الطبيب المناوب، وقام بفحص سريع لبنصرها الجريح. كان رجلاً فتياً جداً، وجهه بلون النحاس القديم ورأسه أصلع. لم توله نينا داكونتي أي اهتمام، بل اتجهت إلى زوجها بابتسامة شاحبة، وقالت له بسخريتها الدائمة:

ـ لا تخف. الشيء الوحيد الذي يمكن حدوثه هو أن يقوم آكل اللحم البشري هذا، ببتر يدي، وأكلها.

أنهى الطبيب فحصه، وفاجأهما عندئذ بلغة قشتالية سليمة، وإن كانت تشوبها لكنة آسيوية، قال:

ـ لا يا صبية. آكل اللحم البشري هذا يفضل الموت قبل أن يبتر يداً بهذا الجمال.

سيطر عليهما الذهول، لكن الطبيب طمأنهما بإيماءة لطيفة، ثم أمر بجر النقالة. حاول بيليي سانتشث أن يمضي معها، ممسكاً بيد زوجته. لكن الطبيب أمسك بذراعه وقال:

ـ حضرتك لا. سنذهب بها إلى قسم العناية المشددة.

ابتسمت نينا داكونتي لزوجها من جديد، وظلت تلوح له بيدها مودعة إلى أن اختفت النقالة في نهاية الممر. وتأخر الطبيب وهو

يدرس المعلومات التي سجلتها الممرضة على اللوحة الصغيرة. فناداه بيللي سانتشث:

ـ دكتور! ـ ثم قال له: ـ إنها حبلى.

ـ في أي شهر؟

ـ الشهر الثاني.

لم يُبد الطبيب الاهتمام الذي انتظره بيللي سانتشث. بل اكتفى بالقول: «أحسنت صنعاً بإخباري»، ومضى في إثر النقالة. ظل بيللي سانتشث واقفاً في الصالة الكئيبة العابقة برائحة عرق المرضى، لايعرف ما يفعل وهو ينظر إلى الممر المقفر الذي أخذوا عبره نينا داكونتي، ثم جلس على مقعد خشبي، حيث كان عدة أشخاص ينتظرون. لم يدر كم من الوقت مضى عليه هناك، لكنه حين قرر الخروج من المستشفى كان الوقت ليلاً، ولا يزال رذاذ المطر متواصلاً، وبقي لا يعرف ما الذي يفعله بنفسه وهو رازح تحت ثقل العالم كله.

أُدخلت نينا داكونتي المستشفى في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من يوم الثلاثاء، السابع من كانون الأول، وقد تأكدتُ من ذلك بنفسي بعد سنوات طويلة، من خلال أرشيف المستشفى. وفي تلك الليلة، نام بيللي سانتشث في السيارة المتوقفة قبالة مدخل طوارئ المستشفى. وفي صباح اليوم التالي، أكل ست بيضات مسلوقة، وشرب فنجاني قهوة بالحليب في أقرب كافتيريا وجدها، ذلك أنه لم يكن قد تناول وجبة كاملة منذ مغادرته مدريد. بعد ذلك

رجع إلى قسم الإسعاف ليرى نينا داكونتي، ولكنهم أفهموه بأن عليه الذهاب إلى البوابة الرئيسية. وهناك وجد أخيراً، بين عمال الخدمة، شخصاً من أستوريا، ساعده على التفاهم مع البواب. فأكد له أن نينا داكونتي مسجلة في المستشفى بالفعل، ولكن الزيارة غير مسموح بها إلا في أيام الثلاثاء، ما بين التاسعة والرابعة، أي بعد ستة أيام. حاول أن يلتقي بالطبيب الذي يتكلم القشتالية، وقد وصفه لهم بأنه أسود وأصلع، ولكن أحداً لم يستطع إفادته بشيء من خلال هاتين المعلومتين البسيطتين.

وبعد أن اطمأن، حين أخبروه بأن نينا داكونتي تخضع للفحوصات، رجع إلى المكان الذي ترك فيه السيارة، وهناك أجبره شرطي المرور على الوقوف بها بعد تقاطعين، في زقاق ضيق جداً، وفي الجانب المخصص للأرقام الفردية. وكان هناك على الرصيف المقابل مبنى مرمم عليه لوحة تقول: «فندق نيكول». كان فندقاً بنجمة واحدة، فيه صالة استقبال ضيقة جداً، لا يوجد فيها سوى أريكة وبيانو قديم، ولكن صاحب الفندق ذا الصوت المزماري، كان قادراً على التفاهم مع الزبائن بأي لغة، شريطة أن يكون لديهم المال لدفع الحساب. أقام بيللي سانتشث مع إحدى عشرة حقيبة وتسع علب هدايا في الغرفة الوحيدة غير المشغولة، وكانت عليّة مثلثة الشكل في الطابق التاسع، يتم الوصول إليها بشق النفس على سلم حلزوني تنبعث منه رائحة رغوة الملفوف المسلوق. وكانت جدران الغرفة مغطاة بستائر كئيبة، ولم تكن النافذة الوحيدة تتسع لأكثر من

الضوء العكر الآتي من الفناء الداخلي. كان هناك سرير مزدوج، وخزانة كبيرة، وكرسي عادي، ومبولة متنقلة، وطست لغسل الأيدي مع إبريقه. وقد كانت الطريقة الوحيدة للبقاء في الغرفة هي الاستلقاء على السرير. كل شيء كان أكثر من قديم وبائس، ولكنه نظيف أيضاً، وبه أثر صحي من دواء جديد.

لم يكن العمر كله كافياً لجعل بيللي سانتشث قادراً على حل ألغاز ذلك العالم القائم على موهبة التقتير. فهو لم يفهم على الإطلاق، سر نور السلّم الذي ينطفئ قبل أن يصل إلى طابقه، ولم يفهم كذلك طريقة إشعاله ثانية. واحتاج إلى نصف نهار كي يعرف أن هناك مرحاضاً، على عتبة الدرج في الطابق. وكان قد قرر استخدامه في العتمة، حين اكتشف بالمصادفة، أن النور يضاء عند إغلاق المزلاج من الداخل، حتى لا ينسى أحدهم النور مضاء. أما الحمام الذي كان في أقصى الممر، وأراد هو استخدامه مرتين في اليوم، مثلما اعتاد أن يفعل في بلاده، فكان لا بد من دفع تعرفة استخدامه بصورة منفصلة ونقداً، وكان الماء الساخن الذي يتم التحكم به من الإدارة، ينقطع بعد ثلاث دقائق. ومع ذلك، فقد كان لدى بيللي سانتشث من وضوح الحكمة ما يكفيه لأن يدرك أن ذلك النظام المختلف تماماً عن نظامه، هو أفضل في كل الأحوال من البقاء في عراء كانون الثاني. وكان يشعر فوق ذلك بالذهول والوحدة، حتى إنه لم يستطع أن يفهم كيف تمكن من العيش يوماً دون حماية نينا داكونتي.

ما إن صعد إلى الغرفة، في صباح يوم الأربعاء، حتى ألقى بنفسه منبطحاً على السرير، دون أن يخلع معطفه، مفكراً في المخلوقة العجيبة التي ما زالت تنزف في الجهة المقابلة من الشارع، وسرعان ما غط في نومٍ طبيعي جداً، حين استيقظ منه، نظر إلى الساعة فوجدها الخامسة. ولكنه لم يعرف إن كانت الخامسة مساء أم فجراً، ولم يعرف في أي يوم من الأسبوع هو، ولا في أي مدينة زجاجية تصفعها الرياح والأمطار. انتظر في السرير مستيقظاً، وكان يفكر طوال الوقت في نينا داكونتي، إلى أن أدرك أن الوقت صباحاً. عندئذ ذهب لتناول الفطور في كافتيريا اليوم السابق، وعرف هناك أن اليوم هو الخميس. كانت أنوار المستشفى مضاءة. وكان المطر قد توقف. وهكذا بقي متكئاً على جذع شجرة كستناء قبالة المدخل الرئيسي، حيث كان يدخل ويخرج أطباء وممرضات يلبسون الأردية البيضاء، وهو يأمل بالعثور على الطبيب الآسيوي الذي استقبل نينا داكونتي. لم يجده، ولم يجده كذلك في مساء ذلك اليوم بعد الغداء، عندما اضطر إلى التخلي عن الانتظار، لأنه بدأ يتجمد. وفي الساعة السابعة، تناول فنجاناً آخر من القهوة بالحليب، وأكل بيضتين مسلوقتين أخريين، تناولهما بنفسه من الخزانة الزجاجية، بعد ثمانية وأربعين ساعة من تناوله الطعام نفسه في المكان نفسه. وعندما عاد إلى الفندق لينام، وجد سيارته وحدها على الرصيف، وجميع السيارات الأخرى على الرصيف المقابل، وكانت هناك قسيمة بغرامة موضوعة تحت

ماسحة الزجاج الأمامي. وتكلف بواب فندق نيكول مشقة كبيرة ليوضح له بأنه في الأيام الفردية من الشهر، يمكن وقف السيارات ذات الأرقام الفردية على الرصيف، وفي اليوم التالي على الرصيف المقابل. لم تكن تلك الإجراءات العقلانية مفهومة لدى واحد من أكثر آل سانتشث دي أفيلا نقاء. فقد كان هو نفسه قد دخل قبل أقل من سنتين إلى إحدى دور سينما الأحياء المكشوفة بسيارة المحافظ الرسمية، وأحدث إصابات مميتة تحت نظر الشرطة غير المبالية. وكانت قدرته على الفهم أقل، حين نصحه بواب الفندق بأن يدفع الغرامة، ولكن دون أن ينقل السيارة من مكانها في مثل تلك الساعة، لأنه سيكون مضطراً إلى تبديل المكان ثانية، في الساعة الثانية عشرة ليلاً. وفي فجر ذلك اليوم، لم يفكر في نينا داكونتي وحسب، بل كان يتقلب في الفراش دون أن يتمكن من النوم، متذكراً لياليه الحزينة في حانات الشاذين جنسياً في السوق العام، في مدينة كارتخينا الكاريبية. كان يتذكر طعم السمك المقلي، والأرز مع جوز الهند في مطاعم الميناء، حيث ترسو سفن جزيرة أروبا. تذكر بيته بجدرانه المغطاة برموز الثالثوث، حيث الساعة الآن توشك أن تبلغ السادسة من مساء الأمس، ورأى أباه ببيجامة حريرية يقرأ الجريدة في برودة الشرفة.

وتذكر أمه التي لا أحد يعرف أين تكون في أية ساعة من ساعات اليوم. أمه الشهية والمهذارة التي تظل بملابس يوم الأحد، مع وردة على أذنها، منذ المساء؛ مغرقة نفسها في الحر الذي

يسببه أقمشة ملابسها الرائعة. ففي مساء أحد الأيام، عندما كان في السابعة من عمره، دخل فجأة إلى حجرتها وفاجأها عارية في السرير مع أحد عشاقها العابرين. تلك الحادثة التي لم يتحدث عنها قط، أقامت بينهما علاقة تواطؤ كانت أكثر جدوى من الحب. ومع ذلك، لم يعِ هذا الأمر، ولا أموراً رهيبة أخرى، في عزلته كابن وحيد. وظل كذلك حتى الليلة التي وجد نفسه فيها يتقلب في السرير، في عَلِيّة كئيبة في باريس، دون أن يكون هناك أحد إلى جانبه، يستطيع أن يحدثه عن مصائبه، بغضب شرس ضد نفسه بالذات، لأنه لا يطيق تحمل رغبته في البكاء.

لقد كان أرقاً نافعاً. فقد استيقظ يوم الجمعة مضعضعاً من تلك الليلة السيئة، ولكنه عاقد العزم على تحديد حياته. وحزم أمره أخيراً على خلع قفل حقيبته كي يتمكن من تبديل ملابسه، لأن مفاتيح الحقائب كلها في محفظة نينا داكونتي، مع الجزء الأكبر من النقود، ودفتر أرقام الهواتف الذي ربما كان سيجد فيه أرقام أحد معارفه في باريس. وفي الكافتيريا المعهودة، أنتبه إلى أنه صار يعرف كيف يطرح التحية بالفرنسية، وكيف يطلب سندويتشات الجامبون والقهوة بالحليب. وكان البيض المسلوق تحت نظره، في الخزانة الزجاجية، يتناوله بنفسه دون حاجة لأن يطلبه. كما أن عمال الخدمة تألفوا معه، بعد ثلاثة أيام من تردده عليهم، وصاروا يحاولون مساعدته في التعبير عن نفسه. وهكذا، عند الغداء يوم الجمعة، بينما هو يحاول أن يثبت رأسه في مكانه، استطاع أن

يطلب شريحة لحم عجل مع بطاطا مقلية وزجاجة نبيذ. وأحس أنه في أحسن حال، فطلب زجاجة أخرى شرب نصفها، ثم اجتاز الشارع وقد اتخذ قراراً حازماً بدخول المستشفى عنوة. لم يكن يعرف أين سيجد نينا داكونتي، لكن صورة الطبيب الآسيوي التي بعثتها العناية الإلهية كانت راسخة في ذهنه، وكان واثقاً من أنه سيجده. لم يدخل من البوابة الرئيسية، وإنما من مدخل الطوارئ الذي بدا له أن الحراسة عليه أضعف، ولكنه لم يتقدم أبعد من الممر الذي لوحت له فيه نينا داكونتي بيدها مودعة. فقد سأله حارس يلبس رداء ملوثاً بالدم، شيئاً لدى مروره، لكنه لم يلتفت إليه. فلحق الحارس به مردداً السؤال بالفرنسية، ثم أمسك به أخيراً من ذراعيه بقوة أوقفته في مكانه. حاول بيللي سانتشث التخلص منه بحركات حَمَلَةِ السلاسل الحديدية، فشتم الحارس أمه بالفرنسية، ولوى ذراعه وراء ظهره بحركة بارعة، وقاده وهو يكاد يرفعه عن الأرض، حتى الباب، وألقى به مثل كيس بطاطا في وسط الشارع.

في مساء ذلك اليوم، بدأ بيللي سانتشث الذي آلمته العبرة، بالتحول إلى راشد. فقرر أن يفعل ما كانت ستفعله نينا داكونتي لو كانت مكانه، أي اللجوء إلى السفارة. وبالرغم من أن بواب الفندق كان يبدو نفوراً من مظهره، إلا أنه كان خدوماً جداً، وصبوراً جداً كذلك في التعامل مع اللغات. وقد وجد رقم هاتف السفارة وعنوانها في دليل الهاتف، وسجلهما على بطاقة. ردّت على المكالمة امرأة لطيفة جداً، ومن صوتها المتقطع والخالي من

البريق، تعرف بيللي سانتشث في الحال على لهجة أهل الأنديز الكولومبيين. بدأ بالإعلان عن اسمه كاملاً، وهو واثق من أنه سيبهر المرأة بكنيته، ولكن صوتها لم يتأثر عبر الهاتف. سمعها تلقي عليه، من الذاكرة، الدرس المحفوظ، بأن السيد السفير غير موجود في مكتبه الآن، ولا يمكن أن يأتي حتى اليوم التالي، لكنه لا يمكنه أن يستقبله، في كل الأحوال، دون موعد مسبق، ومن أجل قضية خاصة جداً. وأدرك بيللي سانتشث عندئذ أنه لن يصل إلى نينا داكونتي بهذا الأسلوب، فشكر المرأة على تلك المعلومات باللطف نفسه الذي قدمتها به إليه، ثم ركب سيارة أجرة وذهب إلى السفارة.

كانت السفارة في الرقم ٢٢، في شارع الإليزيه، في أحد أكثر قطاعات باريس هدوءاً. ولكن الشيء الوحيد الذي أدهش بيللي سانتشث، كما أخبرني هو نفسه في كارتخينا دي اندياس، بعد سنوات عديدة، هو أن الشمس كانت هناك صاخبة مثل شمس الكاريبي، لأول مرة منذ وصوله. وأن برج إيفل كان يبرز أعلى من المدينة كلها، في سماء مشرقة. وكان يبدو على الموظف الذي استقبله بدلاً من السفير، أنه قد استرد عافيته للتو من مرض مميت، ليس بسبب البدلة السوداء التي كان يلبسها، والياقة التي تضغط على عنقه، وربطة العنق الحدادية وحسب، وإنما كذلك بسبب تكتم إيماءاته ووداعة صوته. وقد أبدى تفهمه لجزع بيللي سانتشث، ولكنه ذكَّره، دون أن يفقد عذوبته، بأنهم في بلاد

متحضرة، تركز أنظمتها الصارمة على أقدم المعايير وأكثرها حكمة، على عكس بلدان أمريكا اللاتينية البربرية، حيث تكفي رشوة البواب للدخول إلى المستشفيات. وقال له: «لا، يا عزيزي الشاب». فليس هناك من وسيلة أخرى سوى الخضوع لسلطة العقل، والانتظار حتى يوم الثلاثاء. وقال أخيراً:

ـ ثم إنه لم يبق سوى أربعة أيام. وفي هذه الأثناء، اذهب إلى اللوفر، إنه جدير بالمشاهدة.

حين خرج بيللي سانتشث، وجد نفسه في ساحة كونكورد، دون أن يعرف ما عليه أن يفعله. رأى برج إيفل بارزاً فوق الأبنية، وبدا له قريب جداً، فحاول الوصول إليه ماشياً على الأرصفة. لكنه سرعان ما انتبه إلى أنه أبعد مما يبدو عليه، وأنه يبتعد كلما مشى نحوه. فراح يتخيل نينا داكونتي جالسة على مقعد، على ضفة السين. رأى مرور السفن تحت الجسور، فلم تبد له سفناً، وإنما بيوت عائمة تائهة، ذات سقوف ملونة، ونوافذ على عتباتها العلوية أصص أزهار، وعلى سطوحها حبال غسيل. راقب طويلاً صياد سمك ثابتاً في مكانه يحمل قصبة ثابتة، يتدلى منها خيط ثابت وسط التيار. وتعب وهو ينتظر أن يتحرك شيء، وبقي إلى أن بدأ الظلام يخيم، فقرر الرجوع إلى الفندق في سيارة أجرة. وعندئذ فقط، تنبه إلى أنه لا يعرف اسم الفندق، ولا عنوانه، وأنه ليست لديه أي فكرة عن القطاع الباريسي الذي يوجد فيه المستشفى.

أعماه الرعب، فدخل إلى أول مقهى وجده. طلب كأس

كونياك، وحاول تنظيم أفكاره. وبينما هو يفكر، رأى نفسه مكرراً مرات كثيرة، ومن زوايا مختلفة، في المرايا العديدة على الجدران..وجد نفسه خائفاً ووحيداً، وفكر أول مرة منذ مولده، بواقعية الموت. لكنه شعر بالتحسن مع الكأس الثانية، وخطرت له فكرة ألهمته إياها العناية الإلهية، بالعودة إلى السفارة. بحث عن البطاقة في جيبه، ليتذكر اسم الشارع، فاكتشف أن اسم الفندق وعنوانه مطبوع على قفاها. وقد كان لتلك التجربة أثر سيئ جداً عليه، حتى إنه لم يعد للخروج من غرفته في نهاية ذلك الأسبوع إلا لتناول الطعام وتبديل موقف السيارة إلى الرصيف المناسب. وطوال ثلاثة أيام، هطل دون توقف رذاذ المطر الوسخ الذي كان يهطل في صباح يوم وصولهما. وتمنى بيللي سانتشث الذي لم يقرأ كتاباً كاملاً في حياته، أن يكون معه كتاب كي يقاوم الضجر وهو مستلق على السرير، لكن الكتب الوحيدة التي وجدها في حقائب زوجته، كانت بلغات أخرى غير القشتالية. وهكذا بقي ينتظر يوم الثلاثاء وهو يتأمل الطواويس المكرورة على ورق الجدران، دون أن يتوقف لحظة واحدة عن التفكير في نينا داكونتي. ويوم الاثنين، رتب الغرفة قليلاً، مفكراً في ما ستقوله إذا وجدتها في مثل تلك الحالة، وعندئذ فقط انتبه إلى أن معطف الفراء ملوث ببقع دم جافة. أمضى المساء وهو ينظفه بصابون معطر وجده في حقيبة اليد، إلى أن تمكن من إعادته ثانية مثلما كان عندما صعدوا به إليهما في الطائرة، في مدريد.

وجاء يوم الثلاثاء مضطرباً وجليدياً، ولكن دون رذاذ المطر. وقد استيقظ بيللي سانتشث منذ السادسة، وانتظر أمام بوابة المستشفى مع حشد من ذوي المرضى المحملين بعلب هدايا وباقات أزهار. ودخل وسط الزحمة حاملاً على ذراعه معطف فراء النمس المسكي، دون أن يسأل شيئاً، ودون أن تكون لديه أي فكرة عن المكان الذي قد تكون فيه نينا داكونتي، لكنه كان يستند إلى يقين راسخ بأنه سيلتقي بالطبيب الآسيوي. اجتازا فناء داخلياً واسعاً جداً، فيه أزهار وعصافير برية، وعلى جانبيه كانت عنابر المرضى: النساء إلى اليمين، والرجال إلى اليسار. ودخل مع الزائرين إلى جناح النساء. رأى صفاً طويلاً من المريضات يجلسن على الأسرة وهن يرتدين قمصان نوم المستشفى المهترئة، وتنعكس عليهن أضواء النوافذ الكبيرة، وفكر في أن ذلك المكان أكثر بهجة مما يخيل إلى المرء من الخارج. وصل إلى نهاية الممر، ثم ذرعه مرة أخرى بالاتجاه المعاكس، حتى تأكد من أن أياً من أولئك المريضات ليست نينا داكونتي. ثم اجتاز مرة أخرى الجناح الخارجي، وهو ينظر عبر النوافذ إلى عنابر الرجال، حتى ظن أنه رأى الطبيب الذي يبحث عنه.

وكان هو نفسه فعلاً. كان مع أطباء آخرين وعدة ممرضات، يقومون بفحص أحد المرضى. دخل بيللي سانتشث إلى العنبر، وأبعد من طريقه إحدى ممرضات المجموعة، ووقف في مواجهة

الطبيب الآسيوي الذي كان منحنياً على المريض. ناداه. فرفع الطبيب عينيه الحزينتين، وفكر لحظة، ثم تعرف عليه. قال:

ـ ولكن، إلى أي شياطين ذهبت حضرتك؟

شعر بيللي سانتشث بالارتباك، وقال:

ـ إلى الفندق. هنا عند الناصية.

وعندئذ عرف كل شيء. لقد ماتت نينا داكونتي نزفاً في الساعة السابعة وعشر دقائق من يوم الخميس، التاسع من كانون الثاني، بعد ستين ساعة من الجهود غير المجدية التي بذلها أفضل الأطباء الاختصاصيين في فرنسا. وقد ظلت صاحية وهادئة حتى اللحظة الأخيرة، وأعطت توجيهات للبحث عن زوجها في فندق بلازا أتينيه، حيث كانت هناك غرفة محجوزة لهما، وقدمت المعلومات اللازمة للاتصال بوالديها. وقد أُعلمت السفارة بالأمر يوم الخميس في برقية مستعجلة من وزارة الخارجية، في الوقت الذي كان فيه والدا نينا داكونتي يطيران نحو باريس.

تولى السفير نفسه الإشراف على إجراءات التحنيط والمأتم، وظل على اتصال بمديرية شرطة باريس لمعرفة مكان بيللي سانتشث. وقد أذيع نداء خاص ومستعجل بأوصافه، من الإذاعة والتلفزيون، منذ ليل الجمعة حتى مساء يوم الأحد. وكان خلال تلك الساعات الأربعين أكثر رجل يجري البحث عنه في فرنسا. وكانت صورته التي عُثر عليها في محفظة نينا داكونتي، معروضة

في كل مكان. وتم العثور على ثلاث سيارات من نوع بينتلي، ومن الموديل نفسه، لكن أياً منها لم تكن سيارته.

وصل والدا نينا داكونتي يوم السبت ظهراً، وسهرا على الجثمان في كنيسة المستشفى، وانتظرا حتى اللحظة الأخيرة العثور على بيللي. وقد أُخبر والداه أيضاً، وكانا جاهزين للطيران إلى باريس، لكنهما تخليا عن فكرة السفر أخيراً، بسبب تشوش في البرقيات. وقد جرت مراسم نقل الجثمان يوم الأحد، في الثانية بعد الظهر، على بعد مئتي متر فقط من غرفة البؤس في الفندق، حيث كان بيللي سانتشث يحتضر في الوحدة، حباً بنينا داكونتي. أما الموظف الذي استقبله في السفارة، فقد أخبرني بعد سنوات أنه هو نفسه من تلقى برقية وزارة الخارجية بعد ساعة من خروج بيللي سانتشث من مكتبه، وأنه خرج يبحث عنه في برات فوبوسانت أنوري. واعترف لي بأنه لم يوله اهتماماً كبيراً عندما استقبله، لأنه لم يتصور قط أن ذلك الشاب الساحلي المذهول بباريس الجديدة عليه، والذي يرتدي، بصورة سيئة، معطفاً من جلد الخراف، يمكن أن يكون له مثل ذلك النسب النجيب. وفي ليل الأحد بالذات، عندما كان بيللي سانتشث يتحمل معاناة رغبته في البكاء قهراً، تخلى والدا نينا داكونتي عن البحث عنه، وحملا الجثمان المحنط في تابوت معدني، ومن تمكنوا من رؤية ذلك الجسد، ظلوا يكررون طوال سنوات كثيرة أنهم لم يروا قط امرأة أجمل منها، سواء وهي حية أو وهي ميتة. وهكذا، حين دخل بيللي

سانتشث أخيراً إلى المستشفى، كانت قد انتهت عملية الدفن في مقبرة لامانغا الكئيبة، على بعد أمتار قليلة من البيت الذي حلا فيه أول رموز السعادة. وقد أراد الطبيب الآسيوي الذي أطلع بيللي سانتشث على المأساة، أن يعطيه بضعة أقراص مهدئة في صالة المستشفى، لكنه رفضها. ومضى دون كلمة وداع، ودون شيء يشكر عليه، مفكراً في أن الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه، وبأقصى سرعة، هو العثور على شخص يحطم له أمه بضربات السلاسل كي يستطيع الخروج من محنته. وحين غادر المستشفى، لم ينتبه إلى أنه كان يهطل من السماء ثلج لا يحمل أي أثر للدم، وكانت ندف الثلج الناعمة والناصعة، تبدو كأنها ريش حمام، وكان هناك جو احتفال في شوارع باريس، لأن الثلج كان يسقط بمثل تلك الغزارة أول مرة منذ عشر سنوات.

١٩٧٦

الفهرس



وبعد العشاء الذي يمتد طويلاً، ويتحدثان فيه كثيراً، كانا يمارسان، عن ظهر قلب، حباً ثابتاً يخلّف في نفسيهما رواسب كارثية.